الدكتور

محمد مصطفى زيادة مؤرخــاً

دراسة مرجعية مقدمة

مــــن

الدكتور / مسعد سيد محمد كتبي

المدرس في قسم التاريخ والحضارة

بكلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

إلــى

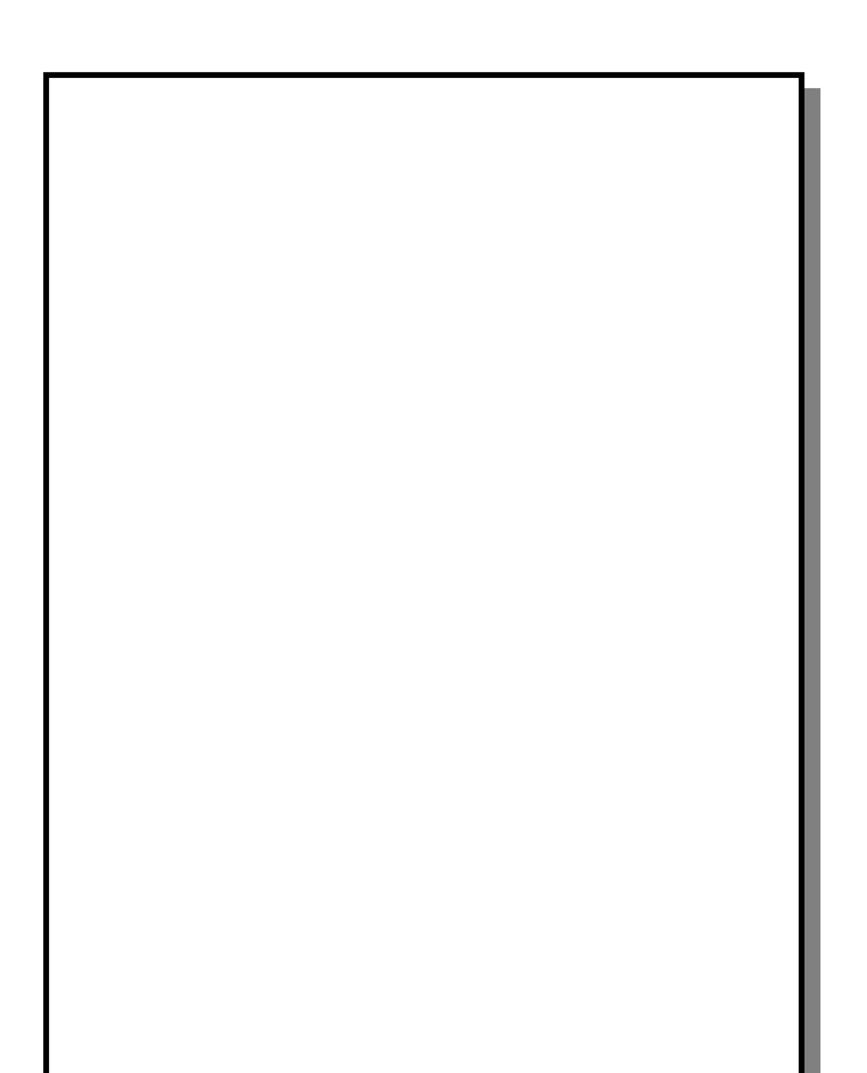
اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة

المساعدين بجامعة الأزهر لاستكمال متطلبات الحصول

على درجة أستاذ مساعد في التاريخ والحضارة

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م .


بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ الدكتور / محمد مصطفى زيادة

مقـــدمـــــة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله ، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين ، ... وبعد

فيحفل تاريخ مصر الحديث بسير لرجال وأعلام تركوا بصماتهم فيه ، وخلدوا ذكراهم بمآثرهم العلمية ونتاجهم الخصب ومن هؤلاء الدكتور محمد مصطفى زيادة (١٣١٨- ١٣٨٨هـ / ١٩٠٠- ١٩٦٨م) المؤرخ الكبير ، الذي يعد رجلاً من أبرز رجالات مصر ، وعالماً من أجل علمائها ، ورائداً من رواد الدراسات التاريخية ، ومن رجال الرعيل الأول لرواد النهضة المصرية الذين اضطلعوا بدور كبير في إرساء دعائمها في مطلع القرن العشرين ، ومن الذين نهجوا في سبيل تحقيق ذلك طرقاً شتي دون أن يحجم عن ارتياد أصعبها وأوعرها، ضارباً في كل عمل بسهم وافر وجهد عميق ، لا يتوفر إلا لأصحاب العزم من العلماء المخلصين ، والذى أفنى عمره في صنع جيل صالح من المؤرخين العرب ، المزودين بالقدرات المتينة والمؤهلات العالية ، التي تكفل لهم خدمة وطنهم وربطه بشتى ينابيع الحضارة العالمية الحديثة .

ويشكل الجهد الذي بذله الدكتور زيادة في مجال النشر والترجمة والتأليف ، نموذجاً حياً على ما تحلى به سيادته من أمانة صادقة في العمل ، ومواهب نادرة في تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركبًا ذلولاً للباحثين والعلماء ، وحسبك دليلاً على هذا أن الرجل خلَّف للمكتبة التاريخية ثلاثة وستين عملاً متنوعاً من نشر وترجمة وتأليف ، منفرداً تارة ، ومشاركاً لغيره أخرى ، ومراجعاً ومقدماً

أحياناً ، وناقدًا حينا ، وهذا النتاج الزاخر متفاوت في الكم ، ما بين الأعمال المطولة ذي الأجزاء العدة ، وبين المقالات الرصينة التي لم تتجاوز صفحاتها أصابع اليد الواحدة ، وهو في هذا كله نموذج للعالم المؤرخ الخبير بما يسطر الجدير بما يدون .

وقد كان للدكتور زيادة منهجٌ لتحقيق النهضة العلمية المرتجاة في ميدان الدراسات التاريخية ، يقوم على دعائم ثلاث ، **أولاها** : نشر النصوص التراثية التاريخية ، وإخراجها من ظلمات المخطوطات إلى نور المطبوعات ، **وثانيها** : الاقتباس بالترجمة من عيون المؤلفات الغربية التاريخية الرصينة ، **وثالثها** : ولوج ميدان التأليف التاريخي بعد توفر دعامتيه الأوليين ، وبهذا كله يخطو البحث العلمي خطاه نحو النهضة العلمية المأمولة .

وفي مجال تحقيق الدعامة الأولى كان الدكتور زيادة من الرواد الأوائل الذين وضعوا القواعد المنهجية العلمية لنشر النصوص التاريخية التراثية قولاً وعملاً ، حيث أسهم بما له من باع في هذا المضمار في إخراج ونشر عشرين متناً من سبات المخطوطات بعد طول هجود إلى روح المطبوعات ، فكان فارس ميدانه في عصره بلا منازع ، وخليقاً بأن يكون أستاذ الجيل في عمله ، ومن شوامخ المحققين ، ليس هذا فحسب ، بل خلَّف من بعده مدرسة علمية متميزة في النشر تدين له بالفضل ، فاحتل عن جدارة بهذا وذاك مكانة علمية مرموقة بين محققي متون التراث التاريخي .

وأما في ميدان الترجمة فقد كان سيادته ذا إلمام دقيق بأسرار اللغتين العربية والإنجليزية ، وخير من ينقل في عصره إلى لغة الضاد شيئاً من عيون المؤلفات

الغربية التاريخية الرصينة ، ذلك الذي تجلى في مترجماته ومشاركاته ومراجعاته لعشرة من هذه الأعمال ، التي كان بعضها موسوعيا ذا أجزاء عدة ، ناهيك عن ضوابطه لاختيار هذه المؤلفات ، بأن تكون فريدة في لغتها ، ومن النتاج العلمي المرموق الذي يحافظ على مكانته وقيمته جيلاً بعد آخر ، ويسهم للقارئ العربي في تجلية بعض حقائق العصور الوسطى الأوربية ، أو يكون دافعاً لاقتفاء أثره في وضع مُؤلَّف شرقي يحاكيه في منهجه .

وجاء النتاج التاريخي للدكتور زيادة تتويجاً لجهوده في الميدانين السابقين ، فخلف سيادته للمكتبة التاريخية ثلاثة وثلاثين عملاً ، منفرداً بنفسه تارة ، ومشاركاً ومراجعاً وناقداً لنتاج غيره أخرى ، وقد تنوع جهده العلمي في هذه الناحية ، فشمل موضوعات تاريخية ، وكتابات منهجية ، قد تطول أو تقصر وهو في هذا وذاك يأتي بجديد ، أو يكشف النقاب عن شيء من التراث تليد ، ويترك بصمته على كل عمل له ، ذلك الذي تجلى في مؤلفه الفريد عن المؤرخين في مصر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، الذي يعد باكورة علم التأريخ في القرن العشرين ، أو مؤلفه الآخر القمين عن حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .

وبالإضافة إلى ما سبق من جهود للدكتور زيادة في مجال تحقيق النهضة العلمية ، فقد كان سيادته ، **مؤسس مدرسة متميزة لتاريخ العصور الوسطى** بمعناه العلمي الذي توخاه ، تدرعت بالمناهج العلمية الحديثة ، التي جعلت من التاريخ علماً له قواعده وأصوله ، وكان هدفها التوفر على دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في هذه الحقبة ، لاستجلاء نواحي الغموض في هذه العلاقات ،

وعرض علمي لتاريخ المشرق للكشف عن مواطن الجدة والأصالة فيه ، فهو لا يقل طلاوة عن تواريخ الأمم ذوات الماضي التليد ، وقد وجدت هذه المبادئ والأسس طريقها إلى نتاج الدكتور زيادة التاريخي ، كما تلقفها تلاميذه ومريدوه الذين نهلوا من معينه ، وحملوا الراية خلفاً له ، حتى صاروا أعلاماً للمؤرخين يشار إليهم بالبنان، وأصحاب مدارس منبثقة من جامعة أستاذهم جيلاً بعد آخر.

وأما عن المنهج الذي اتبعته في إعداد دراسة هذا الموضوع ، فقد استهللته بتوجيه الجهَدَ نحو الاستقصاء الشامل لكل النتاج التاريخي الذي خلفه الدكتور زيادة ، دون النظر إلى نوعه أو حجمه ، ثم شرعت في تصنيفه تحت مباحث ثلاثة نشر وترجمة وتأليف ، مع التقديم لكل واحد منها بقواعد مستنبطة لمنهج مؤرخنا فيه ، ومراعاة توزيع هذه الأعمال بحسب انفراد زيادة بها ، أو مشاركته فيها ، أو تقديمه ومراجعاته ونقده لها ، مع التوفر بالدراسة على ما انفرد به سيادته من هذا كله ، وأما عن المبحث الخاص بالمنهج التاريخي للدكتور زيادة ، فقد قدمت له بالعوامل المؤثرة في فكره ، والتي كان لها الأثر الجلي في منهجه ، ثم البحث في منهج استقرائي تحليلي عن أهم الأسئلة التي حاول من خلال نتاجه المتنوع الإجابة عليها مع استنباط الملامح الهامة لمنهجه من خلال أعماله ، وعرضه في مجموعة من السمات والخصائص ، والاستدلال على كل واحدة منها بنموذج أو أكثر من شواهدها المتناثرة في ثنايا نتاجه ، مع الإشارة إلى أهم الإضافات المنهجية التي وضعها الدكتور زيادة في تطبيقاته على العصور الوسطى بشقيها الشرقي والغربي.

ومما هو جدير ذكره بصدد الحديث عن منهج إعداد الدراسة ، أني حرصت

على عدم المغالاة في الترجمة للأعلام المشهورة ، أو التعريف بالبلدان المعروفة ، أو بيان للمصطلحات المألوفة لحقبة العصور الوسطى ، والاقتصار على المجهول من هذا كله ، ومما له علاقة وطيدة بالبحث وقضاياه ، كما ألزمت نفسي بالمزاوجة بين التاريخين الهجري والميلادي ، ليصبح الموضوع في ذاته دليلاً على ما كان من علائق متنوعة بين أصحاب هاتين الحضارتين في عصورهما الماضية أو الحاضرة .

وقد جاء هذا الموضوع المعنون بـ « **الدكتور محمد مصطفى زيادة مؤرخاً** » في خمسة مباحث ، مسبوقة بمقدمة ، ومشفوعة بخاتمة ، ومجموعة من الملاحق ، وثبت للمصادر ، وفهرست للموضوعات على النحو التالي :

المقدمة تعرضت فيها لأهمية الموضوع ، والمنهج الذي اتبعته ، وخطة البحث فيه .

وعرض المبحث الأول لسيرة الدكتور محمد مصطفى زيادة ومدرسته ، مستفتحاً إياه بالحديث عن نشأته ، ومراحل حياته العلمية ، وتدرجه الوظيفي ، وتأسيسه لمدرسة تاريخ العصور الوسطى ، وجهوده العلمية داخل الجامعة وخارجها حتى وفاته .

وتحدث المبحث الثاني عن جهود الدكتور زيادة التراثية ، تلك التي تمثلت في دعواته لنشر التراث ، وبيان أهدافه في دعم النهضة العلمية ، وأهم قواعد النشر العلمي التي ارتضاها ، وإسهاماته في هذا الميدان نشراً ومراجعة ونقداً للمتون ، مع تقييم لجهوده .

وخصص المبحث الثالث للحديث عن إسهامات الدكتور زيادة في مجال الترجمة ، مقدماً لذلك بضوابطه لاختيار الأعمال المترجمة ، وجهوده الجليلة في ذلك منفرداً

بنفسه ، أو مشاركاً لتلاميذه ، أو مراجعاً لترجمات غيره ، مع تقييم لجهوده في هذا المضمار .

وعقد المبحث الرابع لتناول الجهود التأريخية للدكتور زيادة ، مستعرضاً نتاجه المتنوع من الموضوعات التاريخية ، أو الكتابات المنهجية ، ومشاركاته لغيره في التأليف ، ومراجعاته وتقديماته ونقده لمؤلفات معاصريه .

وجاء المبحث الخامس والأخير لاستكناه المنهج التاريخي للدكتور زيادة ، وذلك من خلال نتاجه المتنوع .

وأبانت الخاتمة عن أهم النتائج المستقاة من دراسة هذا الموضوع .

وبعد ، فهذه محاولة للاجتهاد ، لعرض سيرة علم من أعلام ومؤرخي القرن العشرين ، وبيان لجهوده في مجال النهوض بالدراسات التاريخية ، فإن كنت وفقت فيها فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني مجتهد فيما أردت ، وفي درب البحث ملتمس ، وللحقيقة باغٍ ، ولا يسعنى في هذا المقام إلا أن أتقدم بوافر الشكر وعظيم التقدير إلى شيوخي الأجلاء ، بما لهم عليَّ من أياد بيض ، فجزاهم الله عني خير الجزاء ، (**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) .

الباحث

مسعد سيد محمد كتبي

المنصورة ليلة **٢٧/رجب/١٤٣٢هـ**
٢٩/يونية/ ٢٠١١م

المبحث الأول

سيرة الدكتور
محمد مصطفى زيادة ومدرسته

أولاً: نشأة محمد مصطفى زيادة :

ولد الدكتور محمد مصطفى زيادة في مدينة المحلة الكبرى بدلتا مصر في التاسع من المحرم سنة ١٣١٨هـ/ التاسع من مايو سنة ١٩٠٠م ، وسط أسرة تقدر قيمة العلم والعلماء ، في وقت ضن فيه من يقدر هذا وأولئك في المجتمع المصري ، الذي كان يرزح تحت نير الاحتلال الإنجليزي ، وتدرج زيادة في مراحل التعليم الأولى في مدارس بلدته ، ثم انتقل منها إلى القاهرة ، مواصلاً سعيه الدؤوب في المدرسة الثانوية ، ومتتلمذاً على أيدي علماء عصره في التاريخ كالأستاذ عبد الحميد العبادي وغيره ، حتى حصل على درجة البكالوريا- الثانوية – سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م(١).

ثم التحق زيادة بمدرسة المعلمين السلطانية – بعد تحولها من المعلمين الخديوية سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م – التي كانت هي ومدرسة دار المعلمين القديمة تمثلان أكبر معهدين عاليين في مصر لتخريج العلماء الأشداء الشوامخ(٢)

---

(١) محمد مصطفى زيادة وآخرون : تصدير كتاب الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها صفحة هـ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة ، ط٣ ، د ت ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الأول ص ٩٦ ، الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث من شوامخ المحققين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، د ط ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

(٢) تخرج من هذه المدرسة جيل من أعظم من شهدت مصر من أقطاب الأساتذة والمربين والسياسيين ، الذي نهض معظمهم بأعباء التعليم بها طوال النصف الأول من القرن العشرين ، وتولى بعضهم العديد من المناصب الهامة ، التي وصل بعضها إلى منصب رئيس الوزراء ، بالإضافة إلى العديد من المناصب الرئيسة بالدولة ، ومن هؤلاء الخريجين الذين عملوا في مجال التاريخ : محمد شفيق غربال ، مؤسس مدرسة التاريخ الحديث في مصر =

الذين أسهموا في تطوير الحياة الثقافية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي ، وتتلمذ زيادة في هذه المدرسة على يدي نخبة من أشهر العلماء في القطر المصري ، ممن أسند إليهم القيام بهذه المهمة ، خلفاً لنظرائهم من الأجانب ، وكان من طليعة هؤلاء في مجال التاريخ الأستاذ محمد رفعت ، والأستاذ محمد شفيق غربال – مؤسس مدرسة التاريخ الحديث في مصر لاحقاً– ومحمد سامي حسونة ، ومحمد صبري ، وحسن إبراهيم حسن ، وفي علم الآثار أحمد كمال باشا ، وفي الجغرافيا محمد فهيم بك ، ومصطفى عامر ، وغيرهم كثير في شتى العلوم والفنون [1].

ومن الذين أثروا في فكر زيادة التاريخي إبَّان دراسته في مدرسة المعلمين

= ومحمد قاسم بك الذي تولى العديد من المناصب الهامة في وزارة المعارف ، وكان من أوائل المؤسسين للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وسليم حسن بك عالم الآثار المصرية الشهير ، الذي اقتحم ميدان التنقيب بعد أن كان حكراً على الأجانب ، وعبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ الإسلامي ، وعميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ومحمد رفعت معرِّب المقررات التاريخية في المدارس المصرية ، ومحمد فؤاد شكري الذي تولى رئاسة قسم التاريخ في آداب القاهرة ، والأخوين حسن وعلي إبراهيم حسن ، وعزيز عطية سوريال ، وأحمد شلبي . عبد المنعم إبراهيم الجميعي : تاريخ مدرسة المعلمين العليا ١٨٨٠- ١٩٣٣م ص٥- ٧ ، الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

(١) محمد مصطفى زيادة : تقديمة لكتاب نابليون لهربرت فشر ، صفحة ز ، ترجمة محمد نوفل ، ومحمد مصطفى زيادة ، دار المعارف بمصر ، د ط ت ، سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص٩٦ ، الجميعي : تاريخ مدرسة المعلمين ص ٥ ، ٦ ، ٣١ .

السلطانية كان الأستاذ محمد رفعت ، الذي يرجع إليه الفضل في تعريب مناهج التاريخ في المدارس المصرية لاحقاً ، وكان له قصب السبق في تدريس التاريخ الحديث باللغة العربية في أول معهد مدني عالٍ بمصر – مدرسة المعلمين السلطانية – ولم يكن ذلك لقصور في ثقافته الإنجليزية التي كان يحمل فيها شهادة الليسانس من جامعة ليفربول[١] البريطانية ، بل كان حباً في تعريب هذا الفن، الذي كان يعرضه بطريقة علمية خلابة راقت لزيادة ، فشجعته على المضي قدماً في دراسة التاريخ ، وهو وقتئذ في السنة النهائية من دراسته ، كما أصقل الأستاذ مواهب تلميذه ، بإرشاده إلى مناهج البحث التاريخي المختلفة بطريقة علمية عملية ، كما توسم فيه موهبة فذة ، فوجهه لاستكمال دراسته وتخصصه في ميدان التاريخ في نفس الجامعة الإنجليزية التي كان محمد رفعت من أوائل المصريين الذين نهلوا من معينها [٢].

لا يساور المرء ريب في أن هذه المرحلة من حياة زيادة كانت حاسمة في

---

(١) تقع مدينة ليفربول في شمالي غرب انجلترا ، وتعد منفذاً بحرياً لتجارة وسط وغرب بريطانيا ، وفيها تأسست كلية ليفربول الجامعية سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م ، وبدأت الدراسة بها في العام التالي ، وتطورت الكلية سريعاً وتحولت إلى جامعة حكومية سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م . وشهدت توسعاً هائلاً منذ ذلك الوقت ، كما تعاقب على التدريس فيها عدد من العلماء المرموقين الذين حازوا على جائزة نوبل ، وكانت كلية الآداب إحدى كلياتها . ويكيبيديا : الموسوعة الحرة www. Wikipedia. Org ، الثلاثاء ٢١/ ٦/ ٢٠١١م الساعة الثامنة صباحاً .

(٢) زيادة : تقديمة لكتاب نابليون (دار المعارف) صفحة ز ، الجميعي : تاريخ مدرسة المعلمين ص٦ .

توجيه دفته الثقافية للتخصص في مجال التاريخ ، فقد تأثر أيما تأثر بمعلمه المصري صاحب الثقافة الواسعة ، والمناهج العلمية الرصينة ، وفوق هذا وذاك تمسكه بعربية لسانه في شرح معارف لم يألف السابقون عرضها إلا باللسان العجمي ، ناهيك عن بزوغ موهبة زيادة التاريخية التي راقت للأستاذ ، فاستدنى منه تلميذه ، وأرشده إلى أقوم السبل لتنمية مهاراته ومواهبه بالدراسة المتخصصة في جامعة بريطانية ، قطف هو من ثمارها اليانعة ، وترجى أن يقتفي التلميذ أثره .

آتت جهود الأستاذ محمد رفعت أكلها في التربة الصالحة لتلميذه محمد مصطفى زيادة ، الذي اجتهد في دراسته وتحصيله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى تكللت جهوده بالنجاح ، فتخرج من مدرسة المعلمين السلطانية سنة **١٣٣٩**هـ / **١٩٢١**م ، وكان من أوائل خريجيها ، فكافأته الدولة على تفوقه الباهر بإيفاده (١) في بعثة علمية إلى انجلترا للحصول على درجة الليسانس في التاريخ من جامعة ليفربول – تلك الجامعة التي كان سبقه إليها أستاذه محمد رفعت ، ومن بعده محمد شفيق غربال للحصول على الدرجة ذاتها، فنالها في سنة **١٣٣٧**هـ

---

(١) كان ابتعاث أوائل خريجي هذه المدرسة معمولاً به منذ ولاية سعد زغلول لنظارة المعارف سنة **١٣٢٤**هـ / **١٩٠٦**م ، ورعايته لهذه المدرسة – التي كانت تسمى مدرسة المعلمين الخديوية – حيث كان يتم اختيار أوائل خريجيها وإرسالهم إلى بريطانيا ، للالتحاق بإحدى جامعاتها ، للحصول على درجات الليسانس في العلوم المختلفة ، وتعلم المناهج التربوية الحديثة ، والعودة إلى مصر لمزاولة العملية التعليمية في مدارس نظارة المعارف – كما حدث مع زيادة ومعاصريه – وقد انتقد بعض الوطنيين سعد زغلول لإرساله هذه البعثات إلى انجلترا بالذات ، لكونها الدولة المحتلة لمصر ، فكان رده عليهم بأنه يلزمنا أن نتعلم من الذين ارتبطت مصالحنا بهم . الجميعي : مدرسة المعلمين العليا ص٢٧ ، ٢٨ .

/ **١٩١٩**م – فشمر زيادة عن ساعد الجد ، وانكب على الدراسة النظرية والعملية، وتعلم أصول ومناهج البحث التاريخي من المدرسة الإنجليزية ، وارتاد المتاحف ودور المخطوطات لقراءة عيون التراث العربي،ومن ذلك مطالعته لمخطوطة « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » للشيزري في المتحف البريطاني بلندن سنة **١٣٣٩**هـ / **١٩٢١**م ، واختزانها في مستودع الآمال لنشرها بعد حين (١).

تركت هذه السنوات الأربع أثرها في شخصية زيادة ، وأصقلت موهبته التاريخية التي كان يتمتع بها ، بتلقيه دروساً نظرية وعملية في مناهج البحث التاريخي من المدرسة الإنجليزية ، تلك التي تقوم على عملية التدقيق والتحقيق في الحوادث قبل عملية التفسير والتعليل والكتابة ، ناهيك عن النصائح القمينة التي أسداها له غير واحد من أساتذته ، وظلت محفورة في أعماقه رغم تطاول السنين والأيام ، وسطر إحداها بعد سبع وعشرين سنة من تلقيها ، حينما أعاد إخراج الطبعة الثانية من كتاب نابليون لفشر سنة **١٣٧١**هـ/ **١٩٥٢**م ، حيث أورد في تصديره لهذا المؤلف شطراً من نصحية مكتوبة لأحد أساتذته في جامعة

---

(١) محمد مصطفى زيادة : تصديره لكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري (عبد الرحمن بن نصر ت **٥٨٩**هـ / **١١٩٣**م) صفحة د ، قام على نشره السيد الباز العريني ، إشراف محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٩٤٦** ، سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص**٩٦** ، أحمد عزت عبد الكريم : كلمة تأبين لمحمد شفيق غربال ص**١١** ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الحادي عشر ، **١٩٦٣**م ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية في العصور الوسطى والإسلامية ، ص **٢٩٦** ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع والثلاثون ، **١٩٩٦**م .

ليفربول في مرحلة الليسانس ، يقول له فيها قبل مغادرته بريطانيا عائداً إلى وطنه مصر ، « **إياك أن يعلوك الصدأ ، وإياك أن تخلط بين الصدأ والمعدن في تدريس التاريخ أو دراسته أو البحث فيه ، ولديك بمصر من أسلافك المصريين – في هذه الجامعة التي عشت فيها معنا – فئة قليلة ، لكنها كفيلة بأن تشرح لك ما ليس في استطاعتي عملياً شرحه آلان** » [(١)].

لا يخالج المرء ريب في أن هذا المنهج العلمي الرصين في دراسة التاريخ ، الذي تلقاه زيادة من مدرسية نظرياً وعملياً ، قد أكسبه قدرة على وضع أقدامه على الطريق الصحيح للبحث العلمي ، حتى لو كان ما زال يحبو في مدارجه الأولى في مرحلة الليسانس ، تلك التي برع فيها ، حتى نال ما يصبو إليه ، وتكللت جهوده وطموحاته بحصوله على درجة الليسانس في التاريخ بتقدير مرتبة الشرف سنة **١٣٤٣**هـ / **١٩٢٥**م ، وعاد إلى وطنه وهو يحمل آمالاً عريضة في أن يجد على أرض الواقع مجالاً لتطبيق ما تعلمه ودرسه ، فعُين من قِبل وزارة المعارف مدرسا للتاريخ بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية – تلك التي سبقه إليها مدرساً صنوه وتربه محمد شفيق غربال بعد حصوله على درجة الليسانس – وهي بلا شك وظيفة كبيرة مرموقة ، لها اعتبارها ومكانتها في مجتمع

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط دار المعارف) صفحة ز ، هاري إلمربارنز : تاريخ الكتابة التاريخية ٢/ ٧١ ، ترجمة د/ محمد عبد الرحمن برج ، مراجعة د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٩٨٧**م ، حسنين محمد ربيع : محاضرة مخطوطة عن الدكتور زيادة ص١ ، أهداها للدارس بتاريخ **٥/ ٤/ ٢٠١١**م ، الساعة **١-٢** ظهراً ، قسم تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

محدود مثل المجتمع المصري حينئذ في الربع الأول من القرن العشرين ، عندما كان القطر المصري بأكمله ليس به إلا سبع مدارس ثانوية ، منها: ثلاث بالوجه البحري ، إحداها العباسية الثانوية التي عمل بها زيادة ، وثلاث في القاهرة ، وواحدة بصعيد مصر في أسيوط[١].

لم ينس زيادة النصيحة الغالية التي أسداها إليه أستاذه قبل مغادرته إنجلترا ، فما أن استقرت أقدامه في مدينة الثغر مدرساً حتى ولى وجهه باحثاً عن أحد أسلافه ممن سبقوه إلى الدراسة في جامعة ليفربول ، فحظى منهم بالأستاذ محمد نوفل ، الذي كان ناظراً لمدرسة العطارين الابتدائية في حي كوم الدكة ، فاستأنس به زيادة ، وتجاذب معه أطراف الحديث غير مرة حول معارفهما ودورهما في خدمة الوطن والعلم ، وذكرياتهما عن موطن دراستهما في جامعة ليفربول ، وعن تلك النصيحة الغالية التي وقرت في وجدان زيادة من أستاذه ، بألا يعلوه الصدأ وألا يخلط بينه وبين معدن العلم ، فاقترح زيادة على نوفل تطبيق ذلك عملياً بالولوج إلى ميدان الترجمة ؛ لتعريب أحد كتب التاريخ الحديث الأوربي ، وجعله مستساغاً لطلاب المدارس الثانوية ، فوقع الاختيار على ترجمة كتاب نابليون لمؤلفه فشر ، فكان ذلك أول الثمار العملية لزيادة في مجال الترجمة ، ورأى هذا

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : كلمة تأبين الدكتور محمد مصطفى زيادة ص٤ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس عشر ، **١٩٦٩**م ، أحمد عزت عبد الكريم : كلمة تأبين غربال ص١١ ، يحيى الخشاب : كلمة تأبين لمحمد شفيق غربال ص **٢١** ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الحادي عشر ، **١٩٦٣**م .

العمل النور في سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م ، وتداولته أيدي القراء والمثقفين[١].

ثانياً : ولوج زيادة إلى الجامعة :

تعد الجامعة المصرية الأهلية أولى المؤسسات العلمية التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين و كان الهدف من إنشائها سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م تحطيم عنق الزجاجة في مجال الثقافة ، والخروج إلى آفاق أرحب ، يستطيع من خلالها الخريجون خدمة الوطن عن طريق العلم الذي لم يكن يصل إلا صداه من أوربا، والتعاون على البحث العلمي الحر ، وتقدم العلوم ، ووصل سلسلة التعليم العالي من حيث انتهت المراحل السابقة ، وبذلك تسري دماء نقية في عروق المصريين تدفع إلى النشاط والحركة صوب تحقيق الاستقلال [٢].

وشهدت هذه الحقبة من تاريخ مصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م تطلع المصريين إلى آفاق جديدة ، بعد أن ضاقوا ذرعاً بالاحتلال البريطاني من ناحية ، وحرّكتهم وعود الخلفاء المعسولة أثناء الحرب من ناحية أخرى ، فقامت ثورة سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م تطالب بحقوق البلاد السياسية ، في الوقت الذي أدركت فيه مجموعة المفكرين أهمية تطوير المجتمع المصري اجتماعياً وفكرياً ، وإلى هذا الدور بالذات ترجع البذرة الأولى لفكرة

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (دار المعارف) صفحة ح .

(٢) محمد خلف الله : الجامعة ورسالتها (١) ص٢١٠٦ ، ٢١٠٧ ، مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد ١٠٣ ، ١٧ ذي القعدة سنة ١٤٥٩هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٤٠م ، ماهر حسن فهمي : تحرير المرأة لقاسم أمين ٨٠٨/٣ ، موسوعة تراث الإنسانية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت .

تنفيذ الجامعة المصرية – الحكومية – لتكون حجر الزاوية في تلك المرحلة من مراحل تطور البلاد[١].

ولقد خطت الجامعة الأهلية خطوة نحو الأمام، بعد أن صدر في **١٥** شعبان سنة **١٣٤٣**هـ / **١١** مارس **١٩٢٥**م مرسوم بقانون بإنشاء الجامعة المصرية الحكومية[٢] – جامعة فؤاد الأول – بعد أن كانت جامعة أهلية، وتطلب تنفيذ ذلك إيجاد قاعدة عريضة من أعضاء هيئة التدريس المتخصصين في كل علم وفن، ومن ثم بدأ التوسع في إيفاد عدد من البعثات العلمية إلى أوربا للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، ليكونوا نواة لأعضاء هيئة التدريس بتلك الجامعة الوليدة[٣].

وكان تفوق زيادة الباهر خلال دراسته في مدرسة المعلمين السلطانية وجامعة ليفربول البريطانية مسوغاً لأن يقع عليه الاختيار ليوفد – وآخرين – في

---

(١) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **٩٦** .

(٢) مما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن من خريجي مدرسة المعلمين العليا ومدرسة دار العلوم من استطاعوا تولي حركة التدريس في هذا الجامعة الوليدة، بل واستطاع بعضهم أن يحتفظ بمنصب الأستاذية في الجامعة بفضل ما تهيأ لهم من الدراسة والتدريس في مدرسة المعلمين العليا، وكان من هؤلاء عبد الحميد العبادي، ومحمد شفيق غربال، ومحمد فؤاد شكري، وبعض الجغرافيين أمثال محمد عوض محمد، ومصطفى عامر. الجميعي : مدرسة المعلمين ص **٤٠** .

(٣) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **٩٦**، أحمد عزت عبد الكريم : كلمة تأبين غربال ص **١٠**، حسنين ربيع : محاضرة مخطوطة ص **١**، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٤** .

بعثة علمية أخرى للحصول على درجة الدكتوراه ، التي تؤهله لمزاولة مهنة التدريس في الحياة الجامعية الجديدة ، فسافر إلى جامعته الأولى في **٤** ربيع الآخر سنة **١٣٤٦**هـ/ أول أكتوبر **١٩٢٧**م ، وقضى ثلاث سنوات في البحث والتنقيب والإعداد لأطروحته ، زار خلالها غير واحدة من المكتبات ودور المخطوطات العالمية ، كالمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف البريطاني في لندن ، لجمع مادة موضوعه وجلها من المخطوطات المبعثرة بين جنباتها ، وذلك كله بإشراف أستاذه (جورج كوبلاند G.W.Copland) ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ليفربول ، حتى تمكن زيادة من الحصول على درجة الدكتوراه في تاريخ العصور الوسطى سنة **١٣٤٩**هـ / **١٩٣٠**م في موضوع **(العلاقات الخارجية للدولة المصرية في القرن الخامس عشر)** (Foreign Relations of Egypt in the Fifteenta Century)[١].

ولقد ترك الأستاذ (كوبلاند) أثراً كبيراً في منهج زيادة التاريخي ومؤلفاته اللاحقة ، حيث طلب منه بعد الانتهاء من كتابة أطروحته أن يلحق بها فصلاً يشرح له فيه الأصول والمنابع العربية التي استقى منها حقائقه التاريخية ؛ ليكون على بينة من أمرها وأمره ، وليلقي عليه درساً عملياً في الجرح والتعديل لمصادره ،

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي ت **٨٥٤**هـ / **١٤٤٢**م) جزء **١** قسم **١** صفحة هـ ، صححه ووضع حواشيه وقدم له د/ محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د ط ، **١٩٣٤** – **١٩٥٨**م ، نقد كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ص **٢٥٢**، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، **١٩٥١**م ، سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **٩٦** ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٦** ، **٢٩٧** .

أو العدالة والضبط (Historiography) ، وأتم زيادة ما كُلف به على أكمل وجه ، وصار هذا الفصل بعد ذلك محوراً لمؤلفه القيم « **المؤرخون في مصر القرن الخامس عشر الميلادي** » ، كما وجه (كوبلاند) باحثه إلى قراءة مقالته عن عصره الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا ، إبّان إعداده لأطروحته ، فانتفع بها زيادة انتفاعاً جليلاً جعله يقدم بعد ذلك على ترجمتها إلى العربية ، ليفيد بها طلابه كما انتفع هو بها ، وليكون في ذلك بعض وفاء لأستاذه ، الذي ظل يتعهد زيادة حتى بعد أن شب عن الطوق ، وصار أستاذاً لا يشق له غبار ، فكان يتحفه بملحوظاته النفيسة ، كتلك التي أسداها إليه بعد ظهور الطبعة الثانية من القسم الأول لكتاب (تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر) ، حيث نبه (كوبلاند) زيادة إلى بعض النقد في ترجمته ، وما في الأصل الإنجليزي من مواضع تحتاج عناية خاصة في النقل إلى العربية ، وذلك سنة **١٣٧٤**هـ / **١٩٥٤**م ، أي بعد ربع قرن من تتلمذ زيادة عليه ، وإن دل هذا كله على شيء فإنما يدل على عمق العلاقة بين مؤرخنا زيادة وأستاذه (كوبلاند) ، ومدى الأثر الذي خلفه فيه ، والذي ظل بادياً عليه طيلة حياته من إتقان المنهج العلمي في دراسة التاريخ[١].

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) صفحة ز ، تصديره لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لهربرت فشر ، القسم الأول صفحة ط ، نقله إلى العربية د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ السيد الباز العريني ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، **١٩٧٦**م ، تصديره لكتاب الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا لكوبلاند وفينو جرادوف صفحة ط ، ي ، ترجمة د/ محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط**٣** ، **١٩٥٨**م .

ثالثاً : تأسيس زيادة لمدرسة التاريخ الوسيط :

عاد الدكتور محمد مصطفى زيادة إلى وطنه مصر سنة **١٣٤٩**هـ / **١٩٣٠**م بعد حصوله على الدرجة العلمية من جامعة ليفربول ، وعُين مدرساً لتاريخ العصور الوسطى في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول – جامعة القاهرة الآن – في **١٠** شوال سنة **١٣٤٩**هـ / أول مارس **١٩٣١**م ، فكان أول مدرس لتاريخ العصور الوسطى في الوطن العربي ، وبدأ في إدخال دراسة تاريخ أوربا كأحد أهم جوانب دراسة التاريخ الوسيط إلى جانب التاريخ الإسلامي ، وهو ما يعني بالمفهوم العلمي دراسة تاريخ الشرق والغرب والعلاقة بينهما في هذه العصور[١].

ولم تكن الظروف العلمية آنذاك مهيأة تماماً للدكتور زيادة ليشق طريقه نحو تحقيق آماله في مجال تخصصه (تاريخ العصور الوسطى) بمفهومه الذي ترسخ في وجدانه من الربط بين الشرق والغرب لأسباب عدة :

أولاها : أن الأساتذة الأجانب من فرنسيين وإنجليز كانوا يحتلون أكثر كراسي التدريس بالجامعة المصرية الوليدة ، التي كانت في ذلك الوقت أحد ميادين الصراع الثقافي – وهو صراع سياسي في حقيقته – بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي ، وكان الدكاترة المصريون الشبان المعينون حديثاً في هذه الجامعة – من أمثال زيادة – قلة في العدد ، ويعملون جاهدين ليجدوا لهم موطئ قدم بين كلا النفوذين الأجنبيين ، وليشقوا طريقهم في التدرج العلمي

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء **١** قسم **١** صفحة هـ ، سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص**٩٧** ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٧** .

نحو كراسي الأستاذية[١] .

ثانيها : أن رئاسة قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة فؤاد الأول– القاهرة– كانت وقتذاك من نصيب (البروفسير الفرنسي بيرجوبيهPierre joubet) فكان من الطبيعي أن يصوغ هو وأقرانه من الأجانب مناهج الدراسة على أساس من المفاهيم التي تربوا علمياً وأكاديمياً في ظلها ، التي تعكس بالضرورة الوعي التاريخي الغربي بالذات وبالآخر ، وتركز على التاريخ الأوربي في عصوره المختلفة ، ولم يكن نصيب التاريخ العربي والإسلامي يحتل مساحة تتناسب مع مساحة التاريخ الأوربي ، ناهيك عن أن تقسيم العصور التاريخية كان وفقاً للتقسيم الأوربي للفترات المعهودة ، يبدأ بالعصور القديمة ، ثم الوسطى ، وينتهي بالعصر الحديث ، وهذا التقسيم لا يصلح للبلاد العربية ومنها مصر ؛ لأن العصور الوسطى في الغرب تطلق على فترة هبوط بين ارتفاعين ، هما : الفترة الكلاسيكية القديمة ؛ حيث العظمة الإغريقية والرومانية ، والفترة الحديثة في التاريخ الغربي ، وهو ما يتناقض تماماً مع حقائق التاريخ العربي والإسلامي ؛ الذي كان في قمة ارتفاعه وحضارته زمن العصور الوسطى الأوربية المظلمة[٢].

ثالثهاً : أن المشتغلين بالدراسات التاريخية في مصر حينئذ كانوا يوجهون

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : كلمة تأبين غربال ص ١٢ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : في تقسيم التاريخ ص ٢٩ – ٣١ ، مجلة الثقافة السنة الأولى ، العدد التاسع ، ٩محرم سنة ١٣٥٨هـ / ٢٨ فبراير ١٩٣٩م ، قاسم عبده قاسم : فهم التاريخ في الدراسات الأكاديمية الحديثة ص٦ ، ملحق أهرام الجمعة ٢١/ ١/ ٢٠١١م ، الموقع الإلكتروني على الشبكة العنكبوتية لكلية الآداب ، جامعة القاهرة ١١/١/ ٢٠١١م ، الساعة ١١.٦ مساءاً ، WWW. Arts.cu . Edu. Eg .

عنايتهم أمداً طويلاً إلى التاريخ الإسلامي بالذات ، وهو جانب واحد من جوانب العصور الوسطى ، وفق التقسيم التاريخي المغلوط ، ناهيك عن أن هذه العصور الوسطى الأوربية – بما فيها من تيارات دينية غير إسلامية – لم تكن دراستها يسيرة ومحببة إلى النفوس في بلد إسلامي ، كان ما يزال يحبو لبناء صرح نهضته الحديثة ، ومن ثم لم تعرف المدرسة التاريخية في الوطن العربي شيئاً عن العصور الوسطى إلا من زاويتها الإسلامية البحتة ، أما الحقل الغربي لتلك العصور فلم تعرف عنه سوى قشور سطحية بعيدة عن متطلبات الدراسة الجامعية الجادة [١].

رابعاً : أن تاريخ هذه الحقبة – بما آمن به زيادة خلال دراسته – كان يعني دراسة تاريخ الشرق والغرب في تلك العصور ، وبمفهومه الأكاديمي الدقيق يضم تاريخ الإسلام والمسيحية جميعا ، وما كان بين هذين الطرفين من تداخل حضاري ، أو من صدام حربي استمر حتى مطلع العصور الحديثة ، وعلى هذا – كما يقول سعيد عاشور – فإن الباحث في هذه الحقبة لا يدرس حضارات متجانسة أو متقاربة في اتجاهاتها ، وإنما عليه أن يدرس ويبحث ويغوص في دراسة اتجاهين مختلفين ، وأن يلم بحضارتين متميزتين ، ويقارن بين عقليتين متباينتين ، اقتسمتا العالم المتحضر – وخاصة حوض البحر المتوسط – نحواً من تسعة قرون متتالية [٢] .

وكذلك لم تكن دراسة العصور الوسطى بهذا المعنى بالمهمة السهلة على

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٥ ، ٦ .

(٢) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٩٧ .

زيادة ولاحقيه ، إلا إذا تزود الباحث بالإمكانيات العلمية ، من الدراسة المتخصصة ، وتسلح بالعدد الفكرية اللازمة ، وطبق مناهج البحث العلمية لفهم كل اتجاه من هذين الاتجاهين المتميزين ، وتتبع أصول كل حضارة ونشأتها ، ثم اقتفى أثر ما كان بينهما من تيارات دافقة وتفاعل وصلات ، ولذا – كما يقول سعيد عاشور– فإن مؤرخ العصور الوسطى لا يمكن أن ينجح إذا عاش في غرفة مغلقة ، أطلق عليها اسم التاريخ الإسلامي ، أو اسم التاريخ الأوربي الصرف ، وإنما عليه إذا أراد أن ينجح أن يربط دائماً بين الطرفين ، فإذا نظر بإحدى عينيه إلى العالم الإسلامي فعليه أن يراقب بعينه ا لأخرى العالم الأوربي المسيحي [١].

والباحث خلال ذلك كله مطلوب منه أن يتحلى بما يجب أن يتحلى به المؤرخ المنصف من الحيدة ، وعدم التعصب ، فلا تدفعه عقيدته وتعلقه بتراث آبائه وأجداده للدعوة إلى قومية مسرفة ، أو إهمال تواريخ الأمم الأخرى ، وإجحاف الحضارة المسيحية حقها من الإنصاف إذا كان مسلماً ، ولا إلى حرمان الحضارة الإسلامية نصيبها من التقدير إذا كان مسيحياً ، فالأمانة والحياد والبعد عن الهوى هي أمضى الأسلحة التي يمكن أن يتسلح بها المؤرخ بوجه عام ، ومؤرخ العصور الوسطى بوجه خاص[٢] .

وهذا ما نجح الدكتور زيادة في تحقيقه أيما نجاح ، حيث سبر أغوار

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩١ ، مجلة الثقافة ، السنة الثالثة ، العدد١١١ ، ١٥ محرم سنة ١٣٦٠هـ/ ١١ فبراير ١٩٤١م ، سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٩٧ ، ٩٨ .

الحضارتين العربية والغربية خلال هذه الحقبة ، فتمكن من الأولى لأصله الشرقي، وبراعته في تناول موضوعه للدكتوراه ، (**العلاقات الخارجية للدولة المصرية في القرن الخامس عشر**) حيث كان لهذا العمل أثره الواضح على مستقبل نشاطه العلمي ، ذلك أن القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي يمثل عصراً من أنشط عصور سلطنة المماليك في مصر ، ومن ثم ترتب على اهتمام زيادة بالبحث في ذلك العصر شد انتباهه إلى تاريخ الدولة المملوكية بالذات ، وهو تاريخ كان كثير من حلقاته مجهولاً ، حتى عنى زيادة ولاحقيه من تلاميذه باستجلاء نواحي الغموض فيه [١] .

وأما على شاطئ الثقافة الغربية ، فقد تمكن مؤرخنا من الإبحار في حضارتها خلال دراسته لمرحلتي الليسانس والدكتوراه في جامعة ليفربول في بريطانيا ، وإجادته التامة للغتها ، وتعلمه فنون وطرائق بحثها ، وتمرسه ومهارته في التعامل مع المصادر الأوربية لحقبة العصور الوسطى ، تلك التي « **درسها في موطنها على كبار مؤرخيها ، ثم كان بحثه الخاص في المواضع التي تلاقت فيها الحضارات الأوربية والإسلامية** » [٢] وتكلل مجهوده في هذا المجال بمترجماته عن الغرب ، وطريقة اختياره لهذا الصنف من المعارف بدقة متناهية ، بحيث تكون فريدة في لغتها ، وجديرة بنقلها إلى العربية .

ومن هذا وذاك نبعت مكانة مؤرخنا ، وتبوأ مكانة عليّة بين رواد الدراسات

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٥ .

(٢) محمد شفيق غربال : تقديمه للطبعة الأولى لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر ، القسم الأول صفحة د .

التاريخية في العالم العربي ؛ إذ لم تقتصر مهمته على مجرد إلقاء محاضرات في تاريخ العصور الوسطى بمعناه العلمي الذي سبق وأن ألمعنا إليه ، وإنما إنشاء وتأسيس مدرسة داخل الجامعة المصرية ، لذلك الفرع الجديد والجدير بالاهتمام من فروع الدراسات التاريخية ، والتعمق في حقل هذا التخصص بالمؤلفات والمترجمات ونشر عيون التراث فيه ، واستكشاف مجاهل العصور الوسطى ، والربط بين أطرافها في الشرق والغرب ربطاً قوياً محكماً ، ينم عن الإحاطة بهما ، ووضع المصطلحات الجديدة الخاصة بتاريخ تلك العصور الوسطى ، وهي المصطلحات التي لم يعرفها الباحثون العرب من قبل لبعدهم عن هذا الميدان الذي طرقه الدكتور زيادة من زاوية جديدة وفريدة[١] .

كما أولى الدكتور زيادة اهتماماً كبيراً بالتاريخ المصري ؛ إذ هو أولى من غيره بالدراسة والمعرفة ، فضلاً عن أنه لا يقل طلاوة وقيمة عالمية وأهمية مطلقة عن تاريخ أي من الأمم ذوات التاريخ المجيد ، وكانت الحقبة الوسطى من هذا التاريخ هي المغمورة المجهولة في عصر زيادة بين طرفيها القديم والحديث على الرغم من عظم الدول التي قامت بمصر فيه ، كالدولة الفاطمية ، والأيوبية ، والمملوكية ، وهذا كله معروف مأثور ، بيد أن ما كتب فيه – في عصر زيادة – باللغة العربية كان لا يزال ناقصاً قاصراً في كثير من النواحي ، ومن ثم كانت دعواته المتكررة لمدرسة التاريخ المصري آنئذ أن تضاعف مجهودها فيه ، إتماماً لرسالتها ؛ إذ هو حلقة الختام في التاريخ المصري القومي ، بعد استيفاء سابقه

---

(١) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٩٨ .

القديم ، ولاحقه الحديث[١] .

وضرب الدكتور زيادة بنفسه مثلاً وقدوة لغيره فجاءت جُل مؤلفاته وأبحاثه – كما سيعرض لها البحث – متعلقة بهذه الحقبة من تاريخ مصر في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وما يتصل بهما من علاقات بين الشرق والغرب ، وانصبت جهوده في مجال نشر التراث على تحقيق مصدر أصيل لهذه الحقبة وهو كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، كما انصرفت باقي مجهوداته لمراجعة وتقديم المؤلفات والمنشورات لتلاميذه وأترابه المتعلقة بالفترة ذاتها .

رابعاً : جهود الدكتور زيادة الأكاديمية :

منذ أربعينيات القرن العشرين بدأ الدكتور محمد مصطفى زيادة يسترعي نظر الأوساط العلمية في مصر وخارجها ، بآرائه العلمية ، وأبحاثه القيمة ، ونشاطه العلمي الواسع الأفق ، المتعدد الاتجاهات في مجال تخصصه في العصور الوسطى ، وتوالت رحلاته العلمية إلى لندن سنة **١٣٥٣**هـ / **١٩٣٤**م ، وتركيا سنة **١٣٥٥**هـ/ **١٩٣٦**م ، والشام ، وغيرها من البلدان لجمع المخطوطات الفريدة ، لتحقيق كتاب السلوك الذي شغف به ، كما أخذ مؤرخنا يتدرج في سلك أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، فعين في وظيفة أستاذ مساعد في **١٥** ذي القعدة سنة **١٣٥٥**هـ / **٢٧** يناير **١٩٣٧**م ، ثم شغل وظيفة أستاذ سنة **١٣٦٥**هـ / **١٩٤٥**م ، ثم أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى في أولى الجامعات المصرية الحديثة في **٣** ربيع الأول سنة **١٣٦٨**هـ / **٣** يناير **١٩٤٩**م[٢] .

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩١ .

(٢) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء ١ قسم ٢ صفحة د ، جزء ٢ ، قسم ١ صفحة ج، و =

كما أسهم مؤرخنا هو واثنين من الأساتذة المصريين في وضع أسس أول جامعة عراقية في بغداد سنة **١٣٦٥**هـ / **١٩٤٦**م ، واصطفى لمساعدته في ذلك تلميذيه النجيبين سعيد عبد الفتاح عاشور ، وإبراهيم على طرخان ، واستثمر زيادة وجوده في العراق لمدة عامين حينئذ لترجمة الجزء الأول من كتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر [١] .

ومع مرور الأيام وتوالي السنين أخذت مصر تواصل نهضتها الحديثة ، فتفرعت عن الجامعة المصرية الأم جامعتان ، هما : الإسكندرية ، وعين شمس ، ومنذ البداية لم يستغن الوليدان عن جهود مؤرخنا الذي يحمل لواء فرع العصور الوسطى ، وهو من أشد فروع التخصص في الدراسة التاريخية صعوبة وأهمية ، فانتدب زيادة للتدريس بضع سنوات بالجامعتين ، ونهض بالرسالة على خير وجه، إلى جانب عمله الأساسي في كلية الآداب بجامعة القاهرة[٢] .

وعلى الرغم من هذا العمل المضني الذي كان يقوم به زيادة داخل جدران الجامعة ، وإشرافه على طلابه وباحثيه ، وانشغاله بالنشر والترجمة والتأليف ، فإن

= زيادة : المرحوم محمد رمزي بك ص **٢٦٩** ، مجلة الثقافة ، السنة السابعة ، العدد **٣٢٣** ، **٢١** ربيع الأول سنة **١٣٦٤**هـ / **٦** مارس **١٩٤٥**م ، عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **٥** ، **٧** .

(١) زيادة : تصديره للقسم الأول من تاريخ أوربا لفشر صفحة و ، حسنين محمد ربيع : الدكتور سعيد عاشور سيرة وتحية صفحة ج ، ضمن كتاب سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده السبعين ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بأقلام نخبة من تلاميذه ومريديه ، مركز النشر لجامعة القاهرة ، د ط ، **١٩٩٢**م .

(٢) عاشور : كلمة تأبين زيادة ص٧ .

هذا لم يصرفه عن مباشرة نشاطه العلمي خارج الجامعة ، فكان أحد مؤسسي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، وممثلاً لفرع التاريخ الوسيط في مجلس إدارتها ، هو والدكتور عزيز سوريال عطية ، كما تولى منصب أمينها العام سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م ، وظل ينهض بأعبائها أميناً عاماً ورئيساً بالنيابة حتى آخر لحظة في حياته [١] .

كما كان زيادة عضواً بارزاً في لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، واعترفت له هذه اللجنة منذ مولدها بالفضل والجميل ، لما كان يقدمه لها من آراء علمية بناءة ، وتقارير مستفيضة ، ودراسات ومشروعات عميقة تشهد كلها بغزارة العلم وسعة الأفق ، وعمق التجربة[٢] ، كما أهلته مواهبه وكفاءته لأن يتقلد منصباً رفيعاً في جامعته الأم وفي كلية الآداب ، وهو منصب رئيس قسم التاريخ ، الذي ظل يشغله منذ تعيينه أستاذاً ،وحتى تفرغه من الجامعة وإحالته للمعاش سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م[٣] .

و أولى الدكتور زيادة اهتماماً بالغاً بإعداد من يخلفه في تخصصه ، وتقديم من يواصل رسالته من بعده ، فذلك – كما يقول تلميذه سعيد عاشور – أمانة في عنق كل أستاذ جامعي ، فالعالم الذي يعيش لنفسه ولا يترك من بعده تلميذاً نابها

(١) المجلة التاريخية المصرية ، اليوبيل الذهبي ١٩٤٥– ١٩٩٥م ، ص١١-١٣ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ – ٣٠ .

(٢) عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ١٠٠ .

(٣) أمين الشريف : تصديره للجزء السابع من موسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر صفحة م ، أشرف على الترجمة د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ عبد المنعم أبو بكر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، ١٩٥٥ – ١٩٧٢م .

قادراً على مواصلة رسالته ، لم يؤد الأمانة الكبرى التي أؤتمن عليها ؛ إذ لم يف للخلف بما في عنقه من دين للسلف ، فالعلم لا أنانية فيه ، ولا احتكار له ، وإنما هو رسالة شريفة ، وغاية سامية تستهدف خير الإنسان على مر العصور ، بحيث يكون العالم الحق هو الذي يعطي أكثر مما يأخذ ، وهذا ما حققه مؤرخنا على أرض الواقع خلال سبع وثلاثين سنة قضاها عضواً بهيئة التدريس في جامعة القاهرة ، حيث كون مدرسة من أبنائه وتلاميذه المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى ، وأسهم في تخريج جيل جديد من المؤرخين في تخصص غير مطروق للمصريين من قبل ، وإن جاز للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى أن يعتزوا بتخصصهم الذي شق طريقه وسط الدراسات التاريخية المرتبطة ببقية عصور التاريخ ، فعليهم – كما يقول سعيد عاشور – أن يعترفوا في أمانة بأن هذا الجانب من الدراسة ما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه فعلا من تقدم في الجامعات العربية ، لولا القاعدة العريضة التي أرسى بناءها الدكتور زيادة[١].

ولقد عني مؤرخنا عناية فائقة باختيار صفوة من تلاميذه ، لإعدادهم للدراسات العليا ، والحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في حقل تاريخ العصور الوسطى ، وأفنى صحته وعمره في صنع جيل صالح من المؤرخين العرب ، المزودين بالقدرات المتينة ، والمؤهلات العالية ، التي تكفل لهم خدمة وطنهم ، وربطه بشتى ينابيع الحضارة العالمية الحديثة ، ولفت الدكتور زيادة أنظار تلاميذه إلى ارتياد ميادين وموضوعات جديدة في البحث التاريخي ، وعدم

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٧ ، ٨ .

ادخاره أو بخله بها عليهم ، فكان سيادته كالغيث حيثما حل نفع الله به ، وحمل هؤلاء الراية في حياة أستاذهم ، ونالوا درجة الأستاذية ، وصار كل منهم صاحب مدرسة منبثقة من جامعة شيخه ، الذي كان يفتخر بهم ، ويعتز بتلمذتهم على يديه ، ويصف غير واحد منهم في مقدمة أعماله ومترجماته بصفة تلميذي وصديقي وزميلي ، وبادلوه هم حباً بحب ، ووفاء بوفاء ، وكانوا له نعم المعين في كل مشاريعه العلمية ، من نشر وترجمة وتحقيق ، ومن ألمع هؤلاء التلاميذ الأساتذة الدكاترة : السيد الباز العريني ، وحسن حبشي ، وجمال الدين الشيال ، وحسن محمود ، وإبراهيم على طرخان وسعيد عبد الفتاح عاشور ، وحكيم أمين عبد السيد ، ومصطفى مسعد ، وإبراهيم أحمد العدوي وأحمد عيسى ، ومحمد حلمي محمد أحمد ، وغيرهم كثير ممن تتلمذ على يديه [١].

---

(١) محمد مصطفى زيادة : نقده لكتاب مفرج الكروب ص٢٥٤ ، المؤرخون في مصر صفحة ل ، تصديره لكتاب الدولة الإسلامية صفحة هـ ، تصديره لكتاب الإقطاع صفحة و ، ع ، تصديره لكتاب نهاية الرتبة صفحة د ، تصديره لكتاب نابليون (ط دار المعارف) صفحة ك ، ل ، تصديره لكتاب تاريخ أوربا القسم الأول صفحة ح ، القسم الثاني صفحة ي ، ك ، تصديره لكتاب تراث العصور الوسطى لكرامب وجاكوب الجزء الثاني صفحة ن ، ترجمة ومراجعة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٧م ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة صفحة ك ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ، إبراهيم أحمد العدوي : تصديره للطبعة الخامسة لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر القسم الأول صفحة ل ، عاشور : =

كما كان الدكتور زيادة مثالاً للأستاذ الجامعي الأمين في إشرافه الدقيق على باحثيه ، فلم يضن عليهم بمكنون علمه ، ولا بضيق وقته ، وإنما كان يعلم ويشرف ويوجه ويراجع ويصحح في عزيمة لا تعرف كللاً ولا مللاً ، وربما أحس بعض تلاميذه بالضيق والتعب ، عندما كان يضطرهم إلى إعادة كتابة رسائلهم العلمية من جديد مرة بعد أخرى ، وهو في كل يعدل ويصحح ، ومضت الأيام والسنون وأدرك هؤلاء الأساتذة قيمة ما أسداه إليهم شيخهم ، فبقدر ما أجهدهم وأرهقهم ، بقدر ما نجح في تكوينهم تكويناً علمياً رصيناً[(١)].

ولقد ضرب الدكتور زيادة بسهم وافر في هذا المجال ، فأشرف في كلية الآداب بجامعة القاهرة على عشرين رسالة ماجستير ، وثماني عشرة رسالة دكتوراه منذ سنة **١٣٦٣**هـ / **١٩٤٤**م ، وحتى سنة **١٣٧٩**هـ / **١٩٦٠**م ، وتنوعت هذه الرسائل في كل فروع التاريخ الإسلامي بمفهومه العام ، بدءاً من عصر الصحابة، حتى نهاية الدولة المملوكية ، ما بين مشرق ومغرب ، وعلاقات بالدول الأوربية، وأخرى أفريقية ، وإن كانت السمة المميزة لأغلب هذا الرسائل ارتباطها بشكل أو بآخر بحقبة العصور الوسطى ، تلك التي برع فيها مؤرخنا ، ووضع أساسها ، وفيما يلي قائمة بهذه الأطروحات مرتبة حسب

=كلمة تأبين زيادة ص ٨ ، محمد حلمي أحمد : تقديمة لكتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة(شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت**٦٦٥**هـ/**١٢٦٦**م) الجزء الأول ، القسم الأول ص**٥٧** ، تحقيق محمد حلمي محمد ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط**٢** ، **١٩٩٨**م .

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٨ .

درجاتها وتاريخ إجازاتها [١]:

أ - رسائل الماجستير [٢]

١- كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن ناصر الشيزري مع مقدمة تاريخية عن وظيفة المحتسب في مصر حتى سنة **٢٥٤**هـ/ **٨٦٨**م .

٢- علاقة الدولة المملوكية بالدول الأفريقية **١٩٤٥**م .

٣- نظام البريد في الدولة الإسلامية **١٩٤٥**م .

٤- نور الدين والصليبيون **١٩٤٦**م .

٥- السيدة عائشة **١٩٤٦**م .

٦- قيام الدولة الأيوبية **١٩٤٦**م .

٧- نظام الإقطاع الإسلامي في العصور الوسطى إلى نهاية عصر الأيوبين **١٩٤٩**م .

٨- قيام دولة المماليك الأولى في مصر **١٩٤٩**م .

٩- الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى **١٩٤٩**م .

١٠- قبرس والحروب الصليبية **١٩٤٩**م .

١١- العلاقات السياسية بين مصر وغرب آسيا من وفاة إيليا خان أبو سعيد إلى نهاية دول آق قوينلو **١٩٥٢**م .

١٢- حركة عبيد الله بن الزبير وأثرها في الدولة الأموية **١٩٥٣**م .

---

(١) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **٩٩** .

(٢) رسائل الماجستير والدكتوراه التي أجيزت بالجامعات المصرية منذ نشأتها حتى سنة **١٩٦٧**م ص **٤٠٠- ٤٠٣** المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عشر ، **١٩٦٧**م .

١٣- تاريخ التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي إلى آخر الأيوبيين .

١٤- مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام **١٩٥٣**م .

١٥- النيابات الشامية في عهد دولة المماليك الأولى **١٩٥٤**م .

١٦- جماعات الرهبنة في وادي النطرون في القرن الرابع **١٩٥٥**م .

١٧- مجاهد بن عبد الله العامري وابنه على إقبال الدولة في دانية وسردانيا وجزر البليار في القرن الخامس الهجري **١٩٥٧**م .

١٨- الخلافة العباسية في مصر **١٩٥٩**م .

١٩- تأسيس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية من سنة **١١٠٠- ١٤٠٠**م - **١٩٥٩**م .

٢٠- تكوين الجبهة الإسلامية زمن صلاح الدين **١٩٥٩**م .

ب - رسائل الدكتوراه [١].

١- الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول **١٩٥١**م .

٢- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي **١٩٥٢**م .

٣- الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالفاطميين في مصر **١٩٥٣**م .

٤- طائفة الحشاشين وأثرهم في السياسة والاجتماع **١٩٥٣**م .

٥- الدولة الحمدانية في الموصل وحلب **١٩٥٣**م .

٦- قيام دولة المرابطين بالمغرب **١٩٥٣**م .

---

(١) رسائل الماجستير والدكتوراه التي أجيزت في الجامعات المصرية حتى سنة **١٩٦٧**م ، ص ٤١٨- ٤٢٠ .

٧- حالة المسلمين الثقافية والاجتماعية في جزيرة صقلية في العصر النورماندي **١٩٥٤**م .

٨- دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر على عهد سلاطين المماليك **١٩٥٤**م.

٩- الفروسية في الإسلام في عصر الأيوبيين والمماليك بوجه خاص **١٩٥٥**م .

١٠- النظم الإقطاعية في دولتي المماليك الأولى والثانية **١٩٥٥**م .

١١- العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من يوكونو أملاك إلى زرء يعقوب وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص **١٩٥٥**م .

١٢- زوال الدولة الأيوبية ، أسبابه ونتائجه .

١٣- السلاجقة والصليبيون منذ وقعة ملازجرد حتى سقوط الرها **١٩٥٧**م .

١٤- تاريخ التعليم في فلسطين على عهد سلاطين المماليك **١٩٥٧**م .

١٥- ممالك النوبة المسيحية اضمحلالها وسقوطها **١٩٥٨**م .

١٦- سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر برسباي **١٩٥٩**م .

١٧- الخراج والنظم المالية في الإسلام حتى منتصف القرن الثالث الهجري **١٩٥٩**م .

١٨- قيام دولة المماليك الثانية **١٣٨١- ١٤١٢**م / **١٩٦٠**م.

وبالإضافة إلى ما سبق من الرسائل العلمية التي أشرف عليها الدكتور زيادة ، ونوقشت بإشرافه ، فإن هناك عدداً آخر من الأطروحات سُجل تحت إشرافه ، وأسهم بخبرته في دفع عجلتها نحو طريق البحث العلمي الجاد ، ولكن الأيام لم تمهله لإتمام مهمة إنجاز الإشراف عليها ، فحمل عنه مهمة استكمالها تلاميذه الذين خلفوه في حمل لواء الدراسات المتعلقة بتاريخ العصور الوسطى بكلية

الآداب بجامعة القاهرة[١] .

ولقد اتصف الدكتور زيادة بصفات عديدة قلما تجتمع في غيره من المؤرخين والعلماء ، وفي مقدمتها صفة التواضع الجم ، الذي بدا كثيرا للدارس حين بحثه وتنقيبه في تراث هذا العلم ، ومن ذلك تواضعه في الحديث عن إمكانياته في الترجمة حينما قدم للقسم الأول من كتاب أوربا العصور الوسطى لفشر ، ونوه لشروط القوامين على مثل هذه المهمة قائلاً : « والقيام على نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية يتطلب صفات ومؤهلات لست موكدا أني مطوق بها كما اشتهى »[٢] .

ومن مناقب الدكتور زيادة كذلك التؤدة العلمية، والصبر على المعلومة ، والدقة المتناهية في البحث عنها ، وعدم الاستنكاف من سؤال من يظن معرفته بها حتى ولو كان من تلاميذه ، وسعيه الدؤوب بنفسه لمن هو أكبر منه سناً لسؤاله عما غمض عليه من المعلومات ، كما حدث من زيادة للأستاذ محمد رمزي غير مرة لسؤاله عما أحاط به ذلك العلم من مواقع الخطط والآثار[٣] .

وظل الدكتور زيادة يؤدي واجبه كاملاً ، وينهض برسالته ، وفياً لها ، أميناً عليها ، حتى اشتعل الرأس شيباً ، ولم تحل إحالته للمعاش في **١٣** ذي القعدة سنة

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص٨ .

(٢) زيادة : تصديره للقسم الأول من تاريخ أوربا لفشر صفحة هـ .

(٣) زيادة : المرحوم محمد رمزي ص **٢٦٨** ، حسنين ربيع ، مقابلة شفهية خاصة مع الباحث بتاريخ **٥/٤/ ٢٠١١**م ، الساعة **١-٢** ظهراً ، بمقر قسم العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

١٣٧٩/ التاسع من مايو **١٩٦٠**م بينه وبين الحياة التي ألفها وأحبها وأخلص لها، وضحى من أجلها بأعز ما يملكه إنسان وهو نور بصره ، ذلك أنه ما كاد يحال للتفرغ في مصر حتى استأثرت به جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية سنة **١٣٨١**هـ/ **١٩٦٢**م ، فقضى بها عاما كاملاً أستاذاً زائراً ، يقدم لأبناء الغرب خلاصة فكره ، وثمرة جهاده الطويل ، كما ألف خلالها بحثين باللغة الإنجليزية عن سلاطين المماليك في مصر ، نشرا ضمن موسوعة سيتن عن الحروب الصليبية ، غير أن الإحساس بالواجب تجاه الوطن دفعه إلى العودة بعد انتهاء ذلك العام الدراسي مباشرة ، وعندئذ حرصت كلية الآداب بجامعة القاهرة على ألا تفرط في ابنها البار ، وأحد دعائم بناة مجدها الفكري والعلمي ، فعين مؤرخنا أستاذاً غير متفرغ في **٦** شعبان سنة **١٣٨٣**هـ/ **٢٤** ديسمبر سنة **١٩٦٣**م[١].

ومنذ ذلك التاريخ وحتى وفاته ، ظل الدكتور زيادة يشغل هذا المنصب ، ويواظب – رغم تزايد ضعف بصره الذي كاد أن يصل إلى مرحلة العدم – على الحضور إلى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، للاجتماع بطلبة الدراسات العليا في فرع العصور الوسطى ، وتزويدهم بالمعرفة والتوجيه العلمي السليم ، مثلما زود أساتذتهم الذين تعاقبوا على التدريس في هذه الجامعة ، وغيرها من الجامعات المصرية ، وكان آخر لقاء لمؤرخنا بطلبة الماجستير والدكتوراه في قسم العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة بعد ظهر الأربعاء **٢٨**

---

(١) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **١٠٤** ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٨** ، حسن جلال العروسي : تصديره للجزء الرابع من موسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر صفحة ك .

شعبان **١٣٨٨**هـ / **٢٠** نوفمبر **١٩٦٨**م ، وهو آخر أسبوع سبق عطلة منتصف هذا العام الدراسي ، أي أنه حرص على النهوض بمسئولياته حتى اللحظة الأخيرة ، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها مساء يوم الأحد **١٧** رمضان سنة **١٣٨٨**هـ / الثامن من ديسمبر **١٩٦٨**م(١).

و خلف الدكتور زيادة رفيقة دربه وأم أولاده الإنجليزية ، التي كان قد اقترن بها إبّان ابتعاثه إلى بريطانيا ، ورزق منها بابنتين ، لم يقدر لأيهما السير في طريقه العلمي ، ولم يقف الدراس على شيء من تفاصيل حياتهما ألبتة(٢) .

ولقد فاضت عيون وأقلام تلاميذه وطلابه بنعيه والثناء العاطر عليه بعد رحيله ، لاسيما تلميذه وزميله وصديقه النجيب **سعيد عبد الفتاح عاشور** ، الذي وقف في حفل تأبينه واصفاً إياه بالعالم ، ومستطرداً أنه من المهام التي يطيب للإنسان النهوض بها على خير وجه أن يقوم التلميذ بتكريم أستاذه في مناسبة ذكراه ، وإنه يتملكه شعور الإحساس بالفضل والجميل ، للقيام بواجب نحو أب روحي ، لم يضن طيلة حياته على أبنائه بثمرة جهاده الطويل في ميدان العلم ، مما جعلهم يحسون دائما وأبداً أنهم جزء من عقله وفكره وروحه ، وختم كلمته بأن الدكتور محمد مصطفى زيادة أشهر من أن يُعرف به (٣) .

وأما **الدكتور إبراهيم أحمد العدوي** فقد شهد أن أستاذه أفنى عمره وصحته في بناء جيل صالح من المؤرخين العرب ، المزودين بالقدرات المتينة ، والمؤهلات العالية ، وسلك في سبيل تحقيق ذلك طرقاً شتى ، دون أن يحجم عن

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **١٤** .

(٢) حسنين محمد ربيع : مقابلة شخصية شفهية مع الباحث.

(٣) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص **٩٥** .

ارتياد أصعبها وأوعرها ، ضارباً في كل عمل بسهم وافر ، وجهد عميق ، لا يتوفر إلا لأصحاب العزم من العلماء المخلصين ، ويشهد الجهد الذي بذله في حياته العلمية – من نشر وترجمة وتأليف – على ما تحلى به من أمانة صادقة في العمل ، ومواهب نادرة في تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركبا ذلولاً للباحثين والعلماء المعاصرين ، وختم العدوي نعيه بالدعاء لأستاذه ، ودعوته لتلاميذه وأبنائه بالسير على منهجه ، واتباع عمله بإحسان ، لرفع قواعد الدراسات التاريخية ، لتؤتي ثمارها في خدمة الأمة [١] .

ومن الذين شاركوا في نعي الدكتور زيادة **أمين الشريف** ، الذي وصفه بالمؤرخ الكبير وأنه رجل من أبرز رجالات مصر ، وعالم من علمائها ، ومن رجال الرعيل الأول ، الذين اضطلعوا بدور كبير في إرساء دعائم النهضة العلمية الحديثة ، كما كان من أبرز الأساتذة الذين أسدوا أجل الخدمات لجامعة القاهرة ، وأسهموا في نشاطها العلمي منذ إنشائها ، وبوفاة هذا العالم الجليل يخبو نجم من النجوم اللامعة التي تألقت زمنا طويلاً في سمائها ، واهتدى بنوره الكثيرون من رجال جيله ، ممن أسعدهم الحظ بالتخرج على يديه ، والاقتباس من مشكاة علمه وفضله[٢] .

وبعد هذا الاستعراض لمسيرة ذالكم العالم المؤرخ محمد مصطفى زيادة ، وجهوده الفريدة والجليلة في إعداد وتأسيس مدرسة التاريخ الوسيط بمعناه

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي : تصديره للطبعة الخامسة من القسم الأول لتاريخ أوربا لفشر صفحة ل .

(٢) أمين الشريف : تصديره للجزء السابع من موسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر صفة م .

العلمي في مصر ، يشرع الدارس في بيان جهوده وأعماله التي خلدت اسمه في مجال خدمة الدراسات التاريخية ، والتي ضرب سيادته بسهم وافر في كل مجال منها ، مع مراعاة وضع الأسس الأولى لهذه النهضة العامة ، ولمدرسة التاريخ خاصة ، والتي تجلت في قوله : « **المقصود بمدرسة التاريخ في الواقع مبلغ ما أنتج الجيل الحاضر في ميدان البحث والاستقصاء ، من نشر وترجمة وتأليف ، باعتباره فيض ذلك الجيل ، وكلمته الدالة على مذهبه في صناعة التاريخ** » ، وحدد مؤرخنا لهذه المدرسة برنامجاً ومنهجاً ورسالة وكان من أولى درجات البرنامج استهداف هذه المدرسة للتاريخ القومي بالمجهود الوافر ، وذلك « **بالقيام على نشر ما ظل حتى الآن – في عصره – في ظلمة المخطوطات** » [(١)]، وحض زيادة معاصريه على ولوج هذه الميدان ، لتحقيق الدعامة الأولى للنهضة بقوله : « **لا يحق لأحد من المعنيين بالتاريخ في مصر أن يتخذ لنفسه هذه الصفة ، إلا إذا ساهم أولاً في هذا الواجب الأول بنصيب** »[(٢)]، وكان فضيلته من أوائل الملبين للنداء ، والسالكين للطريق القويم ، والمساهمين في إحياء عيون التراث ، لتحقيق النهضة العملية المتوخاة ، وهذا ما يعرض له الدارس في المبحث الثاني .

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٩ ، مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد ٩٧ ، ٥ شوال سنة ١٣٥٩هـ / ٥ نوفمبر ١٩٤٠م .

المبحث الثاني

جهود الدكتور زيادة التراثيــة

تعد الدعوة إلى نشر التراث وتحقيقه إحدى دعائم ثلاثة نادى بها رواد النهضة الفكرية في مصر في مطلع القرن العشرين ، بل إن شئت فقل : هي الدعامة الأولى التي تتوقف عليها الدعامتان الأخريان : الترجمة ، ثم التأليف ، والمقصود بالنشر كما وعاه هؤلاء الرواد : هو حركة استثارة وبعث تنفخ الحياة في التراث القديم ، لتمسح عنه صدأه ، وترد إليه بهاءه ، وتستخلص منه روائعه ، أي المقصود من الكلمة المعنى الإسلامي لها ، أي حركة الإحياء ، حركة النفخ في الصور ، وهذا ما عناه الأساتذة الذين وضعوا الأسس الأولى في لجان التأليف والترجمة والنشر ، حين أطلقوا عليها هذا الاسم الجامع المانع [١] .

ولقد أسهم الدكتور زيادة بسهم وافر في هذا المجال ، وضرب له بباع فكان هو الأوفى ؛ حيث تصدر اسمه عشرين متناً منشوراً ، منفرداً تارة ، ومشاركاً أخرى ، ومراجعا أحياناً ، وناقداً حيناً ، وقبل هذا كله كانت دعواته الملحة لبيان أهمية النشر لتحقيق النهضة العلمية المرتجاة ، وهذا ما يعرض له الباحث فيما يلي:

أولاً : الدعوة إلى النشر وبيان أهدافه :

فطن الدكتور زيادة – ومعاصروه – إلى أهمية نشر التراث لتحقيق النهضة العلمية منذ نعومة أظفاره ، بحكم تعامله مع متونه إبّان إعداده لرسالة الدكتوراه، ولما رآه من شغف المستشرقين به ، وسعيهم الدؤوب لتحقيقه ونشره، ووقف بعضهم حياته على القيام بدراسة مثل هذه المتون ونشرها ، مع اهتمام أولى الأمر في دولهم وأهل الثروة من بينهم بهذا الأمر ، وتخصيصهم أموالاً طائلة لهذا

---

(١) شكر فيصل : حركة الترجمة والنشر في العالم العربي ص١٣٤ ، مجلة الثقافة ، السنة التاسعة ، العدد ٤٢٣ ، ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٦٦هـ / ٤ فبراير ١٩٤٧م .

العمل العظيم ، حتى أصبح من غير المعقول أن مؤرخاً خليقاً بهذا اللقب يرجع في أبحاثه إلى غير الطبعات الأوربية للطبري ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن إياس ، وغيرهم ممن ظهرت كتبهم لأول مرة في حلة علمية قشيبة بليدن في هولندا ، أو ليزبج في ألمانيا ، أو اكسفورد بانجلترا ، أو غيرها ، وذلك حتى مطلع القرن العشرين الميلادي [١] .

وعبر الدكتور زيادة عن استهجانه الشديد لمثل هذا القصور في الاهتمام بالتراث العربي قائلاً : « **إنه لمن المخزي حقاً وصراحة أن يسأل سائل عن أحسن متن منشور ، ... فلا يجده إلا في غير العربية ، ولا يجد من اهتم به وتخصص فيه وعرف خباياه إلا من غير المصريين ، وذلك مع العلم بأن المادة الأولية والخامة كبرها في اللغة العربية ، ومن أصل مصري أيضاً ، وهذا حال مائل لا يسر العدو ولا الصديق ، وليس كمثله بين الأمم التي نجرر الأذيال في تقليدها ، أو التشبه بها** » [٢] ومن ثم كانت جهوده الأولى التي نهض بها فور عودته من بريطانيا بعد حصوله على درجة الدكتوراه ، الدعوة لتحقيق النهضة العلمية بوسائل ثلاث : **أولاها :** نشر متون التراث وإحيائه من سباته العميق ، وإخراجه من ظلمات المخطوطات إلى نور المطبوعات بقوله : « **إن إحياء الكتب العربية ركن من أركان**

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء ١ قسم ١ صفة هـ ، عزيز سوريال عطية : تاريخنا القومي ص١٩٤ ، ١٩٦ ، مجلة العلوم ، السنة السابعة ، المجلد الثاني مارس وأبريل ١٩٤٠م / صفر وربيع الأول ١٣٥٩هـ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

النهضة القومية في مختلف بلاد الشرق »[١]

وأوضح الدكتور زيادة الهدف الأسمى من وراء نشر التراث ألا وهو تدوين تاريخ الأمة الذي لن تستقيم كتابته على الوجه الصحيح بدون إحياء المتون، وإخراجها في صورة مطبوعة[٢]، لأن معظم المنابع الأصلية للتاريخ المصري لاسيما في العصور الوسطى مخطوطات مبعثرة بين مكتبات الشرق والغرب، يعوزها الجمع المتواصل، والنشر المقارن، والحاشية المنيرة، وأن أوجب ما يجب على المعنيين بذلك الموضوع أن يساهموا جماعات وفرادى في هذا العمل الطويل بنصيب، دون حساب للجزاء الكافي، أو الشكر الوافي، أو الصيت ا لسريع، وبذلك فقط تصبح المادة الأولية للتأليف السليم المأمون في المتناول العام، ويخطو البحث العلمي في تلك الناحية خطوة أولى، فالمشكلة – في عصر زيادة – كلها ترجع إلى بقاء معظم المراجع الأصلية مبعثرة في ظلمات المخطوطات، وأن السبب الوحيد لقلة التأليف القيم نقص الإفادة من هذه المخطوطات[٣]، وأن العمل المبتكر الذي ينبغي أن تتضافر فيه الجهود في ميدان التاريخ هو العمل على جعل تلك المنابع التاريخية في متناول الباحثين، فإن ذلك هو السبيل الوحيد إلى التأليف العلمي السليم[٤].

---

(١) محمد مصطفى زيادة: نقده لكتاب فضائل الشام ودمشق للربعي ص **٢٤٧**، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، **١٩٥١**م.

(٢) زيادة: المؤرخون في مصر صفحة ح، ط.

(٣) زيادة: صناعة التاريخ (٢) ص **١٩٨٩**، مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد **١٠٠**، **٢٦** شوال سنة **١٣٥٩**هـ/ **٢٦** نوفمبر **١٩٤٠**م،

(٤) زيادة: تصديره لكتاب السلوك جزء، قسم **٢** قسم **٢** صفحة جـ، د.

وحتى لا يظن ظان أن الدعوة لنشر التراث قد تكون من باب الترف أو تقليد المستشرقين فحسب ، أكد الدكتور زيادة أنه لن يتسنى كتابة التاريخ المصري على صورة قريبة من الحقيقة ، مرضية من التاريخ أهله ، إلا بعد إنهاء دور النشر على الوجه الأكمل ، وأنه لا يحق لأحد من المعنيين بالتاريخ في مصر أن يتخذ لنفسه تلك الصفة ، إلا إذا ساهم أولاً في هذا الواجب الأول بنصيب ، ولا يقولن أحد مهلاً وقد ذهب المهل ، فلسنا بمستشرقين يكفينا العمل في إحياء التراث الشرقي كهواية أو دعاية أو من باب العلم بالشيء ، بل نحن شرقيون واجبنا الكد المتواصل في هذه الناحية السلمية من مقومات الدفاع عن تراث الأمة ، حتى إذا أصبحت المادة الخام اللازمة صالحة لمطالب التأليف التاريخي السليم ، صار عمل المؤرخين سهلاً ، ومؤلفاتهم قمينة بما يريدون لها من عناوين وأسماء ومكان محترم تحت الشمس (١) .

لله درك يا دكتور زيادة ! فلقد تحدثت عن دوافع النشر العلمي للأصول التاريخية فجمعت وأوعيت ، ولم تترك لمتقول مقالة في هذا الشأن ، وأنت من تتلمذت على يدي غير بني جلدتك ، فلم تتفرنج أو تتغرب ، بل زادك المنهج العلمي ثقة في ذاتك وثقافتك ، فناديت باستمداد ثقافتنا من جذورها الأولى ، ونشر تراثنا الأشم ، وتصديت للدعوات الرنانة التي تطالب بالبحث عن الثقافة في غير هذه الكتب القديمة الصفراء باهتة المعرفة بقولك : إنها كتب سبقنا المستشرقون إلى كتابة تاريخنا منها في مؤلفات بيضاء ناصعة المعرفة ، كما أنها حافلة بأصول التاريخ المصري ، وتشف محتوياتها عن ألوان زاهية مضيئة لمعرفة

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٩ .

مصر وأهلها في العصور الوسطى ، وهي معرفة واجبة علينا للذين نحن أبناؤهم رغم النسيان أو الجهل ، ولذا فهذه المخطوطات جديرة بالنشر والفحص والاستقصاء احتراما لما سبق ، ولما في نشرها من عرفان بالجميل ، ولما في هذه المتون نفسها من رطب ويابس وما بينهما من طعوم المعرفة ، فضلاً عن أنها أصول هي أصولنا ، ولا سبيل إلى إنكار هذه المعرفة الواجبة ، أو التنكر لها ، أو جحودها ، أو تصغير شأنها في تكويننا الحاضر والمستقبل [١] .

وبيَّن مؤرخنا حكمة أخرى لدعواته المتكررة لنشر التراث ؛ وهي الرغبة في الإحاطة بتلك الأصول إحاطة تامة مرة واحدة في غير اختصار أو مهل أو استصغار ؛ لنفهم منها ماضينا ، ونتعرف على صياغتنا الحاضرة ، ولنعدل من هذه الصياغة تعديلاً توجبه مقتضيات الحياة الحديثة ، فمن لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له ، كما أن هذه المتون القديمة لا تزال ذخيرة دفينة ، وما ينضج منها للقارئ المتخصص ينفع كذلك السياسي والمؤرخ واللغوي والمحدِّث فضلاً عن القارئ العام [٢] .

ونافح الدكتور زيادة عن دور نشر التراث في تحقيق النهضة العلمية المأمولة في مقابل الرأي الآخر الذي ينادي بالاستمداد الثقافي من المؤلفات الغربية

---

(١) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص٤٧ ، **٢٤٨** ، السلوك للمقريزي **٢/ ٥٢١** ، موسوعة تراث الإنسانية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت ، تاريخ حياة المقريزي ص **٢١** ، بحث ضمن كتاب دراسات عن المقريزي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د ط ، **١٩٧١**م .

(٢) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص **٢٤٨** ، **٢٥١** ، تصديره لكتاب الإقطاع والعصور الوسطى لكوبلاند صفحة م ، ن .

الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة وأشباهها ، مما طال عليه سالف الأمد بقوله : إن الطريق السوى عند العقليين هو النصفة ، الذي لا يهبط ولا يهوى إلى هذا أو ذاك ، بل يأخذ من كليهما أخذ الممعن الحاسب ، بمعنى أنه على الشرق أن يأخذ من قديم تراثه ومن حديث الغرب معاً على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين مع الملائمة والاعتدال ، ومن البديهي أن الاقتباس من المنبع الشرقي معناه إحياء كتب التراث في مختلف العلوم والفنون بالنشر العلمي السليم لها ، وتوظيفها على نحو ما فعل المستشرقون قبلنا ، ومن البديهي كذلك أن القنوع بالاستمداد من المؤلفات الغربية الحديثة يجعل البناء الثقافي في الشرق العربي يقوم على أساس غير ذي جذور وطارئ عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوي[١] .

كما أن إغفال العناية بالتراث معناه أن النهضة المرتجاة ستقوم على ساق واحدة وهي الترجمة ؛ لأن عنصرا أصيلاً من عناصرها لم يتوفر لها بعد ، وأنه لابد لها أن تستوي من هذه الساق الثانية التي يخشى لها أن تضمر ، إن لم تجد غذاءها من روح التراث ونشره وتمثله ، ثم الإفادة التامة منه في التأليف والتدوين[٢] .

وقد طبق الدكتور زيادة ما نظَّر له أيما تطبيق ، فانصب مجهوده في المرحلة الأولى من حياته على تحقيق كتاب السلوك ، ودعوة أترابه وتلاميذه للحذو حذوه في هذا السبيل ، ثم اتجه في مرحلة لاحقة إلى ترجمة شيء من عيون التراث الغربي

---

(١) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص ٢٤٨ ، السلوك للمقريزي ، مقال تراث الإنسانية ٢/ ٥٢١ ، تاريخ حياة المقريزي ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) شكري فيصل : حركة الترجمة ص ١٣٥ .

على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين .

وإذا كانت هذه هي فلسفة الدكتور زيادة لتحقيق النهضة العلمية المرجوة ، فإنه أولى اهتماماً كبيراً لنشر التراث ، وأهاب بمعاصريه ولا حقيه إلى تضافر الجهود لتحقيق هذا المنال ، وتوجيه الهمم للكشف عن تلك المنابع التاريخية ، مع تنسيق المجهود الذي يبذل في هذا العمل تنسيقاً يكفل للقائمين عليه مواصلة الإنتاج العلمي الصحيح من غير ما حاجة إلى جلبة أو إعلان[١] ، لاسيما وأن مثل هذا المشروع يحتاج إلى جهد ضخم ، تقصر عنه عزائم الرجال بله الدول ، فالمخطوطات المتعلقة بتاريخ مصر - على سبيل المثال - مبعثرة في مكتبات الشرق والغرب حينئذ ، والحصول على صور منها أمر لا يستطيعه فرد مهما كثر ماله ، وطال عمره ، وحسن عمله ، على أن الصعوبة ليست بسبب عجز الأفراد في الحصول على هذه المخطوطات في زمن يسير ، فإن الجمعيات المتخصصة كفيلة بالتغلب على ما هنالك من اعتبارات المال والعمر والعمل الحسن أيضاً ، وفي وسعها أن تقوم على المصادر المخطوطة قياماً متواصلاً ، إنما الصعوبة الرئيسة - كما رآها زيادة حينئذ - في المخطوطات نفسها ؛ إذ أنها مادة خام تحتاج إلى شيء كثير من التهذيب والتحرير والصَنعة ، لتصير مأمونة الاستعمال لدى الباحثين ، وحسب من يعوزه البرهان أن يقارن بين كتاب معين في حاليه مخطوطاً ومطبوعاً بطريقة علمية [٢] .

ويزيد مؤرخنا هذا الأمر إيضاحاً لقارئه بقوله : إن الفائدة التي يستصفيها

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء ٢ قسم ٢ صفة جـ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ .

الباحث من المخطوطات كائنة ما كانت ، ومهما عظمت لن تبلغ الكم الذي يحصل عليه لو كانت هذه المخطوطات نفسها منشورة نشراً علمياً صحيحاً، وتفسير ذلك أن سرعة القارئ لكتاب في حالته الخطية العاثرة ، مخالفة تماماً لسرعة قراءته مطبوعاً سهلاً ، وأن موسيقى العبارة التي تحتاج مفرداتها إلى تحقيق وترجيح في الأذن الباطنة أثناء المطالعة ، غير موسيقى العبارة نفسها وقد أسلست المخطوطة بالنشر ، وأنيرت بالحواشي ، ومن الدليل القياسي على صحة هذه الدعوى – كما يقول زيادة – ما يتراءى للمؤلف أحياناً من إضافة أو استنتاج جديد على ما يكون قد انتهى من كتابته بخط يده ؛ إذ يراجع تجاربه المطبوعة ليعتمدها ، فيهديه سحر الصورة المطبوعة إلى ما لم يهتد إليه من قبل [١] .

ونظراً لأن مهمة نشر التراث وتحقيقه – كانت ولا زالت – بهذه الضخامة الكبرى التي تنوء الجبال عن حملها ، ولا يمكن القيام بها دفعة واحدة ، ناهيك عن أن هذه المخطوطات متفاوتة القيم ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات، فقد رأى مؤرخنا أن المنطق العلمي السليم يوحي إلى الاهتمام أولاً بالأهم منها فالمهم دون مراعاة حجمها من حيث الكبر والصغر ؛ إذ تبين أن لبعض المتون الصغرى من القيمة ما تقصر عنه المخطوطات الكبرى [٢] .

ومن ثم فقد رأى الدكتور زيادة أنه لا يجب – مثلاً – أن يقتصر النشر على المتون الضخمة ، كالحوليات ، ومعاجم السير ، التي تموج بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ، وتؤود بحوادث العزل والولاية ، وتكتظ

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦٩ .

(٢) زيادة : المؤرخون في مصر صفحة ح ، صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

بالتراجم والوفيات والحروب ، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد ولا ترى إلا بمنظار ، بينما يوجد من المتون الصغرى والرسائل والتراجم الخاصة ما يلقى كثيراً من الضوء على شيء من هوية مؤلفيها ، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم في مختلف العصور والعهود ، وذلك لأن الكاتب يعرض في أمثال تلك الكتب لمسألة معينة ، فيتحلل من قيود تسجيل الحوادث ، ويجرؤ أحياناً على الإدلاء بآرائه في نظم الحكم وقواعده ، بل يحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقلياً ، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حراً ، وضرب لنا الدكتور زيادة مثلاً على نجاعة فكرته تلك بمؤلفات المقريزي الصغرى ، التي تتصف بعضها « **بصفات خارقة**»[1] ، كإغاثة الأمة بكشف الغمة التي نهض الدكتور زيادة وتلميذه الشيال بنشرها، ليحقق مؤرخنا بذلك الجمع بين الحسنيين ، نشر المطولات والمختصرات، وليضرب لقارئه ولاحقيه مثلا عمليا على ما يقوله وينظّر له .

وخوفاً من سوء فهم القوَّامين على النشر لهذه الدعوة فقد حذر الدكتور زيادة من ترويج البعض لنشر الأجزاء الهامة فقط من متون التاريخ المخطوطة ، بذريعة عدم القدرة على نشر جميع النصوص المعروفة بفصها ونصها في زمن معقول ، وبدعوى أن السياسة العملية الانتفاعية توجب النشر المختصر مع الاقتصار على الأجزاء المعاصرة منها وكفى من كتب المتقدمين ، فرد مؤرخنا أن

---

(١) زيادة : المؤرخون في مصر صفحة ح ، ٩١ ، صناعة التاريخ (٤) ١٩٠ ، تصديره لكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي قام على نشره د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ جمال الدين الشيال صفحة هـ . مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م

هذه دعوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ؛ لأن إخراج تراثنا في صورة مختصرة أو منتخبة ليس إظهاراً أو إحياءً له ، بل هو إشباع لحاجة طارئة بطريقة سريعة قصيرة ، وهذا أقل الطرق نفعاً للمتعلمين ، ثم إن الاقتصار على الأجزاء المعاصرة من المتون سيلقى بغير المعاصر من أجزائها في أظلم ظلمات النسيان(١) ، كما أنه من المعروف جيداً أن المؤرخين المتأخرين كانوا ينقلون الأجزاء غير المعاصرة في مؤلفاتهم من سابقيهم نقلاً حرفياً في أكثر الأحيان ، وبتلك الطريقة النقلية البسيطة حفظت كتب مفقودة أصولها كاملة حتى الآن ، ولولاها ما وصل شيء منها للمتأخرين ، ولما عرف كثير مما هو معروف من أساليب المؤرخين ومناهجهم المختلفة(٢) .

وبالإضافة إلى تلك الحجة الناجعة التي أسلفها الدكتور زيادة بشأن عدم الاجتزاء أو الاختصار في نشر التراث ، فقد أتبعها بأخرى لا تقل عنها وجاهة وقبولاً ، **وهي « أن حاجتنا في مصر لا تقنع بما في هذه المخطوطات من مادة علمية**

---

(١) بل إن الاجتزاء في النشر قد يلقى بالمتبقي من المتون في بحار الظلمات حتى ولو كان هذا المتبقي هو المعاصر للمؤرخين ، وهذا ما استشعره الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعد انتقال الدكتور زيادة إلى الرفيق الأعلى ، وبقاء النصف الثاني من كتاب السلوك مخطوطاً ، مما دفعه للمضي قدما في تحقيقه وفاءً لشيخه زيادة ولأستاذ أستاذه المقريزي ، وخوفاً من أن أي تراخ في هذا العمل ربما أدى إلى بقاء بقية الكتاب مهملاً في ظلمة المخطوطات قرنيين آخرين من الزمان ، كما حدث بعد نشر أولى أجزائه على يد كاردون سنة ١١١٥هـ / ١٧٦١م . سعيد عبد الفتاح عاشور : تقديمه لكتاب السلوك جزء ٣ قسم ١ صفحة هـ ، و ، جزء ٤ قسم ١ صفحة هـ ، و .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص ١٩٩١ ، المؤرخون في مصر ص ٩٩ .

خالصة بل تتعداها إلى حاجتنا إلى إحياء تراثنا القومي كاملاً غير منقوص ، حباً في إظهاره بحالته الأصلية ، وأملاً في التعرف منه على ما قد لا يهم الباحثين من المستشرقين الأوربيين ، ورغبة في الاعتراف بالجميل للسابقين اعترافاً لا يشوبه اختصار » [١]، ذلك الذي آمن به الدكتور زيادة وحض غيره على اتباعه بقوله : « **وليرع الأمة وماضيها وحاضرها ومستقبلها كل من تناول جزءاً أو انتحى ناحية من تاريخها ، لنشره أو التأليف فيه ... وليذكر أن واجبه تقدير السابقين تقديراً عدلاً، ليكون منه للاحقين نموذج ومقياس حكيم ، وهذا حق الأجيال المتتابعة بعضها على بعض** » [٢].

وإذا كان الدكتور زيادة قد نجح ببراعته وحجته في إقناع معاصريه وقارئيه اللاحقين بتلك القواعد والمثل الواجب مراعاتها عند نشر التراث من عدم الاجتزاء في نشر المخطوط الواحد ، ونشر وتحقيق الأهم فالمهم دون النظر إلى حجم المخطوط ، فقد كانت أمامه مسألة أخرى لا سبيل لتحقيق ما يصبو إليه إلا بالتأكيد عليها ، وهي الدعوة لأن يكون هذا النشر نشراً علمياً ، وليس تجارياً القصد منه الربح المادي أو المعنوي ، والمقصود بالنشر العلمي : « **إخراج المتون مصححة مقومة ، مع القصد في التفسير والمقارنة والحواشي ، بحيث تتبين مواضع الأهمية فيها للقارئ ، فيتمثلها ، ويستقي منها في غير عناء** » [٣] .

---

(١) زيادة : نقده لكتاب مُؤَلَّف الطرسوسي في التاريخ الحربي على عهد الأيوبيين ص **٢٢٤** ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، مايو **١٩٤٩**م .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص **١٨٩** .

(٣) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص **١٩٩١** .

ومما دفع الدكتور زيادة لإطلاق هذه الصرخة أن معظم المصادر الأصيلة للتاريخ المصري في العصور الوسطى كانت – حينئذ – ما تزال مخطوطة وتنادي بوجوب نشرها نشراً علمياً صحيحاً في طبعات نهائية لا يشوبها مجرد الرغبة في الإنجاز الناقص ، أو الصيت المؤقت العارض ، وأن ما طبع من هذه المخطوطات ما عدا ما أخرجته أيدي المستشرقين ولجنة التأليف ودار الكتب المصرية قد جاء خطراً على الأمانة العلمية التاريخية ، ومفسدة لماضي التأليف التاريخي في مصر وحاضره ؛ لعدم التزام ناشريه بالقواعد المنهجية العلمية الرصينة المتعارف عليها في إخراج النصوص المخطوطة [١] .

فالنشر العلمي كما تعلمه ونادى به الدكتور زيادة ليس إخراجا سريعاً لمادة مخطوطة في ثوب مطبوع ، بل هو عملية تؤدة صابرة مثابرة ، ومجهود صامت وصبر طويل وذات أدوار – سيعرض لها الدارس لاحقاً – لا يطيقها إلا العارفون بأهمية المتون السليمة في التأليف الجدير بالقارئ المحدث ، وهو أمانة في عنق الناشر قبالة المؤلف الأصلي ، فإن تغلبت عليه آفة الإنجاز حباً في الإنجاز والسلام ، خرج المتن من يده كما دخل إليها ، أو أخجل حالاً ، وقد وقع ذلك الخطب لبعض المتون التاريخية الهامة التي لم تر النور بطبعها ، بل بدت سوءاتها للناظرين [٢] .

وقد ضرب لنا سيادته مثلا على ما يقول ، بأن المؤرخين في القرن التاسع عشر الميلادي اتجهوا إلى العمل على إحياء أمهات التاريخ المصري والإسلامي ،

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (١)ص ١٨٦٩، عزيز سوريال عطية : تاريخنا القومي ص١٩٦، ٢٠٠.

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، نقده لكتاب مفرج الكروب ص ٢٥٢ ، تصديره لكتاب نهاية الرتبة للشيزري صفحة د .

بنشر نصوص منه ، بدافع روح من الحماسة الثقافية الحميدة ، أكثر من أن تحدوهم روح من التؤدة العلمية الناقدة ، ولم يعرف أولئك السالفون ما اتخذه المستشرقون الأوربيون المعاصرون من قواعد أساسية للنشر السليم المأمون ، لذلك اكتفوا في معظم ما نشروا من متون على نسخة من مخطوطة واحدة ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما عساه يوجد من نسخ خطية قليلة أو كثيرة من كتاب واحد رغبة في مقابلتها ومقارنتها بعضها إلى بعض ، لاختيار أحسنها للنشر ، كما لم يهتموا بالكشف عن المراجع الموازية التي يمكن الاستعانة بها في تحقيق المتن أو تعديله أو تنويره ، بل لم يعنوا بالرجوع إلى المعاجم اللغوية إلا قليلاً ، لشرح ما يغلق أحياناً من الألفاظ وهرعوا بها إلى ناسخ ينسخها في خط واضح ، تسهيلاً وتعجيلاً لعمال الصف بالمطبعة ، أو إلى المطبعة مباشرة لتقديمها إلى الطبع ، أو إلى ما يقرب من هذا أو ذاك ، حباً في إخراج مرجع من المراجع التاريخية من ظلمة المخطوطات إلى نور المطبوعات ، ومن ثم خرجت نشرات هؤلاء للتراث مشوبة بكثير من الصفات السلبية ، للسرعة في إخراجها دون اتباع القواعد العلمية ، كما حدث في إخراج كتاب الروضتين لأبي شامة سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م في الطبعة القاهرية ، والمواعظ والاعتبار للمقريزي في طبعة بولاق ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون طبعة القاهرة (١).

فإن كانت هذه هي مآخذ الدكتور زيادة على ما سلف من نشر لمتون التراث في صورة غير علمية ، فإن الرجل لم يترك القارئ يتخبط في البحث عما يدعو إليه

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الروضتين لأبي شامة جزء ١ قسم١ صفة هـ ، ز ، صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٩ حاشية ١ .

من النشر الرصين ، حيث ترك للقوَّامين على هذا العمل قواعد وخطوات تظل نبراساً للأجيال التالية ؛ لأنها حوت خبراته النظرية التي تلقنها من شيوخه المستشرقين ، مع تدعيمها بتجربته الشخصيـــة ، وهذا ما يعرض له الباحث فيما يلي:

ثانياً : قواعد النشر العلمي عند زيادة :

لم يكن الدكتور زيادة ممن ينظر لغيره بالدعوة لنشر التراث دون ولوج بابه ، بل كان من السابقين إلى فتح هذا الباب على مصراعيه لمعاصريه ولاحقيه ، حينما عكف - ما يربو على ثلاثة عقود - على تحقيق جزءين في ستة أقسام من سفر السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، فكان أول رائد عربي يقدم هذا المصدر للمؤرخين المعاصرين في صورة علمية ، وقد وضح الدكتور زيادة في غير موضع من كتاباته الطريقة العملية الناجعة للنشر على ضوء تجربته الشخصية ، من غير تقيد حرفي بالقواعد العامة والنظريات والجري وراء المثل العليا(١) ، وخلاصتها كما قالها لتلميذه حسنين محمد ربيع – أحد كبار الأساتذة المتفرغين في تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة – « **إن المخطوط عندما يحقق وينشر يجب أن يكون التحقيق شاملاً متقناً ، بحيث لا يترك المحقق فرصة لأحد لإعادة تحقيق نص من النصوص** »(٢) ، ولكي يتمكن المحقق من بلوغ هذه الغاية

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص ١٩٨٩ ، عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٢ .

(٢) حسنين محمد ربيع : منهج تحقيق التراث التاريخي عند الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الأول ص١١٢ ، الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث من شوامخ المحققين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، د ط ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

عليه إجمالاً أن يقوم بإحصاء النسخ المعروفة من المخطوطة المزعومة للنشر ، ثم قراءة هذه النسخ ، لمقابلة بعضها إلى بعض ، ثم اعتماد أحسنها للنشر ، وتهذيب هذه التي هي أحسن في تقدير الناشر ، بتوضيح غامضها ، وتكميل ناقصها ، وتنوير مجهولها بالحواشي الضرورية ، وهذا وذاك يتطلب من الناشر معرفة مفهرسة بمختلف المنابع والمراجع التاريخيـة وغيرها [(١)] ، وإليك تفصيل ما أجمله مؤرخنا.

١- اختيار النسخة الأصل :

يشرع المحقق في هذه المرحلة على اكتشاف مواضع النسخ المقطوع بوجودها من المخطوطة المراد نشرها ، وذلك بالرجوع إلى فهارس المكتبات ودور المخطوطات المعروفة ، فإذا تبين له أن هناك أكثر من نسخة ، تعينت المقارنة بينها من حيث العمر والصيانة والمطابقة للأصل ، وغير ذلك مما يرد من تعريفات وأوصاف بفهارس المخطوطات ، فإن ظهر أن إحدى النسخ هي الأصل الذي كتبه المؤلف بيده ، صارت لهذه أولوية وأحقية بالاعتماد كأصل للنشر ، على أنه لا يتحتم أن تكون النسخة الأصلية أحسن الموجود من النسخ، فقد يكون كاتبها رديء الخط ، قليل النقط في كتابته ، عملاً بأنماط الكتابة في عصره ، أو تكون النسخة نفسها بحكم تقدمها زمنياً عن سائر أمثالها قد تعاورها البلى ، وضاع منها بعضها أو معظمها ، ومع هذا فلابد من الحصول عليها أولاً وقبل كل شيء إن وجدت ، ولابد من دراستها بعناية ودقة ، لتكون أوْ لا تكون أصلا للنشر [(٢)].

---

(١) زيادة : نقده لكتاب مفرج الكروب ص **٢٥٢** ، تصديره لكتاب الروضتين جزء **١** قسم **١** صفحة هـ ، ز .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص **١٩٨٩** ، **١٩٩٠** ، تصديره لكتاب السلوك ج **١** قسم **١** =

٢- نسخ الأصل :

بعد استقرار الناشر على النسخة الأحسن والأوفى ، وحصوله على صورة منها في حجم تسهل معه القراءة ، يقوم بكتابة نسخة حرفية بخط اليد على ورق واسع متين ، بحيث يترك هوامش جانبية متسعة ، لإشارات مبدئية إلى ما قد يوجد بالمتن من أخطاء يعوزها التصحيح ، أو إلحاق (Marginalla) تتطلب الإدماج ، أو سقطات قلمية وخوالي (Lacunae) يحوجها التكميل بإضافات بين الحواصر ، أو ألفاظ اصطلاحية يضيئها التفسير ، أو غوامض واختصارات يصلحها الشرح والتعليق ، على أن تكتب تلك الإشارات بلون مخالف لمداد المتن ، لتسهل إزالتها بعد أن يقضي الناشر منها حاجته ، وبذا يصبح لدى الناشر صورة مطابقة للمتن الذي استقر عليه أصلاً للنشر ، وبيانات موضعية لصق ما يكون قد تبين له من مظان الخطأ ومكامن النقص الذي تقدمت أنواعه (١) .

٣- نسخ المقابلـــة :

يقوم المحقق بالحصول على صور لنسخ أخرى من المخطوطة موضع النشر، يظنها في تقديره المقارن تالية لتلك التي اعتمدها أصلاً لعمله ، لأن الإفادة الكاملة من مخطوطة واحدة لا تتم للباحث إلا بقراءة النسخ الأخرى منها – بفرض وجود نسخ أخرى – وقد يكون أوفاها وأفضلها من الناحية العملية أبعدها عن مناله ، فيحتاج والحالة هذه إلى تبذير وقته ، أو يضطر للقنوع بفائدة مشوبة منقوصة ، ثم يقابل الناشر نسخته التي كتبها لنفسه ، ورقشها بإشارته على

= صفحة ح .

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص ١٩٩٠ .

أول تلك النسخ الثانية جدارة وترتيبا عنده ، وكلما وجد بينهما خلافاً أو تبايناً في اللفظ أو العبارة نبه إليه ، وأثبته كتابة في موضعه بلون مخالف للون ما كتب به المتن والإشارات الأولى ، فيصبح لديه بذلك نسخة ذات ألوان هي في الواقع نسختان ، وربما أحس الناشر بعد ذلك العمل الدقيق أن المتن لا يزال بحاجة إلى مقابلة على نسخة أخرى ، فيتعين والحالة هذه أن يجري عليه مثل ما أجرى سابقاً من مقابلة نسخته الأصلية على ما يختاره من صور النسخ الباقية لديه ، وهكذا حتى يصير المتن معداً تماماً لما يتطلبه النشر الأمين الخالص لوجه الحق والتاريخ، وإلى هنا يكون المحقق قد أنهى عمليات المفاضلة والمقابلة والمقارنة بين نصوص المتون التي توفرت له ، وأثبت نتائج عمله فيها بإشارات مختلفة الألوان والأنواع والأهمية ، فيقبل بعدئذ على عملية ذات شعب ، وما أكثر ما يعوزه في أثنائها من المثابرة والأناة والصبر ، وهى ما يلى [1] .

٤- إخراج المتـن :

هذه هي المهمة قبل الأخيرة لنشر المخطوطات ، حيث يقوم المحقق بالاستقرار على إخراج المتن وفق ما كان يريده المؤلف ، وحسبما تمليه عليه الإشارات المدونة والواقع – كما يقول الدكتور زيادة – : إن المخطوطات مهما بلغت من وضوح وحسن صيانة ليست بنجوة من النقص أو الغلط الناشئ من تهاون كاتبيها أو نسيانهم ، حتى ولو كانت بخط مؤلفيها ، وقراءتها في الكثير الأغلب عملية بطيئة مضنية محفوفة بأصناف الزلل ، لذا فالمحقق في هذه الناحية والحالة من العمل بحاجة متكررة إلى المصادر المعاصرة ليتوكأ عليها ، ويستعين

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص **١٨٦٩** ، المقالة الثانية ص **١٩٩٠** .

بها في ترجيح القراءات التي تجمعت لديه ، أو توضيح بعض العبارات التي ظلت مغلقة عليه ، ومن أركان تلك الخطوة تنوير المتن بالترقيم والتنظيم مع المحافظة على ترتيب المؤلف ، وتزويد العبارات بالإضافـــة بين الحواصر ، إذا لزم لفهمها التزويد [١] .

٥- الحواشـــي :

تعد الحاشية في المتون المنشورة – كما يقول الدكتور زيادة – لأهميتها مسألة قائمة بذاتها ، بيد أنها ممتزجة بعملية تنوير المتن ، والحواشي في الحق هي مسبار النشر ، فعلى المحقق أن يتهيأ لها بالكثير من المعاجم اللغوية والجغرافية والأطالس والفهارس والتقاويم المقارنة، وكذا المراجع المعاصرة وغير المعاصرة، وهو يحسن صنعاً وينقذ وقتاً إذا تجنب ما نشر من تلك المراجع نشراً تجارياً رديئاً ، أو كان بغير فهرس تفصيلي ، وهذا طبعاً بقدر المستطاع لتحقيق الإفادة العلمية المطلوبة منها [٢] .

وعن الكم الذي ينبغي أن تشغله الحاشية يرى مؤرخنا أن دستور النشر أضحى صارماً في تطبيق مبدأ القصد والاختصار في الحواشي ، بحيث لا تشغل الحواشي من الصفحة إلا ثلثها على الأكثر ، ليظل الثلثان على الأقل للمتن ، فيبقى واضحاً للقارئ ، كما توخى سيادته في نشره لكتاب السلوك التزام القاعدة الذهبية تلك في النشر قدر المستطاع ، وألا يشذ عنها سواء في الحواشي أو الملاحق إلا من أجل تنوير المتن ، أو من أجل توفير الوقت للقارئ بالإشارة إلى

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٩ ، المقالة الثانية ص ١٩٩٠ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص ١٩٩٠ .

ما في بطون المخطوطات من معارف خافية ، وقد استدرك الدكتور زيادة – لتواضعه الشديد – على نفسه في عدم الالتزام بهذه القاعدة ، بسبب إطالته للحاشية في بضع صفحات من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزي ، موضحاً أنه تجنب مثل هذا الأمر في الأقسام التالية ، الأمر الذي عرضه للنقد ذاته من جانب بعض المؤرخين ، لمظنة شيء من الاختصار في الحواشي [(١)] .

وخلص مؤرخنا الجليل في ختام تلك القواعد الرصينة إلى أن نشر التراث عملية تؤدة، وأمانة في عنق الناشر قبالة المؤلف الأصلي والقارئ المحدث ، فضلاً عن أنها دليل على قيمة الناشر نفسه ، من حيث هو مساهم في عملية إحياء التراث التاريخي ، فأن تغلبت عليه آفة الإنجاز حباً في الإنجاز والسلام ، فأهمل حين تجب العناية ، أو عجل حين ينبغي التأني ، خرج المتن من يده كما دخل إليها أو أخجل حالا ، وإن تغلبت عليه آفة الأنانية ، وأقبل على متنه فجعله مطية ذلولاً نحو الشهرة والذيوع، بأن حمله الحواشي الضافية بمناسبة وبغيرها ، صار المتن مثقلا خافيا على القارئ ، ومن ثم فالتوسط والقصد هنا خير الأمور ، فلا يعمل الناشر وكأنَّ غايته إظهار المتن في ثوب مطبوع ؛ إذ ليس في ذلك ثمة فضل أو مجهود ، ولا يقف من المتن موقف المتصيد للفرص ، التي تمكنه من النقد والمعارضة والتلويح بسعة العلم ، وحسب الناشر أن يذكر دائماً ، أن ما يقوم على نشره منسوب إلى مؤلفه أولاً وآخِراً بالطبع ، وأن الغرض المنطقي من النشر إبراز فضل المؤلف لا إخفاؤه ، ومساعدة القارئ على الإفادة لا إقناعـــــــه

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء **٢** قسم **٣** صفحة هـ ، صناعة التاريخ (٢) ص **١٩٩٠** ، نقده لكتاب مفرج الكروب ص **٢٥٤** .

بمقدرة الناشر[١] .

ولا تتوقف عملية نشر التراث عند حد إخراج النص مقوماً مصححاً كما أراده المؤلف فحسب ، بل لابد من إضافة بعض الملاحق والفهارس التي تخدم العمل ، كما فعل الدكتور زيادة في تحقيقه لكتاب السلوك للمقريزي ؛ إذ كان الرجل يرى أنه ليس هناك عمل علمي جدير من دون فهارس وكشافات له ، سواء أكان متناً منشوراً ، أو كتاباً مترجماً ، أو تأليفاً علمياً ، فهذه الكشافات بمثابة المفتاح الذي يصل منه القارئ إلى ما يريد معرفته [٢] .والحق رأيت أن المؤرخ الجليل لم يتصدر اسمه عملاً من هذا كله ، إلا وكان مسك ختامه مثل هذه الفهارس والكشافات ، التي تنير الطريق للقارئ ، فيصل إلى ما يريد في سهولة ويسر .

تلك هي القواعد المنهجية العلمية الرصينة التي ارتضاها الدكتور زيادة لنشر التراث وتحقيقه والتي أبدع في القيام بها وجعلها قيد التطبيق العملي فيما أخرج من تراث تاريخي خلد اسمه في هذا المضمار ، وصارت نبراسا يضيء الطريق لمعاصريه ولاحقيه ، ودعوة لاقتفاء أثره فيما قدم من جلائل الأعمال في هذا المجال والتي تجلت فيما يلي :

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٢) ص ١٩٩١ .

(٢) عزيز سوريال عطية : تاريخنا القومي ص ٢٠٦ ، زيادة : عرضه لكتاب نقد الحروب الصليبية لبالمراثروب ص٢١٨ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو ١٩٥٠م .

ثالثاً : إسهامات الدكتور زيادة في نشر التراث :

بدت جهود الدكتور زيادة في خدمة التراث التاريخي ونشره لتحقيق أولى دعائم النهضة العلمية المرتجاة واضحة جلية في تحقيقه لجزءين كاملين من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، الذي يعد بحق صاحب الصدارة بين موسوعات التاريخ العديد التي ألفت في مصر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه سطره ليكون مسك الختام في مؤلفاته عن تاريخ مصر ، بعد أن ألف كتاب « **عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط** » في تاريخ مصر من الفتح العربي إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ، وكتاب « **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** » في تاريخ مصر زمن الفاطميين ، ثم رأى المقريزي أن يصل ذلك بذكر من ولى مصر بعدهم من سلاطين الأيوبيين والمماليك حتى زمنه في مؤلف مستقل سماه « **السلوك لمعرفة دول الملوك** »[١]

يقع هذا السفر الجليل في أربعة أجزاء ضخمة ، تغطي تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية حتى وفاة المؤلف سنة **٨٤٥**هـ / **١٤٤١**م ، وقد قام الدكتور زيادة بتحقيق ونشر جزءين كاملين من هذه الأجزاء الأربعة ، صدرا في ستة أقسام ، كل منها في مجلد كبير قائم بذاته ، شملت الفترة المحصورة من قيام الدولة الأيوبية سنة **٥٦٧**هـ / **١١٧١**م ، حتى سنة **٧٥٥**هـ / **١٣٥٤**م ، ناهيك عن بعض المقدمات للدول السالفة على الدولة الأيوبية ، وانتهى الجزء الأول

---

(١) زيادة : تاريخ حياة المقريزي ص١٨، **١٩** حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١١٠ .

بأحداث سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ، وبلغ عدد صفحاته (٩٥٧) تسعمائة وسبع وخمسون صفحة ، تلتها الملاحق والفهارس ما بين صفحتي (٩٥٨ و١١٧٨) وصدر ما بين سنتي ١٣٥٣- ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤ – ١٩٣٦م ، وأما الجزء الثاني فبدأ من حيث انتهى الأول بسنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م ، وتوقف بنهاية أحداث سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م ، وبلغ عدد صفحاته (٩٣٠) تسعمائة وثلاثون صفحة ، تلتها الملاحق والفهارس ما بين صفحتي (٩٣١ و١٠٨٣) ، ونشر ما بين سنتي ١٣٦٠- ١٣٧٨هـ/ ١٩٤١- ١٩٥٨م ، وصُدِّرت هذه الأقسام الستة بمقدمات للدكتور زيادة ما عدا القسم الثالث من الجزء الأول ، كما ظهرت من بعض الأقسام طبعات متتالية ، حرص الدكتور زيادة على التقديم لها مرة أخرى ، كما هو الحال في القسم الأول والثاني من الجزء الأول .

وقد خرج القسم الأول من هذه المجلدات الستة التي نشرها الدكتور زيادة سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، في حين صدر القسم السادس والأخير سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م ، وكانت أمنية مؤرخنا إتمام هذا العمل ، ولكن اعتلال صحته في السنوات الأخيرة حال بينه وبين الاستمرار في هذا الجهد الضخم حتى وافته المنية ، وتساءل المشتغلون في حقل تاريخ العصور الوسطى عن مصير ما تبقى من كتاب السلوك ، الذي يحتل مرتبة الصدارة بين مؤلفات العصور الوسطى ، بيد أن هذا السؤال لم يجد جوابا ؛ لأن المشتغلين بتحقيق التراث العربي خشوا الإقدام على مهمة إتمام كتاب السلوك ؛ لعدم سهولة تلك المهمة من ناحية ، ولأن أي جهد يبذل في هذا الصدد ربما يبدو متواضعاً إلى جانب الجهد العملاق الذي بذله مؤرخنا في تحقيق الجزءين الأول والثاني من ناحية أخرى ، فهبَّ لإتمام

تحقيق كتاب السلوك تلميذ زيادة النجيب سعيد عبد الفتاح عاشور ؛ لتحقيق أمنية أستاذه ، ووفاء لشيخه زيادة ، ولأستاذ أستاذه المقريزي ، كما نوه هو إلى ذلك ، وخرج النصف الثاني من كتاب السلوك إلى النور في جزءين كبيرين في ستة أقسام كسابقيه ، عدد صفحات الثالث (١٣٩٠) ألف وثلاثمائة وتسعين صفحة ، بينما جاء الرابع في (١٤١٦) ألف وأربعمائة وست عشرة صفحة ، للفترة المحصورة بين سنتي ٧٥٦- ٨٤٤هـ / ١٣٥٥- ١٤٤٠م ، وصدرت هذه الأقسام الستة ما بين عامي ١٣٩٠ – ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢- ١٩٧٢م ، وقدم سعيد عاشور للقسم الأول من المجلد الأول والثاني [١].

ويرجع تفكير الدكتور زيادة واهتمامه في وجوب نشر كتاب السلوك إلى سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م ، حين كان يعد بحثه لنيل درجة الدكتوراه – كما سبق أن أبان الدارس- حيث وجد أن هذا المصدر يعد من أهم مؤلفات المؤرخين المصريين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، ووجد تشجيعا وحافزاً من المستشرق الإنجليزي الدكتور جب – الأستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن – ، وعندما آب زيادة إلى وطنه سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠ ، وعين مدرساً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، أخذ على عاتقه منذ ذلك الحين تحقيق ونشر هذا المخطوط الهام [٢] .

---

(١) سعيد عاشور : تقديمه لكتاب السلوك جزء ٣ قسم ١ صفحة هـ ، و ، جزء ٤ قسم ١ صفحة هـ – ي .

(٢) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء ١ قسم ١ صفحة هـ ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١٠٩ .

ويقع كتاب السلوك كما رتبه المقريزي في أربعة أجزاء ، وتوجد منه نسخ خطية عديدة كاملة وناقصة ، بعضها مجلد في أربعة أجزاء ، وبعضها في أكثر من ذلك ، وسلك الدكتور زيادة في نشر كتابه منهجاً علمياً سليماً- كما نظَّر – حيث قام بجمع معلومات عن نسخ مخطوطات السلوك في مكتبات العالم ، فوجد أن أكبر النسخ قيمة النسخة الأصلية الأولى التي خطها المقريزي بيده ، ويوجد منها الجزء الأول في أربعة أجزاء بمكتبة يكي جامع باستانبول تحت رقم (٨٨٧) ، كما وجد نسخاً أخرى في مكتبات استانبول المتنوعة ، متفاوتة في تاريخ كتابتها ، وفي عدد أجزائها ، فضلاً عن نسخ أخرى مبعثرة في شتى مكتبات الدول الأوربية ، وأخرى مصورة في دار الكتب المصرية ، وبعد الإحاطة بأوصاف أكبر عدد ممكن من النسخ المعروفة لكتاب السلوك اعتمد زيادة عند تحقيق الجزء الأول على نسخة يكي جامع ، التي كتبت بيد المقريزي ، وسماها زيادة ، في الحواشي (س) ، واستعان في المقابلة بنسخة المكتبة الأهلية بباريس وسماها (ب) ، التي استفاد منها في إبانة ما غمضت قراءته من الألفاظ في مخطوطة يكي جامع ، والاسترشاد بها في بعض العبارات والألفاظ الساقطة أو المحجوبة بورقة ملصقة فوقها [١].

وفي تصديره للجزء الأول أبان الدكتور زيادة عن الأسباب التي من أجلها اعتمد على نسخة يكي جامع أصلاً للتحقيق ، ففضلاً عما سطره المقريزي لنفسه في صفحة العنوان وفي حرد المجلد ، وجد مؤرخنا شواهد داخلية عدة تدل على أن المقريزي كتب هذا الجزء بيده منها : أن كثيراً من صفحات هذا الجزء مرقوش

---

(١) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء ١ قسم ١ صفحة ز – ط ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١١٠ .

بهوامش إضافية ، مكتوبة أحياناً على جوانب الصفحات ، وأحياناً على ورقة منفصلة بين صفحتين ، وفي المتن عادةً إشارةٌ بعلامة إلى المكان المناسب لهذا أو ذاك الهامش من المتن ، الذي يكون أحياناً سقطة كتابية تداركها المؤلف عند المراجعة فأثبتها ، أو عبارة من عبارات المتن مكتوبة بأسلوب آخر ، أو زيادات عثر عليها المؤلف ، وكلها شواهد تدل على أن المقريزي كتب هذه النسخة من الجزء الأول بيده ، ثم راجعها بنفسه ، فتدارك بالإثبات ما فاته ، وأضاف من الزيادات ما رأى أن يضيف ، وفسر من الألفاظ ما ظنه غريباً ، كما أشار مؤرخنا إلى طريقة الرسم الإملائي الذي اتبعه المقريزي في هذا الجزء[١] .

وفي منهج علمي سليم أورد الدكتور زيادة الأسباب التي دعته لاتخاذ نسخة باريس (ب) نسخة مساعدة ، وشرح بالتفصيل تلك الأسباب التي تدل على دقته وخبرته وأصالته في تحقيق التراث ، من أنها نسخة طبق الأصل الموجود في نسخة يكي جامع ، لا تختلف عنها في الأسلوب أو العبارة أو ترتيب المحتويات ، بالإضافة إلى احتوائها على إشارات باللغة الفرنسية لكبار أحداث الحروب الصليبية ، أو ترجمة إلى تلك اللغة لأسماء كبار الصليبيين قبالة ورود أسمائهم بالمتن[٢].

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هناك محاولات سابقة قام بها المستشرقون لنشر كتاب السلوك منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث

---

(١) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء ١ قسم ١ صفحة ط ، ي ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء ١ قسم ١ صفحة ك ، ل ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١١١ .

نشر (كاردون Cardonne) سنة **١١٧٥**هـ / **١٧٦١**م شذرات منه باللغة العربية في ذيل كتاب تاريخ حياة لويس التاسع ملك فرنسا ، كما نشر منه فقرات أخرى سنة **١٢٤٠**هـ/ **١٨٢٤**م ، ضمن مختارات عربية متعلقة بتاريخ فرنسا ، وبعد إحدى وعشرين سنة أتم المستشرق (كاترمير Quatremere) ترجمة فرنسية في جزءين لشطر كبير من كتاب السلوك ، للحوادث المحصورة بين سنتي **٦٤٨- ٧٠٨**هـ / **١٢٥٠- ١٣٠٨**م تحت عنوان (تاريخ سلاطين المماليك) .
(Quatremere, Histoire des sultans mamlouks, Paris, 1837- 1845) .

واعتمد (كاترمير) في الترجمة على مخطوطة كانت في أيامه بمكتبة ملك فرنسا ، ثم انتقلت تلك المخطوطة إلى المكتبة الأهلية بباريس ، وهي النسخة التي اعتمد عليها الدكتور زيادة كنسخة مساعدة في التحقيق ، وفي سنة **١٣٢٦**هـ / **١٩٠٨**م ترجم (بلوشيه Blochet) ما فات كاترمير من الجزء الأول ، وسمي ترجمته (تاريخ مصر للمقريزي) (Blochet, Histoire d, Egypt de Makrizi)[(١)].

هذا ما كان من جهود لبعض المستشرقين لنشر أجزاء وشذرات من كتاب السلوك بلغة مؤلفه أو باللغات الأوربية ، أما عمل الدكتور زيادة فكان أول محاولة لإخراج كتاب السلوك كاملاً بلغته التي كُتب بها ، واعتمد مؤرخنا في تحقيقه للجزء الأول على مخطوطة يكي جامع باستانبول كأصل للتحقيق مع نسخة المكتبة الأهلية بباريس كنسخة مساعدة ، واسترشد زيادة بما ترجمه

---

(١) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء **١** قسم **١** صفحة ل ، م ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١١** .

(كاترمير) و(بلوشيه) ، وقد تناول تلك الترجمة ببعض النقد (انظر على سبيل المثال الصفحات ٨٠ حاشية **٥** ، ص **٩٤** حاشية ١، ص **١١٢** حاشية **١** ، ص **١٣٥** حاشية **٤- ٥** ... الخ) ، والسبب في ذلك اعتماد (كاترمير) و(بلوشيه) على نسخة المكتبة الأهلية بباريس فقط [١] .

وعندما شرع الدكتور زيادة في تحقيق الجزء الثاني من كتاب السلوك سافر إلى استانبول في صيف سنة **١٣٥٥**هـ/ **١٩٣٦**م باحثاً عن بقية مخطوطة يكي جامع التي كتبها المقريزي بيده ، وجعلها زيادة أصلاً للتحقيق في الجزء الأول بأقسامه الثلاثة ، وهناك عثر مؤرخنا على نسخ عديدة للكتاب ، إلا تلك البقية من المخطوطة الأصلية التي أرادها ، ومن ثم اختار الرجل من تلك النسخ مخطوطة جامع فاتح كتبخانسي ، المكتوبة في اثنى عشر جزءاً الأول والحادي عشر منها مفقود ، وجعلها أصلاً لتحقيق الجزء الثاني بأكمله من السلوك ، وسماها (ف) بالحواشي ، واستعان على تقويم المتن بها بنسخة المكتبة الأهلية بباريس ، التي سميت (ب) ونسخة فاتح كتبخانسي التي اتخذها زيادة أصلا لتحقيق الجزء الثاني كُتبت لمكتبة الأمير بشبك [٢] بن مهدي سنة **٨٨٠**هـ/ **١٤٧٥**م ، أي بعد وفاة

(١) زيادة : تصدير لكتاب السلوك جزء **١** قسم **١** صفحة م ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١١** ، **١١٢** .

(٢) يشبك بن مهدي الظاهري جقمق ، كان ممن ساند ابن سلطانه في الولاية سنة **٨٥٧**هـ/ **١٤٥٣** ، ولما عزل منها نفاه خلفه إينال العلائي إلى قوص ، ثم عاد منها وتولى كاشف الصعيد في سلطنة خشقدم ، ثم نائب الوجه القبلي كله ، فباشره مباشرة حسنة ، وساند قايتباي في الوصول إلى السلطنة ، فكافأه على ذلك ، وولاه دواداراً كبيراً ، وعول عليه في كل أمر ، وزادت مكانته لما خرج وحارب شاه سوار وهزمه وجاء به أسيراً ، فارتقى ووصل =

المقريزي بخمس وثلاثين سنة ، وأخرج مؤرخنا القسم الأول من الجزء الثاني سنة **١٣٦٠**هـ / **١٩٤١**م ، الذي بدأ بحوادث سنة **٧٠٤**هـ / **١٣٠٤**م ، وانتهى سنة **٧٢٨**هـ/ **١٣٢٧**م في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وهي نهاية المخطوطة (ف) ، ويلاحظ أنه عند حوادث منتصف سنة **٧٠٨**هـ/ **١٣٠٨**م من هذا القسم ينتهي ما ترجمه المستشرق (كاترمير) إلى اللغة الفرنسية من كتاب السلوك ، ويصبح الدكتور زيادة المنفرد الوحيد بفضل نشر ما تبقى من كتاب السلوك حتى نهاية الجزء الثاني[١].

وقد طبق مؤرخنا زيادة المنهج العلمي الذي دعا إليه بالمقابلة بين نسختي المخطوطة ، وإثبات أوجه الشبه والخلاف بينهما ، فضلاً عن تكميل المتن ، وتوضيح مشكلاته وغوامضه في مواضع شتى ، وكان المقريزي قد كتب مؤلفه هذا ورتبه على نظام الحوليات الشائع في مؤلفات المؤرخين في العصور الوسطى ، فسرد تاريخ كل سنة على حدة ، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى ، ولم يستوقف القارئ في وسط السنين إلا عند ولاية سلطان جديد ، وجعل المقريزي لكل سنة عنواناً بخط كبير مخالف للون المتن ، وكذلك عند عهد كل سلطان جديد ، كما تهاون المقريزي ومعاصروه في النقط ، حتى أن كثيراً من الألفاظ وَرَد

= إلى ما لم يصل إليه أحد من أبناء جنسه ، ثم خرج لقتال يعقوب بن حسن الطويل أمير الآق قوينلي التركمانية في سنة **٨٨٥**هـ / **١٤٨٠**م فقتل وعادوا بجثته ، فدفن في تربته .السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت**٩٠٢**هـ/ **١٤٩٦**م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع **١٠/٢٧٢ – ٢٧٤** ، دار الجيل ، بيروت ، ط**١** ، **١٤١٢**هـ/ **١٩٩٢**م .

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء **٢** قسم **١** صفحة ج – و ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٢** .

خالياً منها ، فقد كان الكُتَّاب في هذه العصور وما قبلها يكرهون كثرة النقط ، ويعدونه تنطعا أو جهلاً من الكاتب ، أو سوء ظن بالمكتوب إليه ، ومن ثم كان المنهج العلمي للدكتور زيادة في نشر كتاب السلوك إبقاء عناوين السنين في مواضعها في أول سطر دائماً وحروف كبيرة عن المتن ، ووضع بداية حكم السلاطين وأسمائهم كذلك في وسط السطر ، كما أخذ مؤرخنا حريته في نقط الألفاظ ، وفي التقسيم والترقيم ، واتبع الرسم الإملائي الحديث ، وأشار أحياناً إلى بعض تلك الألفاظ، كما اهتم بالهمزات التي أهملها المقريزي إهمالاً تاماً في سائر كتابه(١).

ومن المعروف – كما يقول الدكتور حسنين ربيع – أن كتاب السلوك حوى من المعلومات التاريخية والحقائق والإشارات ما لم تَحْوِهِ مؤلفات المعاصرين كابن الأثير وأبي شامة وابن واصل وغيرهم ، فقد نقل المقريزي واقتبس منهم جميعاً ، وزاد عليهم من مراجع أخرى اندثرت تماماً – لعلها وثائق ديوانية – ، ولـم يبق منها إلا ما حفظه المقريزي في كتابه ، وهنا تظهر مقدرة وأستاذية الدكتور زيادة في تحقيق النصوص التاريخية ؛ إذ بحث عن الثغرات وحاول ملئها وتحديدها ، وحرص على تقديم النص بالصورة التي تركها عليه مؤلفه ، مع تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح وتوضيح ما يحتاج إلى توضيح ، وذلك بالرجوع إلى المصادر التاريخية المعاصرة التي تعالج نفس الفترة التاريخية (٢) .

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء **١** قسم **١** صفحة ن ، س ، جزء **١** قسم **٢** صفحة هـ ، و ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٣** .

(٢) حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٣** ، **١١٤** .

فتتبع الدكتور زيادة وقابل وحقق النصوص التي اقتبسها المقريزي من المصادر السابقة ، وقارن المقتبسات بأصولها ، اللهم إلا المفقود منها ، وأشار في كل مناسبة إلى المصادر وصفحاتها في الأصول ، مع التنبيه على كيفية الاقتباس ، فقد يكون حرفياً ، أو شابُه شيء من الحذف ، أو اقتباساً متصرفا فيه مع إثبات كل ذلك في الحواشي ، كما استعان الدكتور زيادة بما نقله المؤرخون اللاحقون من كتاب السلوك ، وخرج من هذه المقابلات بإكمال الساقط ، أو توضيح الغامض ، وإثبات الاختلاف ، كما قام بتفسير بعض الكلمات الغريبة على المتخصصين في الدراسات التاريخية ، وتصحيح أخطاء شائعة عن بعض حوادث الفترة التاريخية وأعلامها ، وقد استخدم زيادة المصادر الأصلية لتصحيح مواضع الحذف أو التحريف أو التصحيف بالمتن ، وكل ذلك - كما يقول حسنين ربيع- في مثابرة محمودة ، كما قام بالتعليق الواعي على الحوادث التاريخية بما يتيح للباحث أفضل استخدام للنص المحقق ، وحرص على عدم الإطالة في الحواشي التوضيحية ، ليظل المتن واضحاً للقارئ[١] .

ويعلق الدكتور سعيد عاشور على ما سلف من منهج الدكتور زيادة في تحقيقه لكتاب السلوك بأنه كان تجربة رائدة في ميدان تحقيق التراث العربي ؛ لأنه لم يقتصر على تحقيق المتن عن طريق مضاهاة ثلاث نسخ خطية بعضها ببعض ، وإنما حرص على شرح وتفسير كل ما ورد في المتن من مصطلحات مجهولة ، وألفاظ غير مألوفة ، وعبارات مستغربة ، فضلا عن التعليق على بعض الحوادث تعليقا علمياً لا يقوى عليه إلا أستاذ في تخصصه ، حتى صارت الحواشي

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .

والتعليقات التي كتبها الدكتور زيادة في حواشي المجلدات الستة التي أصدرها من كتاب السلوك تؤلف ثروة علمية ضخمة يتعذر بل يستحيل العثور عليها في أي مرجع آخر[١] .

ولكي يدرك القارئ حجم الجهد المبذول من مؤرخنا في عمله هذا ، فليعلم أن القسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك وعدد صفحاته(**٢٦١**) مائتين وإحدى وستين صفحة ، قد حوى (**١١٦٦**) ألف ومائة وست وستين حاشية ، موزعة تحت ما يزيد على ثلاثين نوعاً من التعريفات والمقابلات والمقارنات والإحالات ، يمكن ترتيبها بحسب أعدادها على النحو التالي :

م	الموضــوع	العدد
١	مقارنة ومقابلة لمخطوطة أخرى	**٤١٠**
٢	تعريف ببلدان وأماكن ومواقع	**١٨٠**
٣	تعريف بمصطلحات تاريخية	**٧٧**
٤	حواشي تفسيرية لما غمض بالمتن	**٥٢**
٥	تفسير حوادث تاريخية وردت بالمتن .	**٤٥**
٦	استكمال للمتن من مصادر مطبوعة .	**٤٠**
٧	تعريف ألفاظ لغوية .	**٤١**
٨	ترجمة لأعلام .	**٤٢**
٩	الإشارة إلى إحالات سابقة ولاحقة	**٣٥**
١٠	إحالة لمراجع أجنبية .	**٢٣**
١١	إشارة إلى هامش ليس في مكانه وغير متفق مع المتن .	**٢١**

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٢ .

١٢	استكمال من مخطوطة أخرى .	١٩
١٣	الإشارة لسقط بالمتن موجود بهامش المخطوط .	١٤
١٤	بياض في الأصل .	١٤
١٥	ضبط أعلام واستكمالها .	١٥
١٦	إحالة لمصادر أخرى .	١٣
١٧	تعريف بأسلحة وسفن .	١٣
١٨	تعريف بآثار معمارية .	١٢
١٩	أعلام غير واضحة .	١٠
٢٠	الإشارة إلى كتب ومؤلفيها .	٩
٢١	سقط في عبارة أو كلمة .	٩
٢٢	عبارة في ورقة في غير مكانها .	٨
٢٣	تاريخ غير واضح بالمتن .	٥
٢٤	شطب المقريزي لألفاظ سبق ذكرها أو لم يعرفها .	٥
٢٥	استكمال من مخطوطة مترجمة .	٧
٢٦	توجيه لغوي لضمائر .	٤
٢٧	الإشارة إلى بداية هامش ونهاية ملحق بالمتن .	٥
٢٨	معلومات أغفلها المقريزي لبعدها عن مصر .	٤
٢٩	معلومات أغفلها المترجمون للسلوك .	٢

وذيل الدكتور زيادة القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك بسبعة عشر ملحقاً[(١)] من مصادر مخطوطة متنوعة ، بهدف إظهار بعض ما في عيون

---

(١) المقريزي : السلوك ، جزء١ قسم ٣ ، ص ٩٦٥ – ١٠٥٠ .

المصادر التاريخية من نصوص ووثائق هامة تهم المشتغل بالتاريخ ، ويتعذر عليه الوصول إلى أصولها أو صورها ، لاسيما وأن هذه الملاحق كانت من مصادر ما تزال مخطوطة حتى منتصف القرن العشرين ، مثل : مفرج الكروب لابن واصل، وزبدة الفكرة لبيبرس المنصوري ، ونهاية الأرب للنويري ، وعقد الجمان للعيني ، هذا فضلاً عن شروط هُدَن وخطابات ونصوص يمين واتفاقيات ، كما ذَيَّل الدكتور زيادة الجزء الثاني من كتاب السلوك بثلاثة ملاحق[١] نقلاً عن كتاب نهاية الأرب للنويري[٢] .

وأما عن الكشافات والفهارس التفصيلية فقد أدرك مؤرخنا أهميتها لأي عمل منشور أو مترجم أو مؤلف ، فلم يخل عمل له منها ، وتجلت هذه الكشافات في نشره لكتاب السلوك ، لما لها من أهمية خاصة بكتب التراث ، مع صعوبة إعدادها لمن اشتغل بالبحث وله صلة بتحقيق التراث ، ومن ثم فقد أَتْبَع الدكتور زيادة الملاحق في الجزءين الأول[٣] والثاني [٤] لكتاب السلوك بكشاف ذي ثلاث فروع ، جعل الأول لأسماء الأعلام والدول والقبائل والأجناس والفرق الدينية والسياسية ، وخصص الثاني لأسماء المدن والبلاد والبقاع والشوارع والخطط والمنشآت المعمارية والأنهار والترع والجسور ، وأفرد الثالث للألفاظ الاصطلاحية وأسماء الدواوين والوظائف والرتب والألقاب وأنواع

---

(١) المصدر السابق جزء ٢ ، قسم ٣ ص **٩٣٥ – ٩٦٢** .

(٢) حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٥** .

(٣) المقريزي : السلوك جزء ١قسم ٣ ص **١٠٥١ – ١١٧٨** .

(٤) المصدر السابق جزء٢ قسم ٣ ص**٩٦٣ – ١٠٨٣** .

المعاملات والملبوسات والمحاصيل والمقاييس والأعياد[١] .

ولم ينس الدكتور زيادة – لتواضعه الجم - في ختام تصدير كل قسم من أقسام كتاب السلوك من توجيه الشكر لكل من عاونه من تلاميذه وغيرهم في إخراج العمل إلى النور ، ولم يكن ذلك من باب توزيع المسئولية على هؤلاء ، بل من باب الاعتراف لهم بالجميل ، كما فتح صدره لأي نقد علمي بناء يهدف إلى تقويم العمل واستدراك ما يحتاجه من حذف أو إضافة أو تعديل أو تبديل[٢] .

ولقد ختم الدكتور سعيد عاشور حديثه عن جهد أستاذه البالغ في تحقيق ونشر نصف كتاب السلوك بقوله : لقد نشر الأستاذ (كاترمير) بعض أجزاء من كتاب السلوك قبل أن يقوم الدكتور زيادة بنشرها بنحو خمس وثمانين سنة ، ولكن شتان بين عمل قام به مستشرق مستعرب ، وآخر قام به أستاذ شرقي عربي عاش في جو الكتاب الذي حققه ، وحرص على أن يظل بفكره وروحه ووجدانه داخل إطار نفس العصر الذي يعالجه مؤلف الكتاب ، وبينما وقف (كاترمير) أكثر من مرة أمام لفظ أو فكرة وعجز عن الوصول إلى تفسير لها – وله العذر كل العذر في ذلك – إذ بقارئ أجزاء السلوك التي حققها الدكتور زيادة يحس بأن المحقق يحرص على أن يقتفي أثر اللفظ الغامض في عناد علمي حتى يصل إلى كنهه ، ويستجلي حقيقته ، ويتناوله بالشرح والتعليق المستفيض ، وبذلك يحيل الغموض وضوحاً ، والظلام نوراً ، هذا كله بالإضافة إلى أن الدكتور زيادة وضع في تحقيقه

---

(١) حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٥** .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء**١** قسم **١** صفحة ج- و ، س ، جزء **٢** قسم **١** صفحة ز ، قسم **٣** صفحة و .

لكتاب السلوك قواعد ثابتة لكيفية تحقيق التراث وأصول نشر المخطوطات[١].

وكان من حسن التوفيق الذي حالفه الدكتور زيادة أنه ولج أولاً في ميدان التحقيق العلمي لكتاب السلوك ، حتى إذا ما أنجز الجزء الأول منه في ثلاثة أقسام سنة **١٣٥٥**هـ / **١٩٣٦**م ، وشرع في إعداد وتحقيق الجزء الثاني ، وضع مقالاته الرائعة (صناعة التاريخ في مصر) سنتي **١٣٥٩** و **١٣٦٠**هـ / **١٩٤٠** و **١٩٤١**م فجاءت قواعدها كعمله ، مع مراعاة الأسس العامة التي اصطُلح عليها في منهج التحقيق ، بل إن شئت فقل : كانت تحقيقاته للسلوك أشد حزماً من القواعد الرصينة التي تعارف القوَّامون عليها في مجال نشر التراث .

وبالإضافة إلى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، قام الدكتور زيادة بالاشتراك مع تلميذه الدكتور جمال الدين الشيال بتحقيق ونشر كتاب **(إغاثة الأمة بكشف الغمة)** للمقريزي سنة **١٣٥٩**هـ/ **١٩٤٠**م ، ويقع هذا الكتاب في **(٩٢)** ثنتين وتسعين صفحة من القطع الكبير ، صدره المحققان بمقدمة تلاها ثبت بأسماء المراجع المتداولة في الحواشي من عربية وأجنبية ، ثم متن الكتاب الذي انتهى بصفحة **(٨٦)** ، وأعقب ذلك الكشاف الأبجدي العام حتى نهاية الكتاب ، الذي نشر بمطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ط**٣** ، **١٤٢٢**هـ/ **٢٠٠٢**م .

وقد استهل الدكتور زيادة تصديره لهذا العمل بالحديث عن المقريزي ومؤلفاته ، والتنويه بأهمية كتاب إغاثة الأمة على الرغم من صغر حجمه ، بيد أنه يمتاز بطرافة موضوعه ، كما يدل على تفوق المقريزي ؛ إذ هو المؤرخ المصري

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٢ ، ١٣ .

الوحيد الذي تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر ، فتناول تاريخ المجاعات التي نزلت بأرض مصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، وهي سنة تدوينه لهذا الكتاب الذي حاول فيه المقريزي تقصي أسباب المجاعات ، واقتراح العلاج الاقتصادي الناجح لدرئها ، كما تناول المقريزي في كتابه طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف ، ووصف كل طبقة ، ولاشك أن المقريزي تأثر كثيراً بما أورده ابن خلدون في مقدمته من أثر النواحي الاقتصادية والاجتماعية في مسار التاريخ[١] ، مع الفارق بين كتابيهما في الحجم .

ويوضح الدكتوران زيادة والشيال الأسباب التي دفعت المقريزي لتأليف كتابه هذا – من واقع مقدمة المؤلف – وهي المجاعة المتقطعة التي وقعت بمصر ما بين سنتي ٧٩٦- ٨٠٨هـ / ١٣٩٣ - ١٤٠٥م ، حيث كان للمقريزي معرفة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لمزاولة منصب الحسبة ، مما ساعده على معالجة موضوع الكتاب في دقة العالم بخبايا الاقتصاد ، وربما كانت وفاة ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م في الطاعون الذي أعقب إحدى فترات تلك المجاعات الطويلة من أسباب اهتمامه أيضاً بتدوين هذا الكتاب[٢].

---

(١) زيادة والشيال : تصديرهما لكتاب إغاثة الأمة للمقريزي صفحة ج ، د ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص ١١٥ ، ١١٦ ، من شوامخ المحققين الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول ص ٢٥٧ ، الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث من شوامخ المحققين ، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، د ط ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

(٢) زيادة والشيال : تصديرهما لكتاب إغاثة الأمة صفحة د ، هـ .

وقد اعتمد الدكتوران زيادة والشيال في نشر هذه المخطوطة على ثلاثة نسخ لها في استانبول وكمبردج والقاهرة ، فضلاً عن المقابلة مع نسختين أخريين في تركيا ، وقد حرص المحققان على تقديم النص بالصورة التي تركها عليه المقريزي ، مع تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح بعد الرجوع إلى المصادر المعاصرة ، وأظهرت تعليقاتهما الواردة في حواشي الكتاب أن خبرة المقريزي التي اكتسبها أثناء مزاولته لوظيفة الحسبة ساعدته على معالجة موضوعات الكتاب ، كما قام المحققان بالتعريف بمن ورد ذكرهم من مشاهير الأشخاص ، وشرح الألفاظ الاصطلاحية ، وقاما بالتعريف بما ورد في هذا الكتاب من أنواع الموازين والمكاييل والعملات النقدية ، واستعانا بالمصادر الجغرافية وكتب البلدان للتعريف بالأماكن والبقاع التي وردت في الكتاب[1] ، وقد بلغت حواشي هذا المؤلف الصغير الذي لم يتجاوز متنه (**٨٦**) ستا وثمانين صفحة (**٣٤٤**) ثلاثمائة وأربعا وأربعون حاشية، مما يدلك على حجم العمل الذي نهض به الأستاذان المحققان ، حتى جاء الكتاب على نفس مستوى كتاب السلوك من ناحية الدقة في التحقيق ، والحرص على شرح ما به من غوامض المصطلحات[2] .

لكل هذا الجهد الذي بذله الدكتور زيادة في مجال نشر التراث استحق مؤرخنا الثناء العاطر من معاصريه من أترابه وتلاميذه ، فقد وصفه الدكتور

---

(١) زيادة والشيال : تصديرهما لكتاب إغاثة الأمة صفحة و، ز ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٦** ، **١١٧** ، من شوامخ المحققين الدكتور الشيال ص **٢٥٧** .

(٢) عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **١٣** .

حسن حبشي[١] بقوله : أستاذ الجيل في النشر والتحقيق ، وأول رائد قدم للمؤرخين ولطلاب التاريخ المقريزي في صورة علمية ، وإن معظم الذين يعملون في نشر المخطوطات التاريخية عملاً دقيقاً لهم في الواقع تلاميذ للعالم الدكتور زيادة ، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر .

وأما الدكتور **حسنين**[٢] **ربيع** فقد ختم مقالته القيمة عن جهود أستاذه زيادة في مجال نشر التراث بقوله : « **إن هذه الجهود العظيمة ... للدكتور محمد مصطفى زيادة في مجال تحقيق التراث... ، ومنهجه العلمي في التحقيق ، جعلته دون شك من الرواد الأوائل الذين وضعوا القواعد العلمية المنهجية لتحقيق النصوص التراثية ، ومن شوامخ محققي التراث ، وترك من بعده مدرسة علمية متميزة تدين له بالفضل ، واحتل عن جدارة مكانة عالية مرموقة بين محققي كتب التراث التاريخي** » .

وقال عنه **أيمن**[٣] **فؤاد سيد** : كان الدكتور زيادة من أوائل الذين تنبهوا إلى أهمية نشر النصوص التراثية ، باعتبارها مصدراً أصيلاً لدراسة التاريخ ، وكان من باكورة إنتاجه العلمي تحقيقه لجزءين من كتاب السلوك ، وهو تجربة رائدة في مجال نشر النصوص التاريخية في مصر ، والتعليق العلمي عليها ، وشرح مصطلحاتها ، ومقابلتها على المصادر الأخرى المعروفة .

---

(١) كلمة : تأبين في ذكرى وفاة الدكتور الشيال ص ١٠ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عشر ، **١٩٦٧** .

(٢) منهج تحقيق التراث عند زيادة ص **١١٨** .

(٣) رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٧** .

تلك هي جهود الدكتور زيادة في مجال وضع القواعد المنهجية العلمية لنشر التراث، وتطبيقه لها فيما قدم للمكتبة التاريخية من أعمال جليلة خلدت اسمه في هذا المضمار ، وتلتها جهود أخرى تمثلت في قيامه بمراجعة أعمال تلاميذه ومعاصريه في نشرهم لهذه المتون التراثية ، وهو ما يعرض له الدارس في الصفحات التالية .

رابعاً : مراجعات الدكتور زيادة لنصوص تراثية :

تجلت اهتمامات الدكتور زيادة بالتراث في قيامه بمراجعة بعض المخطوطات التي حققها معاصروه ، وكان مؤرخنا حريصاً على مراجعة هذه المتون المحققة مراجعة دقيقة أمينة كلمة كلمة ، وهو خلال عمله يقوم دائماً بدور المعلم والمصحح والموجه والمرشد ، ويشعر القارئ لهذا التراث المحقق بلمسات الدكتور زيادة وتعليقاته المميزة في حواشي هذه الكتب[1] ، وهي مرتبة وفق تواريخ ظهورها كما يلي :

١- نهاية الرتبة في طلب الحسبة :

المؤلف : عبد الرحمن بن نصر الشيزري ت **٥٨٩**هـ/ **١١٩٣**م .

المحقق : السيد الباز العريني ، إشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د ط **١٣٦٦**هـ / **١٩٤٦**م .

يقع هذا الكتاب في (**١٤٨**) مائة وثمانٍ وأربعين صفحة من القطع المتوسط، صدره الدكتور زيادة بمقدمة أبجدية تلتها مقدمة المحقق وخُتم بمجموعة من

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **١٣** ، حسنين ربيع : منهج تحقيق التراث عند زيادة ص١١٧ .

الملاحق ومراجع التحقيق وفهرس أبجدي عام .

واحتوى تصدير الدكتور زيادة على بيان أهمية دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وأهمية هذا الكتاب بين نظرائه من كتب الحسبة ، وذكرياته عنه حينما قرأه لأول مرة في المتحف البريطاني بلندن سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م إبّان دراسته لمرحلة الليسانس بجامعة ليفربول ، ومعرفة قيمته بين النصوص القديمة، وجعله في مستودع الآمال لنشره ، وانصرافه عنه لأعماله الأخرى، حتى وجد من تلميذه المحقق استعداداً لتحقيق ما يصبو إليه ، على الرغم مما يتطلبه النشر العلميّ الصحيح من مجهود صامت وصبر طويل ، ذلك الذي استحق عليه الناشر الشكر والثناء من شيخه زيادة ؛ لتحقيقه هذا الأمل ، ولإتحاف المكتبة العربية بمتن هام له الأسبقية والمنزلة الأولى بين المتون الخاصة بالحسبة[١].

وأما المحقق فقد ختم تقديمه لعمله بتوجيهه الشكر لأستاذه الدكتور زيادة الذي أرشده إلى هذا المتن ، وأوصى بجعله جزءًا من رسالته للماجستير[٢]، ودأب على معاونته وإرشاده في تحرير متنه وتعديل حواشيه بالحذف والإضافة ، وأشرف بنفسه على مراجعته وحبكه[٣] .

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نهاية الرتبة صفحة ج ، د .

(٢) كان عنوانها « كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن ناصر الشيزري مع مقدمة تاريخية عن وظيفة المحتسب وتطورها في مصر حتى سنة ٢٥٤هـ » قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤ ، إشراف أ.د/ محمد مصطفى زيادة . رسائل الماجستير والدكتوراه التي أجيزت بالجامعات المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩٦٧ص ٤٠٠، ٤٠١ .

(٣) السيد الباز العريني : تقديمه لكتاب نهاية الرتبة صفحة س .

٢- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية :

المؤلف : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ت**٦٦٥**هـ/ **١٢٦٦**م .

تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد .

الجزء الأول ، القسم الأول ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط**٢**، **١٤١٩**هـ/ **١٩٩٨**م .

يقع هذا الكتاب في (**٣٢٢**) ثلاثمائة واثنتين وعشرين صفحة من القطع الكبير ، صدره الدكتور زيادة بمقدمة في صفحتين ، تحدث فيهما عن البون الشاسع بين النشر في القرن التاسع عشر والنشر العلمي الذي يدعو إليه هو وغيره من الغيورين على التراث ، كما نوه إلى ما اعترى نشر الروضتين في النسخة القاهرية القديمة سنة **١٢٨٧**هـ/ **١٨٧٠**م من الاعتماد على نسخة وحيدة فريدة ، دون بذل الجهد للبحث عن نسخ أخرى للمقارنة ، ناهيك عن تقشف ناشرها في أعمال التصحيح والتوضيح والتحشية إلى درجة التحريم ، إلا من حاشية واحدة يتيمة ، ثم عرض الدكتور زيادة للطبعة الجديدة لهذا القسم ، منوها لخطة عمل الناشر ، والنسخ التي اعتمد عليها للتحقيق، والجهود التي بذلها في ترتيب المتن وتكميله ، والحواشي التي وضعها لتوضيح غوامضه ومغاليقه ، فضلاً عن تنوع المصادر التي استمد منها حواشيه ، وختم تصديره بشكره للمحقق على ما أوتي من مثابرة ودقة وصبر وإخلاص لوجه التاريخ ، حتى خرج العمل في تلك الصورة الطيبة المرضية ، التي تبين الفارق الجلي بين النشر قديماً وعلى عصره[١].

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الروضتين صفحة هـ ، ز .

٣- مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية :

جمعها وكتبها : أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة

تحقيق : الشاطر بصيلي عبد الجليل

دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ط ت .

نشرت هذه المخطوطة في (**١٣٦**) مائة وست وثلاثين صفحة من القطع الكبير ، مسبوقة بمقدمة للمحقق ، وختمت بملاحق متنوعة ، وأهدى الناشر الشكر لأستاذه الدكتور محمد مصطفى زيادة لتوجيهاته ومراجعاته التي كان لها الأثر في إخراج هذا الكتاب على تلك الصورة [١].

٤- نهاية الأرب في فنون الأدب

المؤلف : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ت **٧٣٣** هـ/ **١٣٣٢** م .الجزء الثالث والعشرون ، تحقيق د/ أحمد كمال زكي جاء في (**٤٨٠**) أربعمائة وثمانين صفحة من القطع الكبير ، الجزء التاسع والعشرون ، تحقيق د/ محمد ضياء الدين الريس نشر في (**٤٩٥**) أربعمائة و خمس وتسعين صفحة من القطع الكبير ، الجزء الثلاثون تحقيق د/ محمد عبد الهادي شعيرة ظهر في (**٤٢٣**) أربعمائة وثلاث وعشرين صفحة من القطع الكبير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٤٠١ – ١٤١٣** هـ/ **١٩٨٠ – ١٩٩٢** م

٥ ـ مختصر سياسة الحروب

المؤلف : الهرثمي صاحب المأمون

تحقيق : عبد الرءُوف عون

---

(١) الشاطر بصيلي : مقدمة تحقيق مخطوطة كاتب الشونة صفحة ن .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د ط ، **١٣٨٤**هـ / **١٩٦٤**م .

يقع هذا الكتاب في (٧١) إحدى وسبعين صفحة من القطع الصغير ، صُدر بمقدمة للناشر ، وثبت بمصادر التحقيق ، وفهرست لأبوابه الأربعين

٦ـ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

المؤلف : محمد بن عمر التونسي

تحقيق : دكتور خليل محمود عساكر ، ودكتور مصطفى مسعد

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د ط ، **١٣٨٥** هـ/ **١٩٦٥** م .

يقع هذا الكتاب في (٤٧٧) أربعمائة وسبع وسبعين صفحة من القطع المتوسط ، صدره المحققان بمقدمة طويلة ثم الفهرست ومصادر التحقيق ، ثم بدأ الكتاب بالصفحة الأولى ، واشتمل على مقدمة ومقصد وخاتمة في سبعة أبواب ، ثم الملاحق .

٧ـ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي

المؤلف : بدر الدين العيني ت **٨٥٥** هـ/ **١٤٥١** م .

تحقيق : فهيم محمد شلتوت

الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، العدد **٩٢** ، د ط ، **١٤٢٤** هـ / مارس **٢٠٠٣** م .

يقع هذا السفر في (٤٢٧) أربعمائة وسبع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، مسبوقة بمقدمة أبجدية للمحقق ، وتعريف من عبد الحكيم راضي

رئيس تحرير سلسلة الذخائر بالمؤلف وكتابه ومحققه ومراجعه الدكتور زيادة ، منوها إلى أنه أثرى المكتبة التاريخية بمؤلفاته وتحقيقاته ومترجماته [١].

٨- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني

المؤلف : يحيى بن الحسين بن القاسم ت ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٩ م

تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور

قسمان ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٨ م .

يقع القسمان في (٩٦٢) تسعمائة واثنتين وستين صفحة من القطع المتوسط ، صدرهما المحقق بمقدمة تحدث فيها عن المؤلف وأهم كتاباته ، ثم عرض لغاية الأماني ومحتواه الذي يبدأ بتاريخ اليمن قبل الإسلام مرورا بالدول المختلفة التي قامت فيه أو استحوذت عليه حتى سنة ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥م [٢].

٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

المؤلف : جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي ت٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م .

تحقيق : إبراهيم على طرخان .

الجزء الخامس عشر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة تراثنا ، دط ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

يقع هذا الجزء في (٧٣٣) سبعمائة وثلاث وثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، صدَّرها الناشر بمقدمة تحدث فيها عن منهجه في التحقيق ، وأهم المخطوطات التي اعتمد عليها في إخراج هذا الجزء ، والمصادر التي اعتمد عليها

---

(١) عبد الحكيم راضي : تعريفه بكتاب السيف المهند ص ٣ - ٥ .

(٢) سعيد عاشور : تقديمه لكتاب غاية الأماني ص ٣- ١١ .

في تحرير المتن وحواشيه [١] .

١٠ـ المختار من كتاب ولاة مصر :

المؤلف : أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ت **٣٥٠**هـ / **٩٦١**م .

اختيار : إبراهيم أحمد العدوي .

وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، دار المعرفة، د ط ت.

يقع هذا الكتاب في (**١٠٦**) مائة وست صفحات من القطع المتوسط صدَّره الناشر بمقدمة أبجدية ، ثم تعريف بالكندي وكتابه وفهرست للموضوعات .

وبالإضافة إلى جهود الدكتور زيادة في مجال نشر التراث ومراجعاته ، فقد تبارى بعض الناشرين في وضع مقدمات للدكتور زيادة على بعض المصادر غير المحققة ، ومنها :

١ـ رحلة ابن جبير :

المؤلف : أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ت**٦١٤**هـ / **١٢١٧**م .

دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري ، بيروت ، د ط ت .

يقع هذا الكتاب في (**٢٤٠**) مائتين وأربعين صفحة من القطع الكبير ، صُدِّرت بمقدمة طويلة للدكتور زيادة (ص **٥-١٧**) ، هي في الأصل محاضرة له عن ابن جبير ، ومن ثم فموضوعها يندرج تحت مؤلفات الدكتور زيادة في المبحث الرابع .

---

(١) طرخان : مقدمة النجوم الزاهرة **١٥** / **٣- ٥** .

٢ـ خطط المقريزي (**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**) .

المؤلف : أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ت **٨٤٥**هـ / **١٤٤١**م .

ثلاثة أجزاء ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د ط ت .

يقع هذا السفر في ثلاثة أجزاء ، صفحاتها على التوالي **(٦٤١)** ستمائة وإحدى وأربعين صفحة ، و**(٦٣٩)** ستمائة وتسع وثلاثين صفحة ، و**(٥٩٦)** خمسمائة وست وتسعين صفحة ، وقد صُدِّرت بمقدمة للدكتور زيادة مستقاة من كتابه المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر ، صفحاتها (**٣**– **١٧**) ، والحديث عنها سيكون ضمن هذا الكتاب في المبحث الرابع .

خامساً : **نقد الدكتور زيادة لـمتون منشورة** :

لم تقف جهود الدكتور زيادة في مجال نشر التراث على ما قام به من تحقيق ونشر ومراجعات فحسب ، بل أسهم – بما له من مكانة علمية مرموقة – في توجيه طلابه وباحثيه إلى نشر بعض من عيون هذا التراث الأشم ، والقيام بنقده وعرضه هو وما يخرجه الآخرون ، لتقويمه ليستفيد منه اللاحقون عند ولوج ميدان التحقيق ، وليخرج هذا وذاك في ثوب من الدقة العلمية المرتجاة ، ومن أهم إسهامات الدكتور زيادة في هذا المجال ما يلي :

١ـ مُؤَلَّف **الطرسوسي في التاريخ الحربي** :

الناشر : كلود كاهن .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، **١٣٦٨**هـ/مايو **١٩٤٩**م ، (ص **٢٢٣**– **٢٢٥**) .

استهل الدكتور زيادة حديثه عن هذا الكتاب ببيان أهمية التاريخ الحربي ، إذ هو - في عصره - ميدان جديد للقوَّامين على الدراسات التاريخية في مصر ، على أنه قَدِيم قِدَم التاريخ والإنسان معاً في مصر وغيرها من البلاد في الشرق والغرب ، وإذا كان قد توفر شيء من الأدوات الحربية في المتاحف ، فإن الحاجة ملحة لمتابعة ما تجود به مكتبات الشرق والغرب من متون تاريخية في فن الحرب والصناعات الحربية ، وأن يعتصر ما فيها من حقائق لمعرفة الطاقات المادية لمصر أثناء هذه العصور ، وليستجلي منها ما استطاع أن يقوم به أهله من أعمال في مضمار الحروب ، وما تستلزمه الحروب من تجييش الجيوش وإعداد العدد[١].

ومن هذه المتون - كما يقول زيادة - ما نشره (كلود كاهن) من مقتبسات هامة من مخطوطة عربية في فن الحرب والصناعات الحربية المصرية على عهد الأيوبيين وعنوانها : « **تبصرة الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء** » ؛ لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي ، الذي عاصر صلاح الدين الأيوبي ، وكتب كتابه من باب الإعجاب بأعماله الحربية ضد الصليبين بالشام[٢].

وأوضح مؤرخنا أهمية هذه المخطوطة بأنها الأقدم بين نظائرها المعروفة – حتى عصره – في فن الحرب والصناعات الحربية في مصر العصور الوسطى ، وما عداه من المخطوطات المقطوع بوجودها لاحق لها ، وهذه كثيرة ولكنها مبعثرة في أشتات المكتبات بالشرق والغرب ، وهذا الكتاب- على أهميته من الناحية

---

(١) زيادة : نقده لكتاب مؤلف الطرسوسى ص **٢٢٣** .

(٢) المرجع السابق ص **٢٢٣** .

العلمية البحتة – ظل مدفوناً يعبر عليه السابقون للأستاذ (كلود كاهن) دون أن يعيروه اهتماماً ، وأشباهه من المخطوطات الصغيرة غير قليل ، لم يلفت انتباه القوَّامين على النشر ، لانصرافهم مضطرين – حتى عصر زيادة – إلى الأمهات الكبرى والحوليات العامة ، أو لقلة معرفتهم بأمثال مؤلف هذا الكتاب، أو لغموض التعريف بالكتاب نفسه ومحتوياته ، كما هي الحال فعلاً في فهرس المخطوطات العربية بجامعة اكسفورد ، الذي عثر فيـــه (كلود كاهن) على هذا المتن(١) .

ويضيف الدكتور زيادة أهمية أخرى إلى هذا الكتاب ، هي أنه يصف جميع أنواع الأسلحة المعروفة في مصر على عهد الأيوبيين كما يصف وسائل صناعتها ، فضلاً عن أنه قطعة بديعة في فن الحرب ، وذلك على حين أن الكتب الأخرى في فن الحرب والصناعات الحربية تكاد تقتصر على ذكر الناشبين والفرسان ، وكذلك يفيض متن الكتاب بألفاظ اصطلاحية فنية في صناعة آلات الحرب ، فضلاً عن أسماء المواد التي احتاجت إليها تلك الصناعة ، مثل الحديد النرماهن ، وخشب الزبوج، مما عني الأستاذ (كلود كاهن) بإيراد مرادفه في الفرنسية الحديثة ، وشرحه في الحواشي من المراجع التي استقامت له أثناء عمله ، كما أن المتن يفيض كذلك بأسماء جرت مجرى المصطلح المتواتر عند الأخصائيين في فن الحرب والصناعات الحربية ، مثل الرسالة وهي مدفع السهم وغيره ، مما يدرك أهميته الباحثون عن ألفاظ الصناعات الحربية والميكنة(٢) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) المرجع ذاته ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وتمنى مؤرخنا في ختام نقده أن لو كان الأستاذ (كاهن) قد نشر الكتاب كله بنصه وفصه ، ولم يقتصر على مقتبسات مجتزأة منه فحسب ، وذلك رغم ما أدلى به من أسباب علمية داعية للقنوع بالاقتباس والاجتزاء ، وختم زيادة نقده بشكره للناشر على ما أنجز بلغته الفرنسية ، ثم ترجمتها إلى العربية ، وتحشيتها بحواشي دقيقة أوضحت المتن كل الإيضاح ، وهذه الحواشي من الناحية العلمية معين دافق للمتوفرين على التاريخ الحربي ، ومن الناحية الفنية نموذج للراغبين في نشر المخطوطات العربية وإجلائها للباحثين [(١)]

٢- الذيل على الروضتين لأبي شامة :

نشره : السيد عزت العطار الحسيني .

مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، د ط ، **١٩٤٧**م .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، **١٣٦٩**هـ / أكتوبر **١٩٤٩**م (ص **١٦٥- ١٦٨**) .

استهل الدكتور زيادة نقده لهذا المتن المحقق بالقول : إنه سمع بنشر هذا الكتاب ولم تره عيناه في المكتبات التي يرتادها ؛ لأنه نشر بعنوان « **تراجم رجال القرنين السادس والسابع** » ، وهو غير العنوان الذي اختاره له مؤلفه العظيم (**الذيل على الروضتين**) حيث وضعه الناشر في خط صغير لا تدركه العين خلال السطور الأخرى المكتوبة بقلم عريض في صفحة الغلاف ، وتعجب زيادة من فعل المحقق هذا اللون من الإعلان عن كتاب غني بعنوانه الأصلي عما سواه [(٢)] .

---

(١) المرجع نفسه ص **٢٢٤** .

(٢) زيادة : نقده لكتاب الذيل على الروضتين ص **١٦٥** .

ثم وجه مؤرخنا الشكر للناشر على إخراج هذا الكتاب إلى عالم المطبوعات في صورة من الصور ، بعد أن ظل في عالم المخطوطات كالحلقة المفقودة بعيداً عن متناول الباحثين في التاريخ المصري في العصور الوسطى ، إلا الأقلين الذين استطاعوا الاطلاع في مصر على نسختيه الفوتغرافيتين المحفوظتين بدار الكتب آنذاك ، أو نسخته المصورة بمكتبة بلدية الإسكندرية ، ولهذا – كما يقول زيادة– يكاد الشكر على إنتاج هذا الكتاب مطبوعاً يطغى على ما في طبعتـــــه من مآخذ ثلاثة[1] .

أولاهـــا : أن الناشر لم يذكر شيئاً عن طريقته في النشر ، عدا ما أورده في آخر الكتاب من مقابلته النسختين المخطوطتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة بعضهما على بعض ، ومراجعته بعض المواضع في كتاب مرآة الزمان لسبط بن الجوزي ، وربما رضي القارئ الناقد بهذه الإشارة العابرة لو أن الكتاب اشتمل على بضع حواشٍ متنية توضح شيئاً من تلك المقابلة وتلك المراجعة ، أو بضع حواشٍ تفسيرية تنير العبارات والألفاظ الغامضة في المتن ، وهي – كما يقول زيادة – ليست عسيرة التفسير مثل ديوان الأبنية (ص**٢١**) ، وبلاد لاون (ص**١٣**) وغير ذلك من الألفاظ كثير[2] .

ثانيهاً : أن بالكتاب – فضلاً عن صفيف التصحيحات المطبعية الواردة بالصفحة المخصصة لذلك الغرض – أغلاطاً لعلها مطبعية أيضاً[3] .

(**١**) المرجع السابق ص **١٦٥** .

(**٢**) المرجع نفسه ص **١٦٥** ، **١٦٦** .

(**٣**) المرجع ذاته ص **١٦٦** .

ثالثها : أن فهارس الكتاب على ضخامتها وتنوعها لا تفي بأغراض النشر العلمي الحديث ؛ إذ الإشارة إلى الصفحة الواردة بها ترجمة من التراجم لا تكفي للتدليل على ما لصاحب هذه الترجمة من أخبار وعلاقات بالناس في سائر الكتاب ، بل المعروف عند الباحثين أن كثيراً من الحقائق التاريخية الخاصة بالمُترجَم لهم لا توجد في مظانها ومواضعها المنتظرة كالتراجم والوفيات ، ويضيف زيادة ناقداً أنه لا يوجد بالكتاب فهرس للألفاظ الاصطلاحية ، وهي غير قليلة ، وشرحها ليس بالأمر العسير ، مع العلم بأنه ليس بالأمر القليل الفائدة [(١)] .

وختم مؤرخنا حديثه عن هذا الكتاب بأنه ليس من المعتاد في النقد العلمي للكتب أن يفتتح الناقد بتناول المآخذ وإظهار الأخطاء ، ويؤجل تعداد المحاسن إلى آخر ما عنده من مقاله ، لأن ذلك إذا جاء عمداً أخرج النقد عن هدفه وغرضه ، وأردف زيادة ذلك بقوله : إنه لا يريد التنقص ألبتة من قيمة هذا الكتاب، أو من طريقة إخراجه ، بل يريد التنبيه على أخطاء النشر التي يرجع جزء منها على الأقل – في رأي زيادة – إلى تهاون الناسخ لا الناشر [(٢)] .

ونوه مؤرخنا في ختامه هذا بأهمية هذا المصدر ؛ لانفراده بكثير من الأخبار التي أوردها أو شرحها ، كنزول حملتين صليبيتين على رشيد سنتي **٦٠١**و**٦٠٩**هـ / **١٢٠٤** و**١٢١٢**م (ص **٥٠**) ، وأن صلاح الدين كتب إلى ابن عبد المؤمن بشمال أفريقيا يستنجده على الصليبيين ، فلم ينجده لأنه لم يخاطبه في كتابه بلقب

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٧ .

(٢) المرجع ذاته ص ١٦٧ .

أمير المؤمنين (ص ٦٠) ، وغير ذلك من الجديد كثير[١] .

٣- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :

المؤلف : جمال الدين محمد بن واصل ت **٦٩٧**هـ / **١٢٩٧**م .

الجزء الأول ، تحقيق جمال الدين الشيال ،

مطبوعات إحياء التراث القديم ، وزارة المعارف ، القاهرة ، د ط ، **١٣٧٣**هـ / **١٩٥٣**م .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ،**١٣٧١**هـ / **١٩٥١**م (ص**٢٥٢- ٢٥٧**).

استهل الدكتور زيادة مقاله بقصة معرفته وقراءته لهذه المخطوطة في باريس إبّان جمع المادة العلمية لرسالة الدكتوراه ؛ حيث عبر على مفرج الكروب عبور الطالب الذي لم يجد فيه مادة لبحثه آنذاك ، فلم يستمد منه سوى بطاقة لبياناته ، وتوكل على الصدفة أن يرى هذه المخطوطة منشورة ، وعجب لإهمال أجيال المؤرخين لها على الرغم من وجود مخطوطتين منهما في باريس وثالثة بجامعة كمبردج في لندن تلك التي استعان بها عند تحقيقه لكتاب السلوك ، وترجّي أن تلقى دعوته لنشر هذا السفر مجيبًا ذا أهلية علمية كافية ، لاسيما وقد علم بوجود نسخة رابعة للمخطوطة في استانبول[٢].

لقيت دعوة الدكتور زيادة مجيباً من جمال الدين الشيال ، الذي علم بأهمية هذه المخطوطة من أستاذه زيادة أثناء إعداد موضوعه للماجستير سنة **١٣٦٥**هـ /

(**١**) المرجع نفسه ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(**٢**) زيادة : نقده لكتاب مفرج الكروب لابن واصل ص **٢٥٢** ، **٢٥٣** .

١٩٤٥م ، ولما فرغ من مناقشته وشرع في اختيار موضوع لرسالة الدكتوراه انصرف ذهنه إلى مفرج الكروب ، وتمكن من خلاله إعداد أطروحته تحت عنوان « **جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** » وذلك سنة **١٣٦٨**هـ / **١٩٤٨**م ، ثم ولى الدكتور الشيال وجهه صوب تحقيق أمنية أستاذه القديمة ، وهي إعداد متن مفرج الكروب للنشر العلمي ، وتمكن بعد جهد مضن من إخراج الجزءين الأولين منه سنتي **١٣٧٣**و**١٣٧٧**هـ/ **١٩٥٣** و**١٩٥٧**م ، وتلقفهما زيادة وراجعهما له مراجعة دقيقة ، لسابق شغفه بهذا المصدر، مما حدا بالدكتور الشيال إلى توجيه شكره في ختام تصدير كليهما لشيخه الذي كان له الفضل في تعريفه بهذا السفر ، ووالاه بالتشجيع الدائم على العمل ، لإنجاز تحقيق بقية المخطوط(١).

واستهل الدكتور زيادة نقده للجزء الأول من هذا الكتاب بالثناء على الدكتور الشيال الذي توفرت له مؤهلات النشر كلها بعد مران مشهود له فيما قدم للمكتبة العربية من مؤلفات المقريزي الصغرى ، وهو بقيامه على نشر مفرج الكروب جعل المعنيين بالتاريخ المصري في العصـــــور الوسطى مدينين له بدين ضخم (٢).

وأوضح مؤرخنا مدى الجهد الذي بذله الناشر في إخراج هذا المتن من أربع

---

(١) جمال الدين الشيال : مقدمة تحقيقه لكتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت **٦٩٧**هـ / **١٢٩٧**م) **١/٣، ٤ ، ٢٣ ، ٢/** صفحة ش ، بدون بيانات .

(٢) زيادة : نقده لكتاب مفرج الكروب ص **٢٥٢** .

نسخ غير كاملة ، ولكنها تكمل بعضها بعضاً مما تعين معه أن يلجأ الدكتور الشيال إلى عملية إضافية في النشر ، وهي عملية التوفيق والوصل والتعشيق ، مع الحرص على الربط الفني بين قطع المتن ، والدأب على الرجوع إلى المصادر المعاصرة ، إمعاناً في الاطمئنان إلى خروج المتن في صورة مرضية كما تركه ابن واصل ، وبهذا الجهد استحق الناشر الثناء العاطر من شيخه [١] .

وقد حث الدكتور زيادة تلميذه وزميله الدكتور الشيال على مواصلة تحقيق الأجزاء التالية من مفرج الكروب على غرار هذا الجزء الأول من دقة التحرير ، ووضوح الحاشية ، في غير حساب للوقت ، واستدرك أن تنويه المحقق بمراجعة زيادة لهذا الجزء قد يقيد قلمه عن استعراضه أو نقد طريقته في روح موضوعية إلا بمقدار يقصرها على ملحوظاته ، رغبة في إخراج الجزء الثاني شبيها بأخيه الأول ، من حيث الإمعان في التهذيب والترتيب والتحشية ، وهذه الملحوظات هي أن تكون مقدمة الجزء الثاني أبجدية الترتيب حتى لا تختلط أرقام صفحاتها بأرقام صفحات المتن ، وأن تكون الحواشي أكثر قصداً واختصاراً مما هي في بعض صفحات الجزء الأول ، بحيث لا تشغل الحاشية إلا ثلث المتن ، ليظل لهذا الأخير الثلثان ، فيظل المتن واضحاً للقارئ ، كما أنه في استطاعة الناشر أن يوفر جهوده باجتناب الوقوف عند ألفاظ أضحت في مصطلح التاريخ المصري معروفة سهلة الوصول إليها في حواشي المنشورات السابقة ، فتكفي الإشارة إلى مواضع هذه الحواشي ، كما دأب الشيال دأبا حميداً في هذا الجزء الأول ، إلا إذا وجدت لديه معلومات إضافية يقتصر هو على إيرادها في حواشيه ، وينفرد لذلك

---

(١) المرجع السابق ص **٢٥٣** .

بفضل التجديد ، ثم نوه مؤرخنا إلى بعض الأخطاء المطبعية التي لا سبيل لاجتنابها آنذاك في معظم المطبوعات المصريـــــــــة ، والتي كانت من الهفوات المغتفرة[١] .

وأشار الدكتور زيادة إلى أن هذه الملحوظات القليلة ليس فيها ما يستطيع أن يكون مأخذاً على الناشر ، مع العلم بأن في هذا الجزء الأول متناً وحاشية ما هو محمدة له ، ومدرسة لمن يريد دراسة تطبيقية بالمجان في النشر ، مثل إشاراته غير مرة (ص**٢٦ ، ٣٧ ، ٤٠**) عدم استطاعته أن يجد تعريفا لمكان من الأمكنة ، أو تحقيقا لاسم من الأسماء ، أو شرحاً للفظ من الألفاظ ، دون أن يجد غضاضة في ذلك ، لأن المراجع لا تسعف الناشر دائماً ، والمحقق مشكور على هذا النوع من الحاشية ؛ إذ يبرهن بها أن المتن أهم لديه من الحاشية ، والمضي في العمل الشامل خير من الوقوف عند الحذافير المستعصية ، ثم إن الشيال حرص كل الحرص على ذكر المساعدات الفنية التي تلقاها من مختلف الأشخاص ، وهو – كما يقول زيادة – مشكور على هذا النوع من الاعتراف بضرورة التعاون بين القائمين على النشر في البلاد العربية [٢] .

وواصل مؤرخنا مقاله القيم عن مفرج الكروب ببيان مواضع الأهمية في هذا الجزء ، من وقوف ابن واصل في صف كبار المؤرخين المعاصرين له كابن الأثير وابن شداد وابن الجوزي والصفدي ، مع انفراد ابن واصل عن السابقين واللاحقين من هؤلاء وأولئك ، بأن كتابه جاء فيما جاء تاريخاً كاملاً للأيوبيين من

---

(١) المرجع نفسه ص **٢٥٤ ، ٢٥٥** .

(٢) المرجع ذاته ص**٢٥٥ ، ٢٥٦** .

أيوب أبي صلاح الدين إلى أيوب أبي تورنشاه آخر سلاطينهم ، فضلاً عما سبقهم من تاريخ الزنكيين ، أو ما تلاهم من تاريخ المماليك ، والإشارات المتنوعة حول أصول الأيوبيين وجهودهم لإقامة دولتهم ، وصفات صلاح الدين الأيوبي ، وتطور الإقطاع[١] الإسلامي ، وإلى طريق الإغارات على مصـــــــر من ناحية فلسطين[٢].

٤ـ فضائل الشـــام ودمشق :

المؤلف : الربعي .

تحقيق : صلاح الدين المنجد .

مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، **١٣٧٣**هـ/ **١٩٥٢**م .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، **١٣٧١**هـ/ **١٩٥١**م (ص **٢٤٧** – **٢٥١**) .

استهل الدكتور زيادة حديثه عن هذا الكتاب مبينا أهميته لكون مؤلفه أسبق من ابن عساكر بقرن وربع قرن من الزمان ، واعتماد هذا الأخير على أجزاء كبيرة منه ذكرها المحقق (ص٨٣– ٨٨) ، ثم قدم مؤرخنا شكره لمن أسهم في إخراج هذه الكتاب إلى عالم المطبوعات ، كالمجمع العلمي العربي بدمشق ، وكذلك ناشره وشيخه كرد على ، صاحب الكثير من الأفضال التي تنبئ بها جهود تلاميذه ، وتدل عليها مؤلفاته ومصنفاته منذ أوائل القرن العشرين الميلادي [٣] .

---

(١) يتناول الباحث بالتفصيل الحديث عن الإقطاع في المبحث الخامس ص **٢٤٦**– **٢٤٨**

(٢) المرجع الأسبق ص **٢٥٦** ، **٢٥٧** .

(٣) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام ودمشق للربعي ص **٢٤٧** – **٢٤٩** .

ونوه الدكتور زيادة إلى طريقة إخراج هذا الكتاب مطبوعاً من نسخة فريدة مخطوطة ، وذلك بعد أن سلط الناشر على المتن المفرد مقارنة دقيقة بتاريخ دمشق لابن عساكر ، ولكتاب فضائل دمشق للفزاري ، وأولهما مستمد من الربعي أبواباً بحالها في ثنايا كتابه الضخم ، وثانيهما ناقل منه نقلا حرفياً كلياً ما عدا الأسانيد الحديثية ، ولذا جاء المتن – كما يقول زيادة – جلياً ، كأنما استقامت للناشر أكثر من نسخة لمخطوطة الربعي ، وهي طريقة زعيمة بانتباه المتصدرين للنشر العلمي، لأن بعض المخطوطات فريدة فعلاً ، ولا توجد منها سوى نسخة واحدة ، ولا سبيل إلى نشرها إلا بهذه الطريقة أو شبهها ، أو تركها في ثوب المخطوطات أجيالاً أخرى [١] .

وتعد إجازة الدكتور زيادة لنشر هذا النوع من المتون بتلك الطريقة إضافة جديدة لمنهجه العلمي في النشر ، الذي كان يتحفظ فيه على مثله بقوله : « **إن النشر من نسخة واحدة ، بلغت ما بلغت من حسن الصيانة والوضوح والضبط ، عملية غير مأمونة البتة** » [٢] .

وأما حواشي هذا الكتاب فيقول مؤرخنا : إنها جاءت على قدر معلوم ، والناشر ملتزم في الواقع ما رسمه لنفسه من القصد الحميد في غير هذا الكتاب ، إيثاراً منه للمتن أن يشغل دائماً معظم الصفحة ومعظم التفات القارئ ، الذي سوف يرى أن الكتاب كله واضح لا تثقله الحواشي ، ولا تبهظه الشروح ،وهذا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٩ .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب السلوك جزء ٢ ، قسم ١ صفحة هـ .

– كما يقول زيادة – أجود النشر وأحسنه [١].

ولم يستطرد مؤرخنا في ثنائه على الناشر ، حيث استدرك عليه اقتصاده أحياناً في الحواشي إلى مرتبة التقتير ، إذ عبر عدداً من الأسماء الجغرافية والألفاظ اللغوية دون أن يعطيها شيئاً من ضوئه ، ومثال ذلك الطوانة ، العمود المسفط ، الأشبان ... (ص **٣٢** ، **٣٤** ، **٣٥** ، ...) ، ذلك أن القارئ يؤوده الرجوع إلى القاموس كلما تعثر بكلمة ، ويُحمد للناشر دائما توفير ذلك عليه بحاشية توضيحية، تحفظ عليه انصرافه إلى القراءة والإفادة في غير عناء ، ويضيف زيادة : ثم إننا في حاجة إلى تثمير الثروة اللغوية ، بشرح ما نجد من ألفاظ طيبة أضحت غريبة على الناس ، وإلى إشاعة استعمال هذه الألفاظ ، أملاً في سد ما نفتقر إليه من مدارج النهضة من مصطلحات الحياة اليومية [٢] .

وأشاد الدكتور زيادة بفهارس الكتاب التي جاءت عامرة متنوعة ، فضلاً عن فهرس ألفاظ مصطلح الحديث التي أصبحت من مصطلح التاريخ كذلك ، والناشر محمود على إيراد هذا الملحق (ص **٨٩** – **١١٠**) ، لأنه درْسٌ في علم الحديث يلذ للمؤرخ قراءته ، لمعرفة قواعد التحديث ، وطرق التمييز في الأحاديث النبوية بين الصحيح والضعيف والمرفوع ... ، لأن هذه الألفاظ الاصطلاحية هامة في تدريس مناهج البحث في التاريخ أهميتها في علم الحديث ، والمؤرخ – كما يقول زيادة – الذي يستطيع أن يستخدمها في تقويم مراجعه وترتيبها ، ويجعل منها مسباراً لامتحان حقائقه ، هو القمين بصناعة التاريخ ،

---

(١) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص **٢٤٩** .

(٢) المرجع السابق ص **٢٥٠** .

المأمون من القارئين على مقارفتها [١] .

وختم مؤرخنا نقده لكتاب فضائل الشام للربعي بالإشارة إلى ما في العمل من جديد بالنسبة إليه ، مثل الإشارة إلى كعب الأحبار وإسرائيلياته (ص**١٠٩**) وأن بني الأصفر تسمية قديمة للدلالة على ملوك غرب أوربا والبابوية (ص**٧٨**) وهي تسميةٌ شرح القلقشندي أصولها في كتابه صبح الأعشى [٢] .

٥ ـ سيرة الأستاذ جوذر :

تصنيف : أبي علي منصور العزيزي الجوذري .

تقديم وتحقيق : الدكتورين محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادي شعيرة .

دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ط ، **١٣٧٥**هـ/ **١٩٥٥**م .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، **١٣٧٦**هـ/ **١٩٥٦**م (ص **١٧٧** – **١٨٠**) .

استهل الدكتور زيادة عرضه لهذا الكتاب بترحيب المكتبة العربية بهذا النص الخاص بالدولة الفاطمية ، وأيامها الأولى في تونس ، وشكره للناشرين على إخراجه إلى نور المطبوعات ، ونشره نشراً علمياً من نسختين مخطوطتين ، مع تقديمه بمقدمة تعريفية ، وتحشيته بتعليقات توضيحية ، فضلاً عن احتوائه على فهرس أبجدي عام يستطيع القارئ الاستعانة به عند الحاجة العابرة ، مع الإشارة إلى أن القيمة الدفينة في هذا الكتاب لا تظهر إلا بعد قراءته كله في إمعان[٣].

---

(١) المرجع نفسه ص **٢٥٠** .

(٢) المرجع ذاته ص **٢٥٠** ، **٢٥١** .

(٣) زيادة : نقده لكتاب سيرة الأستاذ جوذر ص ١٧٧ .

ونوه مؤرخنا إلى أن عنوان الكتاب لا ينم في الواقع عن محتوياته النادر وجودها في غيره ؛ إذ ليست هذه المحتويات سيرة رجل شهد الدولة الفاطمية منذ أيام نشأتها الأولى على يد عبيد الله المهدي إلى أيام انتقالها إلى مصر أيام المعز، بل هي سلسلة من الرسائل التي تبادلها الخلفاء الفاطميون والأستاذ جوذر في بعض مسائل الحكومة الداخلية والخارجية ، وتستطيع هذه المحتويات أن تسمي تجاوزا سيرة ، من حيث إن المصنف أبي علي الجوزري رتبها ترتيباً تاريخياً ، لتنبئ هي عن شخصية أستاذ فاطمي وأخلاقه ومكانته ، دون أن يعلق عليها ، أو يشرح أسباب كتابتها إلا بقدر ضئيل ، ومن الجديد الذي حواه هذا الكتاب ، الإشارة إلى الأطماع البعيدة للفاطميين للتوسع صوب مكة وبغداد بعد مصر ، وذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأستاذه جوذر ، هذا فضلاً - كما يقول زيادة - عن صفيف زاخر من الألفاظ الاصطلاحية مثل المعتصمين ، ودنانير رباعية (ص٤٣، ٦٠)، وغيرها ، وقيام الناشر بشرحها في آخر كتابه [١].

سادساً : مقتبسات تراثية لزيادة :

وبالإضافة إلى ما سبق من جهود للدكتور زيادة في مجال نشر التراث وتحقيقه ومراجعاته وعرضه ونقده ، فإنه اهتم بنشر مقتبسات من عيون التراث ، ليقف القارئ المتخصص وغيره على نماذج منه ، تكون دافعا للمزيد من القراءة والاطلاع ومنها ما يلي :

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ – ١٨٠ .

١ـ مختارات من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك :

بعد مقدمة ضافية عن المقريزي وسلوكه – ليس مجالها ههنا – دعا الدكتور زيادة القارئ الكريم أن يجد وقتاً لمطالعات كبيرة في السلوك ، ليقرأ منه ما يشاء ملء شهيته وطاقته ، وليلمح بنفسه ما في صفحاته بين لحظة وأخرى من ومضات عابرة من شخصية المقريزي ، أو صرخات صامتة من قلمه القوي ، أو نفحات من روح مؤلفاته المتنوعة ، فإذا لم تسعفه الفرصة لذلك فلا أقل من استعراض صفحات نموذجية مختارة ، لمعرفة ما للمقريزي من قدرات ومهارات في كتابة الأخبار التاريخية ، أو رسم اللوحات القلمية الواصفة لشخصية من الشخصيات الهامة في التاريخ المصري[(١)] ، وربما يكفي الاجتزاء هنا بالصفحات الخاصة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي [(٢)] ، ثم بالصفحات المشتملة على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون [(٣)] من باب الدعوة السريعة إلى القراءة المتئدة الواسعة ، ولأهمية المقتبس الثاني فقد نشره الدكتور زيادة في المجلة التاريخية المصرية بعنوان (حركة البناء والتعمير في عصر الناصر محمد بن قلاوون) [(٤)] .

---

(١) زيادة : السلوك للمقريزي ، سلسلة تراث الإنسانية ٢/ ٥٠٩ – ٥١٥ ، يعرض الدارس لهذه المقالة بالتفصيل في المبحث الرابع الخاص بمؤلفات الدكتور زيادة ص ٢٠٦ – ٢٠٨

(٢) المقريزي : السلوك ١/ ٩٢ – ٩٩ ، زيادة : السلوك للمقريزي ، تراث الإنسانية ٢/ ٥١٥ – ٥١٨ .

(٣) المقريزي : السلوك ٢/ ٥٣٧ – ٥٤٥ ، زيادة : السلوك للمقريزي ، تراث الإنسانية ٢/ ٥١٨ – ٥٢١ .

(٤) المجلد التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٢م ، ص ٢٤١ – ٢٥٠ .

٢- مقتبسات من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس :

شنف الدكتور زيادة الآذان بحديثه الممتع عن ابن إياس وكتابه بدائع الزهور، وختم مقالته بقوله : هنا يقف كاتب هذه السطور نهائياً عن الكتابة ، ليقرأ مع القارئ بضع مقتبسات مختارة من الصفحات المعاصرة من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وكل مقتبس منها لمحة قصيرة لفتح الشهية الفكرية لقراءات طويلة مشبعة من هذه الصفحات ، لا على أنها تاريخ بالمعنى العلمي الحديث لهذا اللفظ ، بل على أنها مجموعة أخبار وحوادث متنوعة لتغذية المشتغلين بالتاريخ المصري على اختلاف طاقاتهم واختصاصاتهم ، والواقع أن هذه الصفحات المعاصرة وأشباهها من محتويات الحوليات حقول دانية للمؤرخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي وغيرهم من أصناف المؤرخين ، ثم نوه الدكتور زيادة إلى أن هذه المقتبسات الخمسة المختارة منقولة بنصها للقارئ من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور[١] ، وقد حوت هذه المقتبسات على ما يلي:

المقتبس الأول : فاتحة أخبار السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغوري[٢].

---

(١) زيادة : بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ٣/ ٢٤٩ – ٢٥٧ ، موسوعة تراث الإنسانية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ، والنشر ، د ط ت ، يعرض الدارس لهذه المقالة في المبحث الرابع الخاص بمؤلفات الدكتور زيادة ص ٢٠٨- ٢١١

(٢) ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/ ٣٠ – ٣٩ ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس دكتور محمد مصطفى صفوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ –٢٠٠٨م ، زيادة : بدائع الزهور ، تراث =

المقتبس الثاني : أخبار أعمال البرتغاليين في المداخل الجنوبية للبحر الأحمر[١].

المقتبس الثالث : وصف هزيمة الجيوش المملوكية في مرج دابق[٢] .

المقتبس الرابع : السلطان قانصوه الغوري في تقدير المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس[٣] . ٢٢٦١٧٦٨

المقتبس الخامس : أسماء المنقولين من القاهرة إلى أستانبول بأمر السلطان سليم الأول العثماني[٤] .

ولأهمية هذه المقتبسات الخمسة فقد نشرها الدكتور زيادة أيضاً في المجلة التاريخية المصرية دون تقديم لها بعنوان (مقتبسات من ابن إياس)[٥].

سابعاً : تقييم لجهود الدكتور زيادة التراثية :

بعد هذا الاستعراض والتناول لجهد الدكتور زيادة في مجال نشر التراث

= الإنسانية ٣/ ٢٥٨ – ٢٦٢ .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ٤/ ١٠٩ ، زيادة : بدائع الزهور ، تراث الإنسانية ٣/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ٥/ ٦٧ – ٧٢ ، زيادة : بدائع الزهور ، تراث الإنسانية ٣/ ٢٦٣ – ٢٦٥ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ٥/ ٨٦ – ٩٢ ، زيادة : بدائع الزهور تراث الإنسانية ٣/ ٢٦٥ – ٢٦٨ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ٥/ ٢٢٨ – ٢٣٢ ، زيادة : بدائع الزهور تراث الإنسانية ٣/ ٢٦٨ – ٢٧٠ .

(٥) المجلد الثاني عشر ، ١٦٩٤ – ١٩٦٥م ، ص ٢٠٣ – ٢٢٩ .

ومراجعاته ونقده ، يطيب للدارس الوقوف هنيهة لعرض بعض السمات المتعلقة بمؤرخنا في هذا المجال ، والتي تجلت في اهتمامه الشديد بالتراث ونشره ، واعتباره الدعامة الأولى للتأليف التاريخي الموثوق به ، ومن ثم انصرفت جهوده منذ نعومة أظفاره في المجال العلمي إلى الإدلاء بشيء في هذا الواجب ، الذي جعله فرضاً للقوّامين على المدرسة التاريخية ينبغي لهم أن يساهموا فيه بنصيب مفروض قبل كل شيء .

وضرب الدكتور زيادة بسهم وافر له في هذا المجال ، جعله مثلاً وقدوة لغيره ، بتحقيقه نصف كتاب السلوك فيما يزيد على ربع قرن من حياته ، مع قيامه على مراجعة وتقويم عشرة متون ، وعرضه ونقده لخمسة أخرى منها ، وهو في كل هذه الأعمال يضيف لبنة من لبنات التراث للمشتغلين به ، ويكشف عن الذخائر الدفينة منه ، لتصير للمؤلفين كالماء الزلال الذي يستقون منه في غير عناء ولا نصب ولا وصب .

ولم يترك الدكتور زيادة ناشري التراث من أترابه وتلاميذه كالغرقى في بحر لجي من إبهام بأصول نشره وقواعده المنهجية العلمية الأصيلة ، بل ترك لهم ولنا مشاعل مضيئة من القواعد الرصينة للنشر العلمي المأمون ، الذي استقاه من شيوخه المستشرقين ، الذين ضربوا لهم بباع في هذا المضمار فكان هو الأوفى حتى عصر زيادة ، الذي زاوج بين هذه القواعد العلمية المنهجية وبين تطبيقه لها في تحقيقه لكتاب السلوك ، فخرج العمل في حلة علمية قشيبة ، تنادى القوّامين على النشر هل من مبتدئ ؟ ، فصاخ لهذه الدعوة ثلة من المعاصرين والتابعين لهم بإحسان ، ممن تشرفوا بمراجعة مؤرخنا لمتونهم المنشورة مراجعة علمية دقيقة ،

حتى فاحت رائحة جهد شيخهم الزكية فيها ، ووضحت لمساته عليها ، فكانت تتويجاً لهم ولها على مدار السنين وتعاقب الأيام .

وأما عن جهود الدكتور زيادة في مجال نقد المتون التاريخية المنشورة فقد كانت هناك ضوابط وقواعد مرعية استقاها الدارس من عرضه لها ، تلك التي تمثلت في موضوعية الدكتور زيادة في نقده ، فكان عف اللسان في حق الناشرين ، وانصرف قلمه لنقد طريقة نشر المتون ، فأشاد بمن برع في عمله ونشره للنصوص بطريقة علمية رصينة ، فأسبغ عليهم الثناء العاطر غير مرة – وهم الأكثر فيما نقده وعرض له زيادة – وإن كان عملهم في النشر من الصنف الآخر تعفف مؤرخنا في نقده ، مبينا مواطن الزلل ، كالاعتماد على مخطوطة واحدة ، أو قلة التحشية في مواضعها ، أو زيادتها في مواطن أخرى ، أو الهنات الكتابية من الناشر أو الطابع ، أو نقص الفهارس .

كما أقر مؤرخنا في نقده المعروض ببعض الطرق والقواعد الجديدة في إخراج بعض المتون من نسخ فريدة ، أو نسخ يكمل بعضها بعضاً ، فكان مرناً في القواعد التي وضعها ، فلم يتقيد بحذافيرها ، بل كان يصطفي من الطرائق ما هو جدير بالقبول فيرتضيه وينوه به ، للمساهمة في إخراج ما تيسر من المتون مما اتصف بهذه الصفات .

وحرص الدكتور زيادة في نقده على أن تسبق إيجابيات النشر سلبياته إلا فيما ندر ، كما اعتاد على أن يتوج ختام نقده ببيان أهمية المخطوطة ، وما أضافته إلى المكتبة التاريخية من جديد في الحقائق ، مع تواضعه الجم بذكر ما تلقفه هو نفسه من هذا الجديد ، الذي لم تكن له به معرفة من ذي قبل ، مع الدعوة في كل مقالة

له إلى أن تمتد أيدي الناشرين لانتشال هذه المخطوطات من بحار الظلمات إلى نور المطبوعات ، لأنها تحتوي على ذخائر دفينة جديرة بالقارئ المتخصص وغيره

وبعد هذا التناول والاستعراض لجهود الدكتور زيادة في مجال خدمة التراث ونشره ، يطيب للدارس أن ينتقل بالقارئ إلى الدعامة الثانية من دعائم النهضة العلمية ، التي توخى الدكتور زيادة تحقيقها ، وتلك هي جهوده في مجال الترجمة ، وهو ما يعرض له الدارس في المبحث الثالث .

المبحث الثالث

إسهامات الدكتور زيادة في الترجمة

كان الدكتور زيادة من رجال الرعيل الأول الذين اضطلعوا بدور كبير في إرساء دعائم النهضة العلمية الحديثة ، وكان إلى جانب توفره على الدراسات التاريخية ذا إلمام دقيق بأسرار اللغتين العربية والإنجليزية ، فكان ذلك عونا كبيراً له على الإسهام بباع كبير في هذا المجال ، لتحقيق نهضة علمية لوطنه مصر[١]

وتمثلت جهوده فى هذا المضمار فيما يلي :

أولاً : ضوابطه لعملية الترجمة :

مثلت الترجمة الركن الثاني من أركان النهضة العلمية في فكر الدكتور زيادة ، ومن ثم جعلها تالية لمرحلة النشر ، وإن شئت فقل : هي صنوٌ لها ، حيث قال : إن المقصود بمدرسة التاريخ في الواقع : مبلغ ما أنتج الجيل الحاضر في ميدان البحث والاستقصاء من نشر وترجمة وتأليف ، مما يدلك على مكانتها من فلسفته وفكره ، حتى أنه جعلها مكملة لمرحلة النشر وتالية لها وسابقة للتأليف [٢] .

والمقصود بحركة الترجمة كما وعاها زيادة ومعاصروه : حركة تطعيم وتلقيح من الثقافة الغربية ، تحمل إلى المصريين غذاءً جديداً ، إذا ما أضيف إلى الغذاء التراثي الأصيل كان له منهما مزيج ، يستطيع المثقف والمؤرخ أن يتمثله ، ليفيد منه القوة والنشاط ، الذي ينعكس بدوره على الكتابات التاريخية المعاصرة[٣].

وحتى لا يبالغ أحدٌ في فهم هذه الدعوة ، وكأنها جنوح إلى الغرب للاستمداد من فكره وتراثه ، والقول بأن مقتضيات الحياة الحديثة تتطلب

---

(١) أمين الشريف : تصديره لموسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر ، جزء ٧ صفحة م .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٨٩ .

(٣) شكري فيصل : حركة الترجمة والنشر ص ١٣٤ .

الاستمداد الثقافي من المؤلفات الغربية الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد ، نفى الدكتور زيادة ذلك بقوله : « **وعندي أنه ينبغي على الشرق .. أن يأخذ من قديم الشرق وحديث الغرب معا على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين من الملائمة والاعتدال** » ويحذر مؤرخنا من المغالاة في الاعتماد على الترجمة لبناء النهضة العلمية المرتجاة بقوله : « **إن القنوع بالاستمداد من المؤلفات الغربية الحديثة ، يجعل البناء الثقافي في الشرق العربي على أساس طارئ عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوي والاجتماعي** »[1].

ولم يجد الدكتور زيادة غضاضة في النقل والترجمة من التراث الغربي ، بعد أن عاين أن معظم أمهات التراث العربي وأشهر المؤلفات في التاريخ المصري قد جاء ثمرة يانعة مما قام به فضلاء المستشرقين ، مما دعاه لأن يطلق زفرة طويلة أعقبها بقوله : « **إنه لمن المخزي حقاً وصراحة أن يسأل سائل عن أحسن ... تأليف محترم في أغلب عصور التاريخ المصري فلا يجده إلا في غير العربية ، ولا يجد من اهتم به وتخصص فيه وعرف خباياه إلا من غير المصريين** »[2].

غير أن مؤرخنا لم يطلق العنان لنفسه أو لغيره للاغتراف من المنبع الغربي وترجمته دون قيود أو شروط في نوعية الكتب المختارة ، والأهداف المرجوة من الترجمة وشروط القائمين بها ، بل وضع لنفسه منهجاً علمياً رصيناً ، ينبغي

---

(١) زيادة : السلوك للمقريزي ، تراث الإنسانية ٢/ ٥٢١ ، نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص ٢٤٨ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

التدرع به قبل ولوج هذا الميدان ، فمن حيث **نوعية المؤلفات الغربية المختارة** ، ينبغي أن تكون من الطراز الأول في التأليف في لغتها ، وذات أسلوب علمي خالص يعتمد على تحليل الوقائع السالفة ، ويبنى عليها حقائق تلتها ، ويستنبط منها وقائع لحقتها ، وأن تعتمد في أسلوبها على المنطق التاريخي ، الذي يكون من حوادثه حلقات متصلة لا شذوذ فيها ولا اضطراب [١] .

ومن ضوابطه كذلك لاختيار الكتب المترجمة أن تكون من المؤلفات الفريدة، التي لم يكن – ولن يكون – باستطاعة أحد – من معاصريها – غير أصحابها الأفذاذ أن يؤلفوها ، وهي الكتب التي بقيت خالدة حافظة لمقامها ومركزها رغم الأبحاث اللاحقة لها ، فهذا وذاك – كما يقول زيادة – هما ما يجب أن تمتد إليه أيدي المترجمين ، بشرط أن تقصر أيديهم على ما سواه مما يمكن الإدلاء فيه بتأليف مقبول [٢] .

وقد انطبقت هذه الصفات والسمات على جل ما ترجمة مؤرخنا وقدمه للمكتبة التاريخية ، فقد كانت هذه الأعمال فريدة في بابها (كتاريخ نابليون لفشر) محافظة على مكانتها رغم تطاول السنين عليها ، حيث طبع بعضها في لغته طبعات متتالية في بضع سنين (كتكوين أوربا لكرستوفر دوسن) ، مما ينبئ عن أهميتها ومكانتها لدى المتخصصين خاصة والمثقفين عامة ، كما كان شطرها الآخر من النوع الموسوعي ذي الأجزاء العديدة (كموسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر) ، والتي ما كانت لتصل ليد القارئ العربي إلا بعد جهود مؤرخنا في ترجمتها ،

---

(١) زيادة : تقديمه لكتاب نابليون (ط١) صفحة أ ، تصديره لكتاب الإقطاع صفحة ك .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة ك .

لتصير مستساغة لقراء العربية في المشرق .

ومن حيث الأهداف المرجوة من الترجمة أولى الدكتور زيادة عنايته عند اختيار الأعمال المترجمة أن تكون الفائدة منها مزدوجة ، بإيجاد مادة علمية تصلح لطلاب التاريخ في الجامعات المصرية آنذاك من جهة ، ومن جهة أخرى أن تكون ترجمة مثل هذه الأعمال دافعاً لإيجاد نموذج طيب لكتاب عربي يحذو حذو المترجم في نفس موضوعه ، أو تطبيق منهج العمل المترجم على التاريخ العربي والإسلامي ، لما بين الشرق والغرب من أوجه التشابه ، خاصة في العصور الوسطى تلك التي برع فيها مؤرخنا(١) كرغبته في أن تكون ترجمة كتاب (تكوين أوربا لكرستوفر دوسن) دافعاً لإيجاد مؤلف عربي شامل يتناول تكوين العالم الإسلامي بنظره شاملة له ، كما فعل (دوسن) في كتابه الغربي .

ومن الأهداف التي توخي زيادة تحقيقها من وراء إثراء المكتبة العربية بمثل هذا الصنف من الأعمال ، تدريب الناشئ في كتابة التاريخ المصري خاصة والإسلامي عامة ، إلى نوعية النثر الفني الذي تتطلبه الكتابة التاريخية ، من تجنب المؤلفين للتفاصيل مع توافرها لديهم من أجل البحث وجمعهم لها قبل الشروع في عملية الكتابة ، ذلك أنه ليس من المطلوب ولا المرغوب في المؤرخ أن يقيد كل حقيقة وجدها ، بل المنتظر منه أن يؤدي ثمرة عمله في عبارات جزلة ، تنضح بما تحتها وبما بين سطورها من حقائق ، يرغب القارئ في معرفتها ، دون أن يرهقه

---

(١) محمد مصطفى زيادة : تصديره لكتاب تكوين أوربا لكرستوفر دوسن صفحة ط ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٧ .

المؤلف بسماع ما لا يريد سماعه ، أو قراءة ما يمل منه [١] ، كما فعل مؤلفاً كتاب (الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا) من صياغة مثل هذا الموضوع الضخم في مثل هذه الصفحات القليلة التي لم تتجاوز مائة وأربعين .

تلك هي أهم الضوابط التي وضعها مؤرخنا زيادة فيما يتعلق بنوعية الكتب المنتقاة للترجمة ، والأهداف المرجوة منها ، **أما من حيث الشروط الواجب توافرها في القوّامين على الترجمة** ، فقد رأى الدكتور زيادة أنه بعد الاستعداد التاريخي – وهو أمر ليس بالقليل – لابد أن يكون الناقل متمكنا من آداب اللغتين ، المنقول منها ، والمنقول إليها ، لتأدية معاني المؤلف في أسلوب يحكي مستواه في أصله ، لأن الأمر ليس مجرد إيجاد مرادف عربي لكلمة إنجليزية والسلام على من اتبع القاموس – كما يقول زيادة - ، وقنع بترجماته الحرفية الضيقة ، بل هو نقل كذلك لطريقة المؤلف في العرض والشرح والتأليف ، الأمر الذي يتطلب أحياناً تطويعاً يقتضيه الحرص على إيضاح العبارة في صورتها الجديدة ، لقارئها الجديد ، لا على حساب الأصل وصاحبه ، بل على حساب المترجم ووقته الثمين [٢] .

ومن هذه الشروط أيضاً ضرورة رجوع المترجم ووقوفه على المصادر الأصيلة التي استقى منها المؤلف كتابه ، لفهم ما انطوى عليه إيجاز الكاتب أحياناً من إشارات عابرة ، وتأديتها هذه في عبارات وتراكيب عربية غير غامضة ، الأمر الذي يترتب عليه إضافة بعض الحواشي التوضيحية ، التي قد تطول أو

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة س .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الأول صفحة هـ ، و .

تقصر ، وتزيد أو تقل ، تبعاً لطبيعة الكتاب المترجم ، ولنوعية المادة التي يعرضها ولثقافة القارئ والمتلقي [١] .

وقد توفرت كل هذه الصفات السابق الإلماع إليها فيمن يقدم على ولوج ميدان الترجمة في الدكتور زيادة ، فإلى جانب توفره على الدراسات التاريخية الرصينة – كما سيرى القارئ في المبحث الرابع – كان ذا إلمام دقيق بأسرار اللغة العربية والإنجليزية لدراسته إياها في انجلترا إبّان مرحلتي الليسانس والدكتوراه ، فكان ذلك له نعم العون في قيامه بالضرب بسهم وافر في هذا المجال ، كما كان يتصف بدقة التفكير ، وسلامة التعبير ، مما انعكس أثره على تراجمه ، فجاءت قطعة بديعة من الأدب والتاريخ الذي لا يدانيه عمل نظرائه[٢]، الأمر الذي حدا بتربه **محمد** [٣]**شفيق غربال** إلى القول عنه : خير من ينقل للغة العربية مؤلفاً في تاريخ العصور الوسطى الغربية ، حيث درسها في موطنها على كبار مؤرخيها .

وأما تلميذ الدكتور زيادة النجيب **سعيد**[٤] **عبد الفتاح عاشور** فقد علق في هذا الصدد على ترجمة شيخه لبعض عيون التراث الغربي بقوله : « **اتصفت هذه الكتب المترجمة بالدقة المتناهية ، وحسن الأسلوب ، وتقريب المعنى إلى فهم القارئ العربي ، حتى لا يكاد يشعر أنها مترجمة ، وذلك لتمكن زيادة من اللغتين**

(١) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الأول صفحة و ، تصديره لكتاب نابليون (ط١) صفحة ب ، تصديره لكتاب التاريخ الإنجليزي لراوس صفحة د ، نقله إلى العربية د/ محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، **١٩٤٦**م .

(٢) أمين الشريف : تقديمه للجزء السابع من موسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر صفحة م ، ن .

(٣) تقديمه للقسم الأول من تاريخ أوربا لفشر صفحة د .

(٤) كلمة تأبين زيادة ص ١١ .

الإنجليزية والعربية تمكناً فائقاً جعله يجيد نقل الأفكار والآراء والمصطلحات من اللغة الإنجليزية ، ويقدمها للقارئ العربي في ثوب سهل ممتع مستساغ ».

وأما التلميذ النابه الآخر الدكتور **إبراهيم**[١] **أحمد العدوي** فقد علق على ترجمة أستاذه لكتاب (تاريخ أوربا لفشر) بقوله : ينهض الجهد الذي بذله الدكتور زيادة في ترجمة هذا القسم من العمل نموذجاً على ما تحلى به سيادته من أمانة صادقة في العمل ، ومواهب نادرة في تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركباً ذلولاً للباحثين والعلماء المعاصرين ، كما أنها تعد سجلاً أميناً لما قدمه مؤرخنا من دراسة ممتازة في ميدان الترجمة ، وتراثاً ثميناً يتركه راضياً مرضياً للعاملين في حقل التاريخ في البلاد العربية .

كما علق الدكتور[٢] **محمود إسماعيل عبد الرازق** - وهو من المتتلمذين على يدي مؤرخنا زيادة إبّان دراسته في مرحلة الليسانس سنة **١٣٨٣**هـ/**١٩٦٣**م - على منهج أستاذه في الترجمة بقوله : تتميز ترجمته بما يعرف بالأسلوب السهل الممتنع ؛ لإحاطته الفائقة باللغتين العربية والإنجليزية ، وهو لا يترجم كلمات بقدر ما يترجم أفكاراً وموضوعات مهضومة بالنسبة إليه ، فيعرف الدلالات الموحية والدقيقة للنص الأصلي ، ولإجادته العربية ينقل المعاني بجودة الحاذق ، وبذلك لا يشعر القارئ أنه أمام كتاب مترجم ، هذا فضلاً عن تعليقاته الضافية الممتعة في الحواشي .

---

(١) تصديره للطبعة الخامسة من القسم الأول لتاريخ أوربا لفشر صفحة ل .

(٢) مقابلتان شفهيتان للباحث معه بمنزله بمدينة المنصورة ، الأولى بتاريخ **٣٠/١٢/٢٠١٠**م الساعة **١-٢** ظهراً ، الثانية بتاريخ **٨/٤/ ٢٠١١**م ، الساعة **٧-٨** مساءاً .

ولم تقف جهود الدكتور زيادة عند بذل الجهد في ترجمة النص الأصلي فحسب ، بل كان يضيف إليه ما يحتاجه العمل من الحواشي الضرورية ، التي لم يخل منها كتاب مترجم له ، فكان يصوب ويعلق ويقارن ، ويوجه القارئ في مثل هذه الحواشي ، كما كان يضيف للعمل المترجم بعض الملاحق الهامة التي تنير الطريق للقارئ ، كالمراجع التي يمكن الرجوع إليها في لغة الكتاب المترجم ، والصور التوضيحية التي تقرب الصورة المكتوبة للمتلقي ، والخرائط الجغرافية التي تبين مواقع الأحداث للقارئ الشرقي ، الذي قد يجهلها ، ناهيك عن الفهارس والكشافات التفصيلية التي كانت مسك الختام في جُل كتبه المترجمة ، والتي يسرت للقارئ الوصول إلى المعلومة المرادة من أيسر الطرق وأسرعها ، كما دأب مؤرخنا في ختام تصديراته للأعمال المترجمة على توجيه الشكر لمعاونيه من تلاميذه وغيرهم ، والتنويه بجهدهم في إخراج العمل إلى النور ، مع دعوته للقراء على عدم البخل عليه بالنقد الهادف ، لاستدراك ما يحتاجه العمل في الطبعات التالية من تعديل أو تصويب أو تغيير بالحذف أو بالإضافة [١] .

وبالرغم من شدة اهتمام الدكتور زيادة بالترجمة كوسيلة لتزويد المكتبة العربية بروائع الفكر الغربي اهتماماً يتجلى في ترجمته ومراجعته لعشرة مؤلفات – بعضها من النوع الموسوعي – ، إلا أنه لم يستغرق في هذه الدعوة طيلة حياته ، بل كانت هذه مرحلة أولى في تفكيره بعد حصوله على الدكتوراه ، وعودته لوطنه وعمله مدرساً في كلية الآداب ، واستمرت معه لمشارف الخمسين من عمره ،

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة س ،ع ، تصديره لكتاب نابليون (ط١) صفحة ب، تصديره للقسم الأول من تاريخ أوربا لفشر صفحة ح –ك ، القسم الثاني صفحة ي .

حيث أدرك أن الجيل الصاعد من المؤرخين قد صارت لديه ذخيرة من المتون المنشورة ، والأعمال المترجمة ، وأنه لابد من ولوج الميدان الثالث للنهضة وهو التأليف ، ومن ثم فقد قرع مؤرخنا آذان معاصريه في منتصف القرن العشرين ، منبها إياهم إلى أنه ليس من المؤمنين بأن ترجمة الكتب التي سبقنا في علومها السابقون هي الوسيلة الوحيدة لتنمية الثقافة والحياة العقلية في الشرق – مع اعترافه وقتذاك سنة **١٣٦٨**هـ / **١٩٤٦**م بأنه ترجم ثلاثة كتب صغيرة إلى العربية ، (نابليون) ، و(التاريخ الإنجليزي) ، و(الإقطاع والعصور الوسطى) وأن عهده بالترجمة يرجع إلى سنة **١٣٤٤**هـ/ **١٩٢٥**م حينما ترجم الكتاب الأول– بل إني أخال أن العمل في مدارج التأليف هو الوسيلة المثلى لبناء الثقافة الحديثة ، ولا بأس من ترجمة الكتب النفيسة التي لا مثيل لها في لغة الضاد [١] .

وهذا ما حرص الدكتور زيادة عليه بعد تلك النصيحة الغالية ، حيث انصرف بجل جهده إلى ميدان التأليف ، فأتحفنا بنتاجه الذي يعرض له الدارس في المبحث الرابع ، كما اهتم اهتماماً بليغا بترجمة الموسوعات الكبرى التي لا نظير لها في العربية ، (كموسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر) ، وأشباهها من (تكوين أوربا لكرستوفر دوسن) ، أو (تراث العصور الوسطى لكرامب وجاكوب) ، وهذا ما يعرض له الباحث في الصفحات التالية :

ثانياً : مترجمات الدكتور زيادة :

ضرب الدكتور زيادة بسهم وافر له في ميدان الترجمة منذ نعومة أظفاره وقبل حصوله على درجة الدكتوراه حيث شرع فور عودته من إنجلترا حاملاً درجة

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة ي ،ك .

الليسانس من جامعة ليفربول سنة **١٣٤٤**هـ/ **١٩٢٥**م في خوض غمار الترجمة لنقل شيء من عيون التراث الغربي التاريخي إلى لغة الضاد وظل اهتمامه بهذه الناحية ممتداً حتى أخريات حياته مع مروره بأطوار عدة في اختيار الموضوعات المترجمة والتدرج من الخاص إلى العام ومن الأصغر إلى الموسوعات ومن أهم إسهاماته في هذا المضمار ترجمة ما يلي :

١- نـابليــون :

المؤلف : هربرت فشر

ترجمة : محمد نوفل ، ومحمد مصطفى زيادة .

الطبعة الأولى : المطبعة الرحمانية بمصر ، ط**١** ، **١٣٤٦**هـ / **١٩٢٧**م .

الطبعة الثانية : دار المعارف ، د ط ، **١٣٧٢**هـ/ **١٩٥٢**م .

هذا الكتاب هو أول مترجمات الدكتور زيادة بالاشتراك مع الأستاذ محمد نوفل سنة **١٣٤٦**هـ / **١٩٢٧**م ، وفق الطبعة الأولى التي أصدراها معاً ، أما الطبعة الثانية فانفرد بتقديمها الدكتور زيادة سنة **١٣٧٢**هـ/ **١٩٥٢**م ، وكلاهما يقع في (**٢٩٨**) مائتين وثمانٍ وتسعين صفحة من القطع المتوسط سبقها التقديم والفهرست بترقيم أبجدي ، ثم خُتم الكتاب بمجموعة من الخرائط وكشاف عام للأعلام والبلـدان.

وقد اشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول ، جاءت عناوينها على النحو التالي :

الأول : نابليون في صباه (ص ١- ١٩) .

الثـانـي : الحملة الإيطالية (ص٣٠- ٦٠) .

الثالث : مصر والشام (ص٦١- ٧٩) .

الرابع: تنظيم فرنسا (ص٨٠- ١٠٧) .

الخامس: مطلع الإمبراطورية (ص١٠٨- ١٣٣) .

السادس : فتوح الإمبراطورية (ص١٣٤- ١٧٤) .

السابع : خصائص الإمبراطورية (ص١٧٥- ١٩١) .

الثامن : الصدمة الأولى (ص١٩٢- ٢١٢) .

التاسع : انهيار البناء (ص٢١٣- ٢٤٤) .

العاشر: الدور الأخير (ص٢٤٥- ٢٧٧) [١].

استهل الدكتور زيادة تقديمه للطبعة الثانية لهذا الكتاب سنة **١٣٧٢**هـ/ **١٩٥٢**م بذكرياته عن ملابسات ترجمته بعد تعيينه مدرساً في المدرسة العباسية الثانوية سنة **١٣٤٤**هـ / **١٩٢٥**م ، ومحاولاته الدَّءوبة لتحقيق نصيحة[٢] أستاذه[٣] الإنجليزي له قبل مغادرته جامعة ليفربول بعد حصوله على درجة الليسانس منها ، بألا يعلوه الصدأ ، وألا يخلط بينه وبين تدريس التاريخ عن طريق الممارسة العملية لما درسه ، والقراءة المتواصلة ، والاحتكاك بسابقيه ممن تعلموا في جامعة ليفربول ، فكان حرص مؤرخنا على وضع تلك النصيحة

---

(١) فشر : نابليون (ط٢) صفحة هـ .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذه النصيحة بالتفصيل في المبحث الأول ص **١٥** ، **١٦** .

(٣) لم يصرح زيادة باسم هذا الأستاذ ، وساق حديثه عنه بصيغة المبني للمجهول ، ويلوح للدارس أنه هو الأستاذ فشر الذي فكر زيادة في تطبيق نصيحته له بترجمة كتابه نابليون موضع الدراسة ، فور استقراره في مدينة الإسكندرية .

مَوْضِع التنفيذ ، بالتقائه بالأستاذ محمد نوفل الذين كان من السابقين في تلقي المعارف من جامعة ليفربول ، فوطد زيادة علاقته به عملا بنصيحة أستاذه الإنجليزي له ، والتي كانت مثاراً للحديث بين الرجلين حول أهميتها ، ومكانة صاحبها ، الذي كان صاحب باع طويل في البحوث العلمية ، وأستاذية جامعية طويلة في غير جلبة أوْ صيت عام ، ثم أثمر الحديث بين زيادة ونوفل إلى اقتراح قيامهما بنقل كتاب من المؤلفات الضرورية لتدريس التاريخ الأوربي الحديث في المدارس المصرية من الإنجليزية إلى العربية ، فرحب كلاهما ، وتلك كانت مولد الفكرة الحميدة في نقل كتاب نابليون لمؤلفه فشر ، أستاذ التاريخ بجامعة شيفيلد ، ثم وزير المعارف في انجلترا ، ثم رئيس كلية باليول بأكسفورد حيث وافته المنية سنة **١٣٥٩**هـ/ **١٩٤٠**م[١].

ولقد كشف الدكتور زيادة النقاب عن أسباب اختياره هذا الكتاب ليكون باكورة أعماله في مجال الترجمة ، لأنه من الكتب التي ألفت عن نابليون بالطريقة العلمية الخالصة . تلك التي تحلل الوقائع السالفة ، وتبني عليها حقائق تلتها ، وتستنبط منها وقائع لحقتها ، وتعتمد في أسلوبها على المنطق التاريخي الذي يكون من حوادثه حلقات متصلة لا شذوذ فيها ولا اضطراب[٢] .

ونوه سيادته بأهمية هذا الكتاب على الرغم من صغر حجمه ، إذ يعتبر فتحاً مبيناً في عالم التأليف ، يقف القارئ في صحائفه المعدودات على تاريخ نابليون

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط٢) صفحة ز ، ح .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط١) صفحة أ .

فتى وشيخاً ، وهو بين هذا وذاك رجل الدنيا وواحدها ، فتقف بذلك على آثاره الجليّة في تاريخ العالم ، وتفهم نفسه الجبارة التي طالما غالبت الحوادث ففازت منها بخير نصيب [١] .

ولفت مؤرخنا الأنظار إلى أن كتابه هذا كان لا يزال – حتى وقته – حافظاً لمركزه العلمي بين الكتب المنقولة أو المؤلفة في موضوعه ؛ لأنه كتب في نغمة موضوعية متوخية تدوين ما لنابليون وما عليه في الهدم والبناء ، وفي الحرب والسياسة من زاوية إنجليزية علمية معتدلة بأسلوب هادئ رزين ، لا يثب ولا يرسب ، ولأن كاتبه ليس من أرباب المؤلفات التي تظهر لتختفي بعد جيل أو أقل من ذلك[٢] .

وعلل الدكتور زيادة سبب اختياره لنابليون دون سواه من أعلام التاريخ الأوربي ، لاعتقاده أن التاريخ الحديث لمصر وبعض بلاد الشرق العربي يبدأ يوم نزول الجيش الفرنسي مدينة الإسكندرية بقيادة نابليون ، ذلك التاريخ الذي أعاد مصر إلى حلبة الصراع بين الدول ، ووصل تاريخها بتاريخ العالم ، وبعث فيها حياة علمية ، تعد – في رأي زيادة – الجذوة الأولى لنهضتها الحديثة[٣] .

ومن دوافع مؤرخنا لترجمة هذا الكتاب أنه شمل حياة نابليون وفرنسا – وناحية من التاريخ المصري كذلك – أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وهي مرحلة – كما يقول زيادة – صاخبة زاخرة بالحوادث الكبرى ، والشخصيات

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط ٢) صفحة ط .

(٣) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط ١) صفحة ب .

اللامعة النَّزور ، وذلك دون أن تكون طريقة عرضه سرداً لقيام فلان وعزل آخر من زعماء السياسة وموظفي الإدارة ، ودون أن يكون أسلوبه لجاجاً بارداً ، أو استطراداً ثقيلاً ، مما لا يرحم القارئ أو وقته أو عقله ، ولا يرحم التاريخ وأهله(١).

وقصد الدكتور زيادة من ترجمة هذا الكتاب تحقيق هدف تربوي تعليمي ، وهو أن يكون بين يدي قراء العربية كتاباً يشرح جزءاً فذاً من تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر ، كي يستعين به طلبة التاريخ – في وقته – على كتابة المقالات التي يكلفونها ، بدلاً من طريقة الاختبار التحريري القديمة التي تحصر المعارف في نقط أشبه بالرموز الرياضية منها بالتحليل المعقول الوافي (٢).

ولقيت الطبعة الأولى من ترجمة كتاب نابليون استحساناً من القراء المتخصصين ، الذين لفتوا أنظار زيادة إلى بعض مواطن النقد في ترجمته ، فدونها زيادة واحتفظ بها خمساً وعشرين سنة ، وأعاد إخراج الكتاب في طبعة ثانية ، فتناوله بكثير من التعديل والتحرير في المتن والحواشي حذفاً وإضافة ، استجابة لنصائح أترابه وقرائه ، وبلغت حواشي الطبعة الثانية من هذا الكتاب مائة وخمسين ، ما بين تفسير لحادثة ، أو تعريف لأشخاص ، أو تحديد لأماكن ، أو إحالة لسابق أو لاحق ، كلها من وضع زيادة ونوفل ، وليس للمؤلف فيها إلا حاشيتين ، كما أضاف المترجمان لهذه الطبعة بعضاً من الصور لصناع الأحداث ، وكذلك الخرائط زيادة عما في الطبعة الأولى ، كما وجه الدكتور زيادة شكره في

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط٢) صفحة ط .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط١) صفحة ب .

ختام الطبعتين لمن عاونه في إخراج هذا العمل إلى النور من تلاميذه أو معاونيه أو مراجعي الطباعة [١] .

٢- التاريخ الإنجليزي : (The spirit of English History)

المؤلف : راوس

ترجمة : محمد مصطفى زيادة .

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، **١٣٦٦**هـ/ **١٩٤٦**م .

يقع هذا الكتاب في (**٢٦٥**) مائتين وخمس وستين صفحة من القطع الصغير ، صدرها الدكتور زيادة بمقدمة قصيرة ، تلاها فهرست للموضوعات ، وخُتم الكتاب بثبت للتواريخ الهامة في تاريخ الإنجليز ، ثم الكشاف العام ، وقد اشتمل هذا العمل على ستة فصول وخاتمة ، جاءت على النحو التالي :

الأول : الجزيرة والسكان (ص١ – ٣٢) .

الثاني : انجلتر في العصور الوسطى (ص٣٣- ٦٧) .

الثالث : الدولة القومية في انجلترا (ص٦٨ – ٩٩) .

الرابع : انجلترا الثائرة (ص١٠٠- ١٣٦) .

الخامس : التجارة والإمبراطورية (ص١٣٧- ١٨٨) .

السادس : انجلترا والانقلاب الصناعي (ص١٨٩- ٢٤٤) [٢] .

استهل الدكتور زيادة تصديره لترجمة هذا الكتاب سنة **١٣٦٦**هـ/ **١٩٤٦**م

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نابليون (ط١) صفحة ب ، (ط٢) صفحة ك .

(٢) راوس : التاريخ الإنجليزي صفحة و ، ز .

ببيان أنه مدين للتاريخ الإنجليزي بدين قديم ، لتتلمذه في مرحلة الليسانس ثم الدكتوراه في جامعة ليفربول الإنجليزية ، وطالما تاقت نفسه إلى توفية هذا الدين بشيء من معدنه ، حتى اقترح عليه بعض الأصدقاء نقل كتاب راوس هذا إلى لغة الضاد ، فرحب مؤرخنا بذلك أيما ترحيب ، رجاء أن تكون هذه الترجمة وفاءً ببعض ذلك الدين حسبما تمنى ، ثم شرع سيادته يعدد الفوائد المرجوة لترجمة مثل هذا الكتاب ، ومنها مساعدة القارئ العربي على الإلمام بتاريخ الإنجليز ، بجعله في متناوله على هذه الصورة الصغيرة ، ليستمد هو منهـا ما يرى من فائدة أو عبرة أو دليل[١] .

ومن مميزات هذا الكتاب – كما يقول زيادة – أنه على صغره حاوٍ لجميع الأركان الرئيسة في تاريخ انجلترا ، ومجموعة الأمم البريطانية ، كما أنه حفل بمعظم ما وصل إليه الباحثون في تاريخ هذا البلد من القيم الكبرى ، مع عناية مؤلِّفه باختيار الآراء الواضحة في كثير من المناسبات ، وهذا كله في أسلوب سهل ممتع ، وطريقة علمية مزاجها حسن التوزيع والتقدير ، وحسن الاختيار العرض، في غير إطالة أو اختصار[٢] .

كما قصد مؤرخنا من ترجمته لمثل هذا العمل تحقيق هدف تربوي وطني ؛ لأن التعريف بتجارب الأمم ركن أساسي في تهذيب الشعوب وتوجيهها إلى أهدافها العليا ، لاسيما وأن مصر وتاريخها – في عصر ترجمة هذا الكتاب – كانت

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب التاريخ الإنجليزي لرواس صفحة ج .

(٢) المرجع السابق صفحة د .

– كما يرى زيادة – بحاجة إلى نماذج تاريخية جديدة ، أو عرض جديد لما يتناقله المصريون عن بريطانيا[١] .

ولفت الدكتور زيادة انتباه القارئ العربي إلى أن مثل هذا الكتاب الصغير المعد للقارئ الإنجليزي وفي تاريخ بريطانيا لا يستقيم نقله بحاله إلى اللغة العربية دون مراعاة لقارئه الجديد ، الأمر الذي تطلب شيئاً من تطويع الأسلوب الأصلي لمستلزمات البيان والإبانة في اللغة العربية ، كما تطلب قليلاً من الإضافة لشرح بعض عبارات رآها المؤلف واضحة في لغته ، ورآها المترجم غير واضحة له بعد ترجمته ، كتلك التي يفترض معرفة القارئ الإنجليزي بها ، مما حدا زيادة على الرجوع كثيراً إلى مؤلفات أعلام المؤرخين الإنجليز مثل (دايفز وترفليان وجرانت روبرتسن) وغيرهم [٢].

٣- الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا :

المؤلفان : كوبلاند ، وفينو جرادوف .

ترجمة : محمد مصطفى زيادة .

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط**٣** ، **١٣٧٨**هـ / **١٩٥٨**م .

هذا الكتاب في الأصل مقالتين لمؤلفين ، الأولى : (عصر الإقطاع والقنية لكوبلاند) ، والثانية : (النظام الإقطاعي لفينو جرادوف) ، وقد ترجم الدكتور زيادة المقالة الأولى سنة **١٣٦٦**هـ / **١٩٤٦**م ، وأعاد طباعتها كرة أخرى سنة **١٣٧٥**هـ/ **١٩٥٥**م ، ثم ضم إليها مقالة فينو جرادوف وأخرجهما في كتاب

---

(١) المرجع نفسه صفحة ج ، د .

(٢) المرجع ذاته صفحة د ، هـ .

واحد سنة **١٣٧٨**هـ/ **١٩٥٨**م ، بلغ عدد صفحاته (**١٤٠**) مائة وأربعين صفحة من القطع الصغير ، صُدِّر بثلاث مقدمات للدكتور زيادة ، وخُتِم العمل ببعض الملاحق كاللوحات الوصفية لبعض نواحي الحيــاة في العصــور الوسطى بغرب أوربا .

استهل الدكتور زيادة تصديره للطبعة الأولى لترجمة مقالة كوبلاند (**عصر الإقطاع والقنية ص٣- ٥٩**) بذكرياته عن هذا الكتاب الصغير ، الذي قرأه إبّان إعداده لرسالة الدكتوراه في جامعة ليفربول ، بإشارة وهدى من مؤلفه وأستاذه كوبلاند ، واعتمد عليه زيادة آنذاك في شرح كثير مما غمض عليه من مظاهر الحياة والنظم الإقطاعية الأوربية ، ثم رجع إليه كرة أخرى عندما انصرف انصرافاً مجزوءاً إلى دراسة التاريخ المصري في العصور الوسطى ، فاستجلى به بعض مظاهر الإقطاع في مصر الإسلامية الوسيطة ، أي زمن الأيوبيين والمماليك(١) .

وكان الدكتور زيادة قد استأذن أستاذه كوبلاند في ترجمة مقالته هذه إلى اللغة العربية ، ليفيد بها تلاميذه مثلما أفاد هو بها نفسه ، فأذن له سنة **١٣٥٠**هـ/ **١٩٣١**م، بيد أن انصراف الدكتور زيادة إلى المحاضرة والتعليم بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول حال دون قيامه بذلك دفعة واحدة ، فنشرها على خمس مقالات في مجلة الثقافة سنة **١٣٦٥**هـ / **١٩٤٥**م ، ثم قام بجمعها في كتاب مستقل في السنة التالية نزولاً على رغبة الكثيرين من أصدقائه وتلاميذه المعنيين بدراسة الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ، وعدل زيادة في ترجمته بعض التعديل الذي دلته عليه المراجعة ، وجعل له قائمة برؤوس الموضوعات التي اشتمل عليها البحث،

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع والعصور الوسطى صفحة ط ، ي .

وأضاف إليه سبع حواشٍ ضرورية للقارئ العربي ، كما ذيله بعدد من أسماء الكتب والصور التوضيحية من مختلف المراجع الخاصة بالعصور الوسطى بغرب أوربا[(١)] .

وأوضح مؤرخنا الأسباب التي دفعته لترجمة هذه المقالة إلى لغة الضاد، ومنها : توجيه التحية والاعتراف بالجميل لأستاذه كوبلاند المعروف بصداقته لتلاميذه المتقدمين والمتأخرين ، بيد أن هذا ليس هو الدافع الأوحد والأهم ، إذ لو كان ذلك كذلك لحيا زيادة أستاذه ببحث من بنات أفكاره ، إظهاراً للجميل في صورة علمية مقنعة ، تنبئ بمقدار تأثره بأستاذه ، لا ببحث ينقله من الإنجليزية إلى العربية ، وهو مربوط إلى عربة مؤلِّفه ، لا يستطيع أن يجمل العبارة إلا حيث أجمل ، أو يفصلها إلا حيث يريد هو التفصيل[(٢)] .

ومن دوافع الدكتور زيادة لترجمة هذه المقالة كونها قطعة من الطراز الأول في التأليف ، إذ تناول فيها مؤلِّفها مرحلة من أصعب المراحل وأشقها في التاريخ كله دون أن يترك صغيرة أو كبيرة في الموضوع إلا عالجها ، ودون أن يُشعر قارئه بشيء سوى أنه يعرض ثمرة دراسة واسعة ، وخبرة تعليمية واضحة ، وأستاذية طويلة ، كل ذلك في أسلوب علمي خالص ، وفي غير زهوٍ أو تشدق ، وفي غير إطالة أو اختصار[(٣)].

وثالث هذه الأسباب أن هذه المقالة من الأعمال الفريدة التي لم يكن ولن يكون – في عصر زيادة – باستطاعة أحد غير أصحابها الأفذاذ أن يؤلفوها ، وهي

---

(١) المرجع السابق صفحة ط ، ي .

(٢) المرجع نفسه صفحة ي .

(٣) المرجع ذاته صفحة ك .

الكتب التي بقيت خالدة حافظة لمقامها ومركزها رغم الأبحاث اللاحقة لها ، فهذا وذاك – كما يقول مؤرخنا – هما ما يجب أن تمتد إليه أيدي المترجمين ، على شرط أن تقصر أيديهم عما سواه ، مما يمكن الإدلاء فيه بتأليف مقبول ، ثم لا يلبث أصحاب تلك الدرجة المقبولة من التأليف أن يحسنوا ويتقنوا ، كما لا يلبث تلاميذهم إلا أن يتبعوهم بإحسان[١] .

ومن الأهداف المرجوة لنقل هذا العمل إلى لغة الضاد التعريف بالعصور الوسطى بغرب أوربا من مرجع مشهود له بالوضوح ، لأن ما وصل لأهل الشرق – في عصر زيادة – عن هذه العصور لا يعدو أن يكون بضع صفحات بالكتب المدرسية المتداولة ، وهذه ما كانت لتفي بحاجة القراء على اختلاف طبقاتهم ، وهي لا تستطيع أن توغل في موضوع من الموضوعات دون أن تخل بمقتضيات التوزيع والتناسب والمستوى الذي تتطلبه الكتب المدرسية ، ثم إنه لا ريب أن نظاماً إقطاعياً تاماً قام بمصر والشام كله في العصور الوسطى ، وأن ذلك النظام صاغته حوادث التاريخ الأيوبي والمملوكي صيغة خاصة ، وأن الكتب التي كانت بأيدي زيادة ومعاصريه في تاريخ الشرق الأدنى لتلك العصور لا تشير إلى شيء من هذا أو ذاك في قليل أو كثير ، فلا أقل إذن من إبراز هذا النموذج الغربي في اللغة العربية ليستفتح به المشتغلون بالتاريخ المصري ، وليسيروا على نحوه سيراً علمياً مأموناً[٢] .

وأوضح مؤرخنا في تصديره لمقالة كوبلاند الحكمة من ترجمة ودراسة تاريخ

---

(١) المرجع ذاته صفحة ك .

(٢) المرجع عينه صفحة ل .

الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى بالنسبة للمواطن الشرقي ، الذي قد يسأل عن فائدة المعرفة بالعصور الوسطى ، والنظام الإقطاعي بمصر والشام في تلك العصور ، وهذا المواطن بحاجة مادية إلى معرفة ما ينفعه في فهم محيطه الحاضر وواجباته ومشكلاته ، وحسبه أن ينصرف إلى حاضره ، ويتفهم عنه تلك الواجبات والمشكلات ، فأجاب زيادة عن ذلك بقوله : إن النظام الإقطاعي والعصور الوسطى الأوربية كلها أصل رئيسي في بناء المدنية الأوربية ودولها الحاضرة ، والمشتغل بالتاريخ الأوربي – دراسة أو تعليماً – لابد له من فهم ذلك الأصل ، ثم إن ذلك النظام الإقطاعي الأوربي حمله الصليبيون معهم من أوربا إلى بلاد الشرق التي حلوا فيها ، وأسسوا بها دولهم منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فصاعداً ، فتأثرت به معظم الأقطار الشرقية بحكم الجيرة زمن الحروب الصليبية ، وانتقلت بعض خصائصه بلفظها ومعناها إلى تلك الأقطار ومنها بقاء مصطلح (الضيعة – الأرض المغلة – وطاحون الضيعة) في قرى لبنان ، كما انتقلت بدورها بعض النظم الإسلامية الوسيطة إلى محيط الصليبيين ، كاستخدام الصليبيين لمنصب الحسبة على غرار ما استخدمه المسلمون في مراقبة الأسواق [١] وغير ذلك من الأسماء والمصطلحات ، ومن ثم فإن المحيط الذي يتقلب فيه المواطن العربي في مصر والشام والعراق لا يعدو أن يكون المحيط القديم الذي عاش فيه آباؤه وأسلافه ، ولا سبيل إلى فهم الحاضر والمعيشة الراضية به إلا بفهم الماضي ، أما القنوع بالحاضر وما فيه وحده فإن معناه ضمناً عدم الاهتمام

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٢٥ – ١٢٩ .

بالمستقبل ، ولا خير في مواطن لا يهتم بمستقبله وبماضيه على السواء[1] .

وأعاد مؤرخنا تصدير الطبعة الثانية من هذه المقالة سنة **١٣٧٥**هـ / **١٩٥٥**م ، ونوه إلى قيامه بشيء من التعديل والإيضاح والمراجعة للطبعة الأولى ، بعد تلقيه ملحوظات من أقرانه وأترابه ، ليس من الشرق فحسب ، بل ومن الغرب المتهمين بأحوال التطور العلمي في الشرق العربي ، وراق لزيادة أن يلقى موضوع مقاله المترجم عناية من القارئ العربي ، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن بمصر حينئذ حركة إفاقة شاملة ، لمعرفة بعض السبل العلمية والوسائل التاريخية لتوضيح أصول التاريخ المصري خاصة والشرق عامة في العصور الوسطى ، وفق منهج استقرائي خالص لوجه المعرفة ، لا العاطفة والذاتية الضيقة الأفق ، كما توسم زيادة أن تكون هذه الطبعة الثانية المنقحة عند المستوى الذي يجعل من هذا الكتاب الصغير وسيلة أكثر وضوحاً لتقريب الجهود في تصوير العصور الوسطى في مصر والشرق عامة ، وختم زيادة تصديره الثاني هذا – بعد ثورة يولية **١٣٧٢**هـ/ **١٩٥٢**م والإطاحة بالنظام الملكي في مصر – بالإشارة إلى أن البقايا الإقطاعية – الملكية – المتوطنة المستعصية في مصر والشرق كله ، تتطلب إزالتها إحساساً تاريخياً بجذور هذه البقايا وفروعها ، ليستطيع المستطيعون اقتلاعها ، ويتسنى لهم بذلك بناء مجتمع حديث سليم[2] .

وجاء تصدير الدكتور زيادة للطبعة الثالثة من مقالة كوبلاند سنة **١٣٧٨**هـ /**١٩٥٨**م ، بعد أن ضم إليها ترجمة مقالة (فينو جرادوف عن النظام الإقطاعي)

---

(١) زيادة :تصديره لكتاب الإقطاع صفحة م ، ن .

(٢) المرجع نفسه صفحة ز ، ح .

، (ص ٦١ – ١٣٣) ويبين سيادة الهدف من هذه المزاوجة بين المقالتين ، ألا وهي تيسير الفرصة للمؤرخ الناشئ في الشرق العربي للاطلاع على طريقة اثنين من كبار المؤرخين في الكتابة في هذا الموضوع الشاسع ، فضلاً عن فرصة البرهنة العملية على أن الموضوع التاريخي الواحد يمكن أن يكون مجالاً لبحوث عدة مؤرخين من زوايا متشابهة أو متباينة ، وتمني زيادة أن لو تمكن في المستقبل من إضافة مقالةٍ ثالثةٍ في الموضوع نفسه ، ووجه زيادة الدعوة للمؤرخين المعنيين بالترجمة ليحذوا حذوه في نقل فصول إلى اللغة العربية من مراجع مختلفة في موضوع تاريخي واحد[١].

ثالثاً : مشاركات زيادة في الترجمة .

بالإضافة إلى جهود الدكتور زيادة في مجال الترجمة منفرداً ، فإنه شارك بعض تلاميذه في نقل بعض عيون التراث الأوربي إلى اللغة العربية ، بيد أن دور هؤلاء المشاركين كان محدوداً للغاية – كما يقول الدكتور سعيد عاشور – لأن زيادة بحكم ما بلغه من نضج علمي وإلمام بقواعد اللغة وأصول الترجمة كان يصحح لهم ما يترجمونه تصحيحاً كاملاً يكاد يصل إلى حد الترجمة الجديدة للمتن الأصلي[٢] وهذه الأعمال ما يلي :

١ـ تاريخ أوربا في العصور الوسطى :

المؤلف : هربرت فشر

قسمان ، ترجمة : الدكاترة محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني ،

(١) المرجع ذاته صفحة هـ .

(٢) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١١ .

وإبراهيم أحمد العدوي في القسم الثاني فقط .

دار المعارف ، مصر ، الطبعة السادسة للقسم الأول والثانيـــة للقسم الثاني ، د ت .

يقع هذا الكتاب في(٥٠٦) خمسمائة وست صفحات من القطع المتوسط ، مجزأة إلى قسمين ، الأول (٢٦٧) مائتان وسبع وستون ، صدر بست مقدمات أبجدية ، أولاها للأستاذ شفيق غربال ، والأخيرة للدكتور إبراهيم أحمد العدوي، وما بينهما للدكتور زيادة ، ثم فهرست للموضوعات والخرائط ، ومتن هذا القسم، الذي تلاه الثاني (ص٢٦٧- ٥٠٦) وصدر بمقدمتين للدكتور زيادة ، سبقهما فهرست الموضوعات والخرائط ، وتلاهما متن الكتاب الذي ذيل بمجموعة من الملاحق لقوائم تاريخية وشجرات للأنساب وأخيراً كشاف عام .

وقد اشتمل هذا السفر على سبعة وعشرين فصلاً ، ستة عشر منها في القسم الأول ، والباقي في القسم الثاني ، وجاءت موضوعاتها على النحو التالي :

الأول : دقلديانوس وقسطنطين (ص ١ - ١٤) .

الثاني : الغزوات الجرمانية (ص١٥- ٤٣) .

الثالث : عصر جستنيان (ص٤٤- ٥٩) .

الرابع : الإسلام (ص٦٠- ٦٩) .

الخامس : دولة الفرنجة (ص٧٠- ١٠٤) .

السادس : الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (ص١٠٥-١١٤) .

السابع : الشماليون (ص ١١٥-١٣٦) .

الثامن : الملوك السكسونيون والفرنكونيون في ألمانيا (ص١٣٧-١٥٨) .

---

(١) فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى القسم الأول صفحة م ، القسم الثاني صفحة م .

وقد صدَّر الأستاذ شفيق غربال الطبعة الأولى من القسم الأول سنة **١٣٧٠**هـ/ **١٩٥٠**م بمقدمة شائقة رائقة ، بين فيها مكانة العصور الوسطى من مؤلف فشر عن تاريخ أوربا ذلك العمل الهام ، الذي قام على ترجمته طائفة من أفاضل المؤرخين المصريين ، الذين بذلوا في هذا السبيل وقتاً ثميناً وجهداً مضنياً ، وما دفعهم إلى ذلك إلا حرصهم على انتفاع أبنائهم الطلاب وسائر أبناء الوطن العربي بثمرة من ثمرات التأليف الأوربي التاريخي ، اعتبرها النقاد تأليفاً من الطراز الأول[١] .

ونوه الأستاذ غربال إلى الصعوبات المشتركات التي تقف في وجه المترجمين لهذا السفر ، ومن أهمها : ضرورة التعبير عن المعاني التاريخية باللغة العربية لجمهرة من القارئين لابد لهم من بذل مجهود خاص لإدراك عالم من المعاني لا تحيط به تجاربهم، ولا يمكنهم أن يتصلوا به إلا عن طريق التصور ، وطريق التقريب بينه وبين العالم الذي يعيشون فيه ، وقد يظن ظان – كما يقول غربال – أن الأمر أمر إيجاد مصطلحات ، ولكن في الواقع ربما كان شأن المصطلحات أهون ما في المسألة كلها ، والشيء الأساسي هو تصوير المعاني[٢] .

وأضاف هذا المؤرخ أن هذه الصعوبة عامة في معالجة الأجزاء كلها ، ولكنها تنطبق بصفة خاصة على الجزء الثاني – موضع الدراسة – لاختصاصه بالعصور الوسطى الأوربية وحضارتها المسيحية الغربية ، وذكر – على سبيل المثال –

---

(١) محمد شفيق غربال : تقديمه لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر ، القسم الأول صفحة ج .

(٢) المرجع السابق صفحة ج .

الفكرة الإقطاعية كلها ، أو فكرة السلطان الديني والسلطان المدني ... ، وقد يقول قائل : وكيف يصعب التعبير عن هذه الأفكار للقارئ المصري وفي تاريخ بلاده أشياء من الفكرة الإقطاعية وأشياء من فكرة السلطان ؟ فأجاب غربال بأن هذا بالضبط هو منشأ الصعوبة ؛ لأن الشبه الظاهر يخدع ويستلزم من القارئ أن يتخلى عما يعرف قبل أن يتلقى ما لا يعرف ، كما أنه يستلزم من المترجم أن يعرف الناحية الأوربية على وجهها والناحية المصرية على وجهها ، وبهذه المعرفة يتيسر له أن يهدي قارئه سواء السبيل (١) .

وأوضح الأستاذ غربال أن زيادة هو من اضطلع بنقل هذا الجزء من الكتاب، وهو خير من ينقل للغة العربية مؤلفاً في تاريخ العصور الوسطى الغربية؛ إذ درسها في موطنها على كبار مؤرخيها ، ثم كان بحثه الخاص في المواضع التي تلاقت فيها الحضارات الأوربية والإسلامية ، ثم انهماكه سنوات عديدة في نشر مؤلف أساسي للتاريخ المصري – كتاب السلوك – في العصور المقابلة لتلك العصور الأوربية ، ناهيك عن معالجته تعليم هذا الفرع من التاريخ في المعاهد والجامعات ، ثم هو بعد يعاونه في الترجمة تلميذه السيد الباز العريني معلم التاريخ بالمدارس الثانوية وقتذاك (٢) .

وأما الدكتور زيادة فقد استهل تصديره للطبعة الأولى من القسم الأول سنة **١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م** ، بالحديث عن أمنيته السالفة بإخراج مثل هذا الكتاب تأليفا خالصا في اللغة العربية من مختلف المراجع الميسورة في مصر ، لا نقلا وترجمة من

---

(١) المرجع نفسه صفحة ج ، د .

(٢) المرجع ذاته صفحة د .

اللغة الإنجليزية فحسب ، لإحساسه بالظمأ الشديد إلى ذلك الكتاب في عقول الطلاب جيلا بعد جيل ، منذ قيامه بتدريس مواد العصور الوسطى الغربية والشرقية بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ولما أعيت أوقات الفراغ الدكتور زيادة ، وأعوزته الحيلة في التوفر رأي اختصاراً للطريق وإرواءً لهذا الظمأ الشديد نقل كتاب من الكتب الشهيرة في تاريخ العصور الوسطى من اللغة الإنجليزية إلى لغة الضاد وهي كتب غير قليلة[1] .

ولم يكن يدور بخلد مؤرخنا حينئذ – سنة **١٣٦٤**هـ/ **١٩٤٤**م – أنه سوف يصدف عن منشودة إلى طريق غير مختصر ، وأنه سوف يختار – مع جمعية التاريخ الحديث – كتابا بقلم علم من أعلام المؤرخين الإنجليز ذي أسلوب سهل ممتع رفيع وعمق غير عادي في الكتابة التاريخية ، وتخريج غير مسبوق إليه في الكتب المعروفة ، وربط بين الحوادث لا يطيقه إلا أصحاب القراءة الواسعة في تجارب الأمم ، وهذا وذاك فضلا عن إيجاز ليس من السهل محاكته في اللغة العربية ، لقلة المادة التي يستطيع الناقل أن يفترض وجودها لدى القارئ العربي في كتب سابقة؛ فضلا عن اختلاف القيم والمعاني والمصطلحات بين التاريخ الأوربي والتاريخ الشرقي المصري في العصور الوسطى[2] .

ولفت الدكتور زيادة أنظار القراء إلى أن نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية يتطلب صفات ومؤهلات ليس مؤكداً أنه مطوق بها كما يشتهي – وهذا من

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى لفشر، القسم الأول ، صفحة هـ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

تواضعه الجم – وأهمها عنده بالإضافة إلى الاستعداد التاريخي – وهو شيء ليس بالقليل – أن يكون الناقل متمكنا من آداب اللغتين المنقول منها والمنقول إليها ، لتأدية معاني المؤلف في أسلوب يحكي مستواه في أصله ؛ لأن الأمر ليس إيجاد مرادف عربي لكلمة إنجليزية والسلام على من اتبع القاموس وقنع بترجماته الحرفية الضيقة ، بل هو نقل كذلك لطريقة المؤلف في العرض والشرح والتأليف ولذا تطلب النقل من الإنجليزية إلى العربية في هذا الكتاب تطويعا اقتضاه الحرص على إيضاح العبارة في صورتها الجديدة لقارئها الجديد ، لا على حساب الأصل وصاحبه ، بل على حساب الناقل وشريكه وأوقاتهما الضنينة من الفراغ [١].

ثم شرع مؤرخنا في بيان جهوده المبذولة فوق الترجمة ، ومنها الرجوع إلى مختلف المراجع الكبيرة في العصور الوسطى ، لفهم ما انطوى عليه إيجاز المؤلف أحياناً كثيرة من إشارات عابرة ، وتأدية هذه في عبارات عربية غير غامضة ، مع الاستعانة ببعض الحواشي القصيرة التي بلغت في القسمين(**٢٤٣**) مائتين وثلاثاً وأربعين حاشية ، ولم يعمد الدكتور زيادة إلى ذكر هذه المراجع أو تعيين المواضع التي استقى منها مادة حواشيه ؛ لأنها كلها – كما يقول – مراجع ومواضع معروفة للدارس بتاريخ العصور الوسطى الغربية والشرقية في شيء من التفصيل [٢] .

وهذا السفر يشتمل القسم الأول منه على معالم التاريخ الأوربي ، منذ أيام

---

(١) المرجع نفسه صفحة هـ ، و .

(٢) المرجع عينه صفحة و .

سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة أواخر القرن الخامس الميلادي إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هي التي يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوربي في العصور الوسطى الأولى ، تمييزاً إليها من مرحلة ثانية نهائية لتلك العصور نفسها، والمحصورة من أواسط القرن الثالث عشر الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وهي موضوع القسم الثاني من هذا الكتاب[١] .

ونوه الدكتور زيادة في تصديره إلى المنظور التاريخي لمؤلف هذا الكتاب ، الذي يرى فيه القارئ عرضا تاريخياً لأوربا العصور الوسطى على أنها وحدة حضارية متجانسة ، فيها من الخير والشر والقابلية في الناحيتين ما هو أصل من أصول الحضارة الأوربية في القرن العشرين الميلادي ، كما يرى القارئ أن المؤلف أطل على موضوعه من شباك أوربي واسع عظيم الارتفاع ، وأنه استطاع أن يصور المنظور التاريخي الأوربي الغربي في العصور الوسطى أعدل تصوير ، فعالج ظهور الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية الأولى مثلا على مقياس غير مقياس معالجة الدولة الجرمانية ، واجتزأ من تاريخ الدولة البيزنطية المديد وآثاره البعيدة في الشرق والغرب بموقعها العدائي من الصليبيين ، وهم في طريقهم من مختلف البلاد الأوربية إلى الشام ، واعتبر تاريخ أسبانيا العصور الوسطى تاريخا لحركة المقاومة المسيحية ، وهي الحركة التي أسفرت عن إخراج المسلمين نهائيا

---

(١) المرجع ذاته صفحة ك .

من أوربا ، وفي المقابل أوسع المؤلف لتاريخ البابوية ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأعطى لكل من فرنسا وإنجلترا ما يكفل بيان أهميتهما في تلك العصور ، ومدد في النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ، ليبين منه بعض جذور النهضة الأوربية الكبرى مطلع العصور الحديثة وما كان له أن يعمل غير هذا احتراما لقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز في شرح أركان التاريخ الأوربي الغربي في العصور الوسطى [١] .

وختم مؤرخنا تصديره للطبعة الأولى من هذا القسم بالتماس العذر لنفسه في التزامه بالتوزيع والتنسيق الذي أراده المؤلف ؛ لأن المترجم لا يستطيع إلا أن يظل مرتبطا لتنسيق المؤلف وتوزيعه وتركيزه ، فضلا عن طريقته وأسلوبه ، وهذا الارتباط – في نظر الدكتور زيادة – هو أكبر صعوبات النقل والترجمة [٢] .

وأما القسم الثاني من هذا السفر فقد حوى – كما يقول الدكتور زيادة – فصلا يجمع الشاعر الإيطالي دانتي وتوما الأكويني فيلسوف المسيحية في العصور الوسطى ، وفصلا آخر عنوانه حرب المائة عام ، وهي الحرب التي تدل حوادثها على قديم استماتة الإنجليز في احتلال بلاد غير بلادهم ، لولا نهضة الفتاة الفرنسية جان دارك لإجلاء الجيوش الإنجليزية عن أرض فرنسا ، على أن هزيمة الإنجليز في هذه الحرب لم تعلمهم شيئا سوى انتظار الفرص المستقبلة للتملك على ما ليس للأمة الإنجليزية من أراضي القارات الخمس منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى منتصف القرن العشرين ، وفي الفصل الذي عنوانه الناقدون

---

(١) المرجع نفسه صفحة و ، ز .

(٢) المرجع ذاته صفحة ز .

والمصلحون إشارات واضحة إلى مطالع الإصلاح الديني المسيحي أواخر العصور الوسطى ، وهي المطالع التي بشرت بالإصلاح البروتستانتي في غرب أوربا ، كما بشرت بالقومية في مختلف الأقاليم الأوربية ، ويلي ذلك فصل أسبانيا العصور الوسطى حين بدت الأندلس الإسلامية منبع المعرفة والحضارة الزاهرة، وهو فصل طافح بالحروب بين القومية الأسبانية المسيحية والمسلمين ، ومن هذه الحروب تفرعت فكرة الحروب الصليبية العامة ، وفي الفصل الذي عنوانه روسيا العصور الوسطى ألم المؤلف بجميع الأصول البشرية التي دخلت في تكوين أمة الروسيين ، كما شرح أصول سياستهم الدينية المسيحية بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين ، ثم جعل المؤلف من نشأة الدولة العثمانية واستيلائها على العاصمة البيزنطية فصل الخاتمة للعصور الوسطى ، وأعقب هذا الفصل ببضع صفحات دالة على الآفاق الجديدة التي أشرقت منها العصور الحديثة[١] .

ولم ينس الدكتور زيادة في ختام تصدير كل طبعة من طبعات الكتاب بقسميه التنويه بقيامه بإدخال بعض التعديلات في المتن والحاشية بالإضافة أو الحذف أو التقويم ، استجابة لنصائح القراء من المتخصصين من تلاميذه وأقرانه وأترابه، وكذلك توجيه الشكر لكل من عاونه في إخراج القسمين عقب كل طبعة منهما .

٢- تكوين أوربا **(The Making of Europe)**

المؤلف : كرستوفر دوسن .

ترجمة ومراجعة : د/محمد مصطفى زيادة ، ود/ سعيد عبد الفتاح عاشور .

مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، **١٣٨٧**هـ/ **١٩٦٧**م .

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى ، القسم الثاني صفحة ح ، ط .

يقع هذا الكتاب في (٣٩١) ثلاثمائة وإحدى وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، صدَّره المترجمان بمقدمة أبجدية قصيرة ، سبقها فهرست بمحتواه ، وتلاها تعريف ببعض الصور الملحقة به ، ثم مقدمة طويلة لمؤلفه ، وختم بفهرس أبجدي عام ، وأربع خرائط كبيرة .

واشتمل هذا العمل على أربعة عشر فصلاً في ثلاثة أقسام رئيسة ، تلتها خاتمة للمؤلف على النحو التالي :

القسم الأول : عناصر تكوين أوربا .

الفصل الأول : الإمبراطورية الرومانية (ص ١- ٢٧) .

الفصل الثاني : الكنيسة الكاثوليكية (ص٢٩- ٥٦) .

الفصل الثالث: التراث الكلاسيكي والديانة المسيحية (ص٥٧- ٨٠) .

الفصل الرابع: الجرمان (ص٨١- ٩٥) .

الفصل الخامس: غزوات الجرمان وسقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا (ص٩٧- ١٢٢) .

القسم الثاني : سيادة الشرق :

الفصل السادس : الإمبراطورية المسيحية ونشأة الحضارة البيزنطية (ص ١٢٥- ١٤٧) .

الفصل السابع : اليقظة الشرقية وثورة الشعوب الخاضعة (ص ١٤٩- ١٦٢) .

الفصل الثامن : ظهور الإسلام (ص١٦٣- ١٧٨) .

الفصل التاسع : انتشار الحضارة الإسلامية (ص١٧٩- ٢٠٣) .

العاشر : النهضة البيزنطية وإحياء الإمبراطورية الرومانية الشرقية (ص**٢٠٥ – ٢٢٥**) .

القسم الثالث : تكوين الدولة المسيحية في غرب أوربا .

الفصل الحادي عشر : الكنيسة الغربية ودخول المسيحية إلى غرب أوربا (ص**٢٢٩- ٢٦٢**) .

الفصل الثاني عشر : إحياء الإمبراطورية الغربية والنهضة الكارولنجية في غرب أوربا (ص**٢٦٣- ٢٨٩**) .

الفصل الثالث عشر : عصر الفيكنج ودخول المسيحية إلى بلاد الشمال الأوربي (ص**٢٩١- ٣٢٠**) .

الفصل الرابع عشر : ظهور الوحدة الأوربية في العصور الوسطى (ص**٣٢١ – ٣٦٠**) .

خاتمة : (ص **٣٧٣ – ٣٩١**)[١].

– استهل المترجمان هذا الكتاب بمقدمة سنة **١٣٨٧**هـ/ **١٩٦٧**م ، أوضحا فيها أن فكرة ترجمته قد نشأت بينهما قبل عشر سنوات بعد أن وصل الكتاب إلى طبعته السادسة في الإنجليزية في سبع سنوات قصيرة ، ومنشأ هذه الفكرة رغبة خالصة من المترجمين في تأدية خدمة صغيرة لتحقيق هدفين ثقافيين كبيرين :

أولهما: إيجاد مادة عربية جديدة لتدريس مطالع العصور الوسطى الأوربية من ظواهرها الحضارية ، بالإضافة إلى تدريسها التقليدي من الحقائق التاريخية

---

(١) كرستوفر دوسن : تكوين أوربا صفحة هـ ، و .

المرصوصة في الكتب المتداولة [١] .

وثاني هذين الغرضين الثقافيين الكبيرين : إيجاد نموذج طيب لكتاب عربي ، يكون عنوانه وموضوعه كذلك تكوين الشرق الأوسط في صدر الإسلام ، ويكون هدفه إبراز البرهان من طريق الظواهر الحضارية الشرقية وغيرها على ما بهذا الشرق الأوسط من وحدة حضارية متكاملة متنوعة الأجزاء ، بالإضافة إلى وحدته الجغرافية الطبيعية ، مثلما فعل كرستوفر دوسن في كتابه [٢] .

وبعد أن أجال المترجمان نظرهما في محتوى الكتاب الأوربي وصفحاته وفصوله وعناوينها وحواشيه التي بلغت مائة وثلاث وتسعون جلها من وضع المؤلف وقليلاً منها من وضع المترجمين ، وصوره التوضيحية ، وتعريفاتها وشروحها ، فإذا هما أمام عمل في جملته وتفصيله كتاب مبتكر نابع من مجموعة بحوث طويلة قام بها أعلام من الباحثين الأوربيين ، لبحث نواحي حضارية محلية من التاريخ الأوربي ، وقام مؤلف هذا الكتاب هنا بدراسة هذه البحوث ، وإخراجها في تأليف واحد ، للتدليل على حقيقة الوحدة الأوربية الحضارية عبر التاريخ [٣] .

وتقديراً من المترجمين لما في الكتاب من معارف دقيقة ، وبحوث موضوعية مترامية في أعماق التاريخ الأوربي ، فضلاً عما فيها من منهجية عقلية فيها منافع للراغب في الكتابة في الأصول الحضارية للتاريخ الإسلامي على مستوى القمة

---

(١) زيادة وعاشور : تصدير كتاب تكوين أوربا لكرستوفر دوسن صفحة ط .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) المرجع نفسه صفحة ط ، ي .

العلمية التي يتبوأها هذا الكتاب ، رأى المترجمان أن يكون عملهما في الترجمة إلى اللغة العربية على قاعدة مستمرة من المشاركة التامة في الترجمة والمراجعة ، آملين أن تجد فكرتهما المزدوجة المكافأة المنشودة ، وأن تثمر ثمرتها الطيبة سواء في إيجاد مادة إضافية لتدريس مطالع العصور الوسطى الأوربية بالجامعات العربية بالشرق كله ، أو لتأليف تاريخ حضاري لهذا الشرق الأوسط العظيم في صدر الإسلام[١] .

رابعاً : مراجعات الدكتور زيادة لأعمال مترجمة :

بالإضافة إلى الترجمة المنفردة التي قام بها الدكتور زيادة والمشاركة مع غيره في نقل عيون من التراث الأوربي الحديث إلى اللغة العربية ، أسهم كذلك في تقويم تراجم مؤلفات أخرى ، وبذل في هذه المراجعة من الجهد ما جعل روحه وأسلوبه تغلب على طابع الترجمة ، حتى يكاد يحسب القارئ أن الدكتور زيادة هو المترجم والمراجع معاً[٢] وأشهر هذه الأعمال ما يلي :

١- العرب في سوريا قبل الإسلام :

(Lesarabes En syrie Avanti, IsLam)

المؤلف : رنيه ديسو

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي .

مراجعة : د/ محمد مصطفى زيادة .

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ت .

يقع هذا الكتاب في(١٦٣) مائة وثلاث وستين صفحة من القطع المتوسط،

---

(١) المرجع ذاته صفحة ي .

(٢) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١١ .

صدره مؤلفه بمقدمة قصيرة لم تتجاوز نصف صفحة ، تحدث فيها عن ملابسات قيامه بهذا العمل ، بعد أن طلب منه أستاذه كليرمون جانو أن يحل محله في كرسي (**دراسة النقوش والآثار السامية**) بالكوليج دي فرانس خلال الستة شهور الأولى من العام الدراسي **١٣٢٣-١٣٢٤**هـ / **١٩٠٥- ١٩٠٦**م ، لانشغاله بأعمال أخرى عاجلة ، فقام المؤلف رنيه ديسو باستغلال هذه المناسبة لحل الرموز وتفسير النقوش الصفوية ، ودراسة المعلومات الجديدة التي تمده بها هذه النقوش في تاريخ تسرب العناصر العربية إلى سوريا قبل الإسلام [١] .

ومما يلفت نظر الدارس في هذا الكتاب أنه لم ترد فيه مقدمة للمترجم أو للمراجع الدكتور زيادة ، كما أن هذا المُؤلَّف يندرج تحت تخصص التاريخ القديم ، ومراجعة زيادة لترجمته تنبئ عن تنوُّع ثقافاته وعلومه ومعارفه ؛ إذ لم تقتصر كما يبدو للوهلة الأولى على التاريخ الوسيط بشقيه الأوربي والإسلامي ، بل تجاوزت ذلك إلى سابقيه ولاحقيه ، كما يبدو من هذه المراجعة المنظورة للقارئ . وكيفما كان الأمر فقد اشتمل هذا الكتاب على سبعة فصول جاءت على النحو التالي :

الأول : بادية الشام (ص **١- ٢٣**) .

الثاني : الأعراف السورية والفن العربي قبل الإسلام **٢٤- ٥٤** .

الثالث : الكتابات السامية الجنوبية (ص**٥٥- ٨٥**) .

الرابع : اللهجة الصفوية (ص**٨٦ – ١٠٨**) .

---

(١) ديسو رنية : مقدمة كتاب العرب في سوريا صفحة أ .

الخامس : كعبة الآلهة عند الصفويين (ص١٠٩ - ١٣١) .

السادس : آلهة الصفويين (تابع) (ص ١٣٢ - ١٤٨) .

السابع : الاندماج النهائي للصفويين (ص١٤٩ - ١٦٣) .

٢- أطلس التاريخ الإسلامي :

تصنيف : هاري . و. ها زارد .

رسم خرائط : سميلي وكوك .

ترجمة وتحقيق : إبراهيم زكي خورشيد .

مراجعة : د/ محمد مصطفى زيادة .

تقديم : محمد عوض محمد .

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ت .

يقع هذا الأطلس في (٥٤) أربع وخمسين لوحة من القطع الكبير المزدوج ، وقدم له محمد عوض في صفحة واحدة ، تلتها أخرى لحسن جلال العروسي بعنوان تقدير ووفاء وشكر ، ثم صفحة الفهرست ، وجاءت خرائط هذا الأطلس ما بين صفحتي (٣- ٤٣) على طريقة تخصيص صفحة للخريطة وأخرى مقابلة تابعة لها ، لشرح ما ورد فيها من حقائق وتفاصيل ، وختم الأطلس بجداول لتحويل السنين من الميلادي إلى الهجري ثم فهرست للأماكن .

أما مقدمة محمد عوض محمد للأطلس ، فتحدث فيها عن ظهور الإسلام ، وانتشاره على بقعة كبيرة من قارات العالم القديم ، ثم انحسار نفوذه السياسي والديني عن بعض البلدان ، وهو ما يدرسه الباحثون ويحتاجون إلى تصوره عن طريق الخرائط الدقيقة الموثوق بها ، التي تباري الكثيرون في وضعها ، بيد أن هذا

الأطلس موضع الدراسة قد نال حظاً كبيراً من بينها ؛ لجمعه مصورات عن أنحاء العالم الإسلامي منذ قيامه وحتى مطلع القرن العشرين الميلادي ، مع الدقة المتناهية ، وتأصيل معلوماته من المصادر الإسلامية المتنوعة [١] .

وأما الأستاذ حسن جلال العروسي فقد تحدث عن ظهور الطبعة الأولى الإنجليزية لهذا الأطلس سنة **١٣٧١**هـ/ **١٩٥١**م ، وتوالي طبعه في لغات أخرى غير الإنجليزية ومنها العربية ، نظراً لحاجة القارئ الأمريكي الشغوف بالدراسات الإسلامية إلى مرجع مصور جامع في متناول العلماء والطلاب على السواء ، فكان مشروع ترجمة هذا الأطلس إلى العربية بالتعاون مع جامعة برنستون الأمريكية بإيعاز من المؤرخ اللبناني فليب حتى ، لاسيما وأن مصنف هذا الأطلس هاري هازارد من طلاب المؤرخ اللبناني ، وعنه أخذ اهتمامه بالشئون العربية والإسلامية ، ونوه العروسي في تقديمه هذا بكل من أسهم في إخراج هذا العمل إلى لغة الضاد ، وكان منهم محقق الأطلس والدكتور زيادة الذي تفضل بمراجعة الترجمة ، وبذل في ذلك جهداً مشكوراً [٢] .

٣- تراث العصور الوسطى :

(The Legacy of the Middle Ages)

المحرران : كرامب وجاكوب .

ترجمة : مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية .

مراجعة : د/ محمد مصطفى زيادة ، ومحمد بدران .

---

(١) محمد عوض محمد : تقديمه لأطلس التاريخ الإسلامي ص ١ .

(٢) حسن جلال العروسي : تصديره لأطلس التاريخ الإسلامي ص ٢ .

مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، **١٣٨٥**هـ/ **١٩٦٥**م .

يقع هذا الكتاب في **(٧٥٤)** سبعمائة وأربع وخمسين صفحة من القطع المتوسط في جزءين ، صُدِّرَ الأول منهما بمقدمة للمحررين ، واستهل الثاني بكلمة للدكتور زيادة ، كما ختم هذا السفر بفهرس أبجدي عام ، واشتمل على خمسة عشر فصلاً ، ترجمها نخبة من أساتذة الجامعات المصرية ، وراجع مؤرخنا منها اثنى عشر فصلاً ، وباقيها راجعه محمد بدران ، وجاءت هذه الفصول على النحو التالي :

الجزء الأول .

الأول : الحياة المسيحية (ص**٣٥- ٨٢**) .

الثاني : العمارة في العصور الوسطى (ص**٨٣- ١٣٦**) .

الثالث : فن النحت في العصور الوسطى (ص**١٣٧- ١٧٨**) .

الرابع : الفنون الزخرفية والصناعية (ص**١٧٩- ٢١٢**) .

الخامس : الأدب (ص**٢١٣- ٢٨٠**) .

السادس : الخط (ص**٢٨١- ٣٢٠**) .

السابع : الفلسفة (ص**٣٢١- ٣٥٨**) .

الثامن : التربية (ص**٣٥٩- ٤٠٦**) .

الجزء الثاني

التاسع : قوانين العرف والعادة (ص**٤٠٧- ٤٥٢**) .

العاشر : القانون الكنسي (ص**٤٥٣- ٥٠٧**) .

الحادي عشر : القانون الروماني (ص**٥٠٩- ٥٦٢**) .

الثاني عشر : مركز المرأة في العصور الوسطى (ص**٥٦٣- ٦٠٩**) .

الثالث عشر : الحركة الاقتصادية في مدن العصور الوسطى

(ص**٦٥١- ٧٠٣**)

الرابع عشر : السلطة الملكية وشئون الحكم والإدارة(ص **٦١١-٦٥٠**) .

الخامس عشر : الفكر السياسي . (ص**٧٠٥- ٧٤٢**) .

جاء تقديم الدكتور زيادة للترجمة العربية لهذا السفر في الجزء الثاني منه سنة **١٣٨٧**هـ/ **١٩٦٧**م، حيث عاد بالقارئ إلى فكرة ترجمة هذا الكتاب سنة **١٣٥٧**هـ / **١٩٣٨**م ، حين ظهرت الطبعة الإنجليزية الرابعة منه ، ورأى بثاقب فكره وثقافته مع الأستاذ شفيق غربال أهمية هذا الكتاب في رفع مستوى المعرفة بالنواحي الحضارية من تاريخ العصور الوسطى الأوربية في الدوائر الجامعية بالشرق العربي ، وجعله في مستودع الآمال ، حتى عزم على ترجمته ، وجاء دور توزيع العمل في الترجمة والمراجعة ، فإذا أمام الدكتور زيادة سفر في خمسة عشر فصلاً كل فصل منها بقلم أخصائي عالمي المقام في ميدانه ، فرشح مؤرخنا للترجمة جميع الأخصائيين المصريين في دراسات العصور الوسطى الأوربية ، ونال زيادة من المراجعة – كما يقول – نصيب الأسد أو ما هو أشهر منه في حمل الأثقال الصامتة ، بينما اكتفى محمد بدران بمراجعة ثلاثة فصول من الكتاب(١).

وبدأ العمل في إنجاز هذا المشروع الضخم ، وما لبث أن رأى الدكتور زيادة بعد تجربة قصيرة في قراءة بعض الفصول التي تمت ترجمتها مبكراً ، أن توزيع

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تراث العصور الوسطى جزء **٢** صفحة م .

العمل على زملاء مترجمين أخصائيين ، وقيامه بعد ذلك على عملية المراجعة وحده قد لا يؤدي إلى النتائج العلمية المطلوبة من حيث الدقة المتناهية في ترجمة المعاني والأفكار وليس الألفاظ ، ومن ثم اقترح زيادة على زملائه المترجمين أن يجري العمل مع كل واحد منهم على قاعدة المشاركة المستمرة في الترجمة والمراجعة ، ووجد منهم جميعاً قبولاً حسناً ، وظل معهم على هذه القاعدة الوئيدة فيما يتعلق بالفصول الخاصة به [١] .

ولم يعمد مؤرخنا إلى ذكر هذه التفاصيل الخاصة بالترجمة والمراجعة من باب التنويه بازدواج نصيبه في هذا العمل ، بل حرصاً منه على أن يكون شريكاً مع زملائه جميعا في مسئولية الترجمة والمراجعة من حيث الاجتهاد والصواب والخطأ ، مع رجائه أن يلقى الكتاب من القارئ في صورته العربية مثلما لقيه أصله الإنجليزي من تقدير بين قرائه ، وختم زيادة تصديره هذا بتوجيه الشكر لمعاونيه في إخراج هذا العمل إلى النور [٢] .

٤- تاريخ العلم (الكتاب الأول)

– العلم القديم في العصر الذهبي لليونان

المؤلف : جورج سارتون .

ستة أجزاء :

ترجمة : لفيف من العلماء بإشراف لجنة مؤلفة من الدكاترة : إبراهيم بيومي مدكور ، ومحمد كامل حسين ، وقسطنطين ذريق ، ومحمد مصطفى زيادة ،

---

(١) المرجع والجزء نفسه صفحة م ، ن .

(٢) المرجع والجزء ذاته صفحة ن .

ومحمد مرسي أحمد .

دار المعارف مصر ، طبعات مختلفة ،١٣٧٧-١٣٩٢هـ/١٩٥٧-١٩٧٢م .

تقع هذه الموسوعة في ستة أجزاء من القطع المتوسط ، مرقم كل منها ترقيماً مستقلاً ، وبلغ عدد صفحاتها (٢٢٠١) ألفين ومائتين وصفحة واحدة ، وجاءت أجزائها على النحو التالي :

الأول : الأصول الشرقية واليونانية (٤٤٧) صفحة .

الثاني : القرن الخامس قبل الميلاد (٣٣٢) صفحة .

الثالث : القرن الرابع قبل الميلاد (٤٥٩) صفحة .

وأما الأجزاء الثلاثة الأخيرة فعنوانها : **العلم والحضارة الهلنستية في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد** وعدد صفحاتها على الترتيب (٣٨٣) ، و(٣٥٤) ، و(٢٢٦) صفحة ، واحتوى القسم الأول من العمل – الثلاثة أجزاء الأولى – على أربعة وعشرين فصلاً ، بينما اشتمل القسم الثاني – الثلاثة أجزاء الأخيرة – على تسعة وعشرين فصلاً ، ولم تحتو الموسوعة إلا على مقدمة للطبعة العربية في الجزء الأول منها للدكتور إبراهيم بيومي مدكور (ص٥-١٢) ، تلاها تمهيد للمؤلف جورج سارتون (ص١٧-٣١) ، ومقدمة استهل بها الجزء الرابع (ص٩-٢١) ، ثم خاتمة لكتابه جاءت في نهاية الجزء السادس (ص١٩٢- ١٩٤)

ومؤلف هذه الموسوعة جورج سارتون ت ١٣٧١هـ / ١٩٥١م ، يعد بحق على رأس المشتغلين بتاريخ العلم في النصف الأول من القرن العشرين ، حيث اتجه إليه منذ شبابه ، ووقف عليه حياته كلها ، وحصل على الدكتوراه سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١١م من مسقط رأسه بلجيكا ، وتلك كانت نقطة البداية لاختياره موضوع

(ليونارد الفنسي) ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحاضر ويؤلف في العلم وتاريخه ، فحاضر في بلجيكا وانجلترا قبل أن يرحل إلى الولايات المتحدة عام **١٣٣٤**هـ/ **١٩١٥**م ، وفيها امتد نشاطه إلى كبريات الجامعات الأمريكية محاضراً ومراسلاً وبانياً لجيل من الباحثين ، ولعله لم يكتب في شيء إلا العلم وتاريخه ، أو ما يتصل بهما عن قرب [١].

وفي خاتمة المطاف أراد سارتون أن يضع كتابا جامعاً في تاريخ العلم يضمنه ثمار جهاده الطويل ، وما أسفرت عنه حياته الحافلة بالبحث والدرس ، فجاء (**تاريخ العلم**) فعلاً كتاب الجمع الشامل والنضج الكامل ، وقسمه إلى أربعة أقسام : التاريخ القديم ، العصور الوسطى ، من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ، ثم من القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن العشرين ، والقسم محل الدراسة خاص بتاريخ العلم في العصر القديم ، منذ بدأت المعرفة حتى قبيل ظهور عيسى عليه السلام وسارتون في منهجه لا يقف أمام حضارة بعينها ، بل يتتبع الحضارات الإنسانية على اختلافها مع حرصه على الرجوع إلى المصادر الأولى لاستقاء معلوماته منها ، وقد مهر في ذلك لإجادته العديد من اللغات القديمة والحديثة ، مما مكنه من عرض قضايا موسوعته عرض العالم الملم بأطراف موضوعه الخبير بدقائقه ، ومع هذا فهو لا يؤرخ لعلم بذاته ، بل يتتبع تطور العلم البشري منذ بدء الخليقة حتى عصره [٢].

ونظراً للأهمية التي حظي بها المجلد الأول (الثلاثة أجزاء الأول) من

---

(١) إبراهيم بيومي مدكور : تصديره للجزء الأول من تاريخ العلم ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٧- ١٠ .

الكتاب الأول فور ظهوره ، فقد فكر المهتمون بالنشر في إخراجه إلى العربية قبل أن يكتمل الأصل الإنجليزي ، فكانت المبادرة من مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر التي عرضت الأمر على الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، فرحبت به ، وشاءت المؤسسة أن تأخذ هذه الترجمة طابعاً دولياً فكونت لجنة للإشراف عليها مثلت فيها لبنان ومصر ، وكان من أعضائها المصريين من تصدرت أسماؤهم غلاف الموسوعة وعلى رأسهم الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ووزعت اللجنة فصول المجلد الأول بين نخبة من المختصين في العراق وسوريا ولبنان ومصر ، وتم إخراجه إلى العربية ولما يمض خمسة أعوام على نشره بالإنجليزية [١] .

٥- موسوعة تاريخ العالم

المؤلف : وليام لانجر .

ثمانية أجزاء :

أشرف على الترجمة : الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور عبد المنعم أبو بكر في الجزء الثامن فقط .

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، **١٣٧٥- ١٣٩١**هـ / **١٩٥٥- ١٩٧١**م .

موسوعة ضخمة تقع في ثمانية أجزاء من القطع المتوسط ، مرقمة ترقيماً متوالياً ، بلغ عدد صفحاتها (**٣٥٩٨**) ثلاث آلاف وخمسمائة وثمانٍ وتسعين ، صدَّر الدكتور زيادة منها خمسة أجزاء (الأول والثاني والثالث والخامس

---

(١) المرجع نفسه ١/ ١٠-١٢ .

والسادس) ، وأما الرابع فقدم له حسن جلال العروسي ، لسفر الدكتور زيادة إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية سنة **١٣٨١**هـ/ **١٩٦١**م ، والسابع صدره أمين الشريف ، حيث نعى للأمة زيادة الذي راجع هذا الجزء قبيل وفاته ، والجزء الأخير قدم له عبد المنعم أبو بكر .

ومؤلف هذا السفر وليام لانجر أستاذ التاريخ الحديث في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية – في منتصف القرن العشرين – وهو من أعلام المؤرخين الأمريكيين المعروفة مؤلفاتهم المتنوعة بصرامة الموضوعية التاريخية والجرأة والصراحة وسعة الأفق (١) .

وهذه الموسوعة التي ألفها وليام لانجر قصد من ورائها أن يطوف بالقارئ عبر الزمان بين أرجاء العالم ، يسرد عليه أحداثه منذ ظهر الإنسان العاقل الجد الأول لسكان العالم من البشر ، ومنذ أن تكونت جماعاته التي ما لبثت أن تفرقت وظهرت منها الأمم ، كل منها تحمل مشعل الحضارة لفترة من الزمن ، ثم تسلمه إلى غيرها ، وكل منها تقوم بإضافة لبنة إلى بناء حضارة الإنسان ، وهو البناء الذي أخذ يعظم ويكبر حتى أصبح شامخاً ، ولكن لا تستطيع أمة بعينها أن تفخر بأنها هي التي انفردت ببنائه (٢) .

ويروي الدكتور زيادة الملابسات التاريخية لظهور فكرة ترجمة هذا العمل عندما رأت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر أن تضيف هذه الموسوعة الشاملة

---

(١) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء **١** صفحة ز .

(٢) عبد المنعم أبو بكر : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء **٨** صفحة س .

للتاريخ العالمي إلى المكتبة العربية في الشرق الناهض ، هادفة لا إلى خدمة المؤرخ الباحث فحسب بل إلى تنوير القارئ العربي ، الذي أضحى بحاجة ماسة إلى موسوعة مختصرة تشمل التاريخ كله ، ليستعين بها على تكوين فكرة عالمية سليمة، دون حاجة إلى دراسة منهجية تاريخية ، وكذلك معرفة محل الشرق في التاريخ العالمي ، ليدرك منه ما لهذا الشرق الأوسط سلباً أو إيجاباً في مختلف العصور التاريخية من مقام حضاري ، وإشعاع ثقافي ، وتجاوب سياسي واقتصادي اجتماعي مع الأقاليم المجاورة وغير المجاورة[١].

ومن أهداف ترجمة هذا العمل – كما يقول زيادة – إعطاء القارئ العربي صورة مسلسلة متصلة بتاريخ الإنسان وحضاراته وثقافاته وحروبه وثوراته واختراعاته واكتشافاته ، منذ عصر ما قبل التاريخ ، إلى عصر القنبلة الذرية [٢] ، كما أن هذه الموسوعة تكفل للقارئ تصور منظورٍ تاريخي عالمي سليم ، ليغدو مدركاً أن التقدم البشري سلسلة متكاملة من جهود متفاوتة لقيم لا تحتكرها أجناس بشرية معينة ، ولا تحدها أقاليم جغرافية خاصة ، بل هي وليدة تيارات حضارية متباينة القوة والمد والجزر ، وهي تيارات دائمة الحركة ، جانحة نحو التمازج والتناسق والخير الإنساني العام [٣] .

وأما الباحث المتخصص فإنه يستطيع أن يستخرج من هذا السفر التواريخ

---

(١) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء ١ صفحة ز .

(٢) المرجع الجزء ذاته صفحة ح .

(٣) المرجع السابق جزء ٢ صفحة ن .

الضرورية التي يحتاج إليها في عمله ، فالموسوعة بالنسبة له أقرب شيء إلى القاموس ، مفتاحه الضبط الزمني ، وقد رتب بحيث تكون السنوات التاريخية بارزة في حين تسير المادة التاريخية سيراً متصلاً بقدر المستطاع ، وبذلك تساعد موسوعة لانجر الباحث في بحثه دون عناء ، وبغير أن يضطر إلى قراءة طويلة للحصول على ما يريد تحقيقه من أحداث التاريخ(١).

وقصارى القول أن هذه الموسوعة تنبأ لها الدكتور زيادة عند اكتمالها بأنها ستصير ركنا أساسياً من أركان الإحاطة والمعرفة بالتاريخ العام بين أجيال الناطقين باللغة العربية (٢) .

ولقد عهدت مؤسسة فرانكلين للدكتور زيادة بالمشاركة بنصيب في إعداد الترجمة العربية لهذه الموسوعة ، فعاون أولاً في تقسيمها إلى أجزاء مسلسلة متساوية الأحجام تقريباً ، ثم في توزيع فصولها المتعددة على مترجمين متخصصين في مختلف عصور التاريخ ، والذين قاموا بواجبهم على خير ما يكون الأداء في دقة ظاهرة وأمانة علمية كبيرة ، ثم قام الدكتور زيادة بمراجعة الفصول في صيغتها العربية (٣) .

ولقد كان من أجل الأعمال التي أسداها الدكتور زيادة إلى تلاميذه وأبناء

---

(١) حسن جلال العروسي : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء ٤ صفحة ط .

(٢) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم ، جزء ٥ صفحة ك .

(٣) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء ١ صفحة ز ، جلال العروسي : تصديره للجزء الرابع من الموسوعة صفحة ي .

جيله بوجه عام ، والمشتغلين منهم بالدراسات التاريخية بوجه خاص ، إشرافه على ترجمة هذا العمل ، لأنه بجانب توفره على الدراسات التاريخية ، كان ذا إلمام دقيق بأسرار اللغتين العربية والإنجليزية ، فكان ذلك عوناً كبيراً له على ترجمة هذا السفر إلى اللغة العربية ، وقد لمس غير واحد من تلاميذه المشاركين معه في الترجمة ما كان يتصف به من دقة التفكير ، وسلامة التعبير ، مما انعكس أثره على هذه الموسوعة ، التي أشرف عليها حتى آخر يوم من أيام حياته ، فلم تدركه الوفاة حتى كان قد أتم مراجعة الجزء السابـــــع منها ، وأشرف على إعداد مواده للطبع [(١)] .

ولقد ضرب الدكتور زيادة له بسهم في ترجمة بعض أجزاء موسوعة لانجر ، لاسيما تلك المرتبطة بتاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب ، ففي الجزء الثاني المتصل بالحروب الصليبية ترجم ما تعلق بها من الحديث عن الجزر البريطانية وإسكندناوه (ص**٥٢٤- ٥٦٤**) ، وما يرتبط بأوربا الشرقية والشرق الأدنى (ص**٦٥٥- ٧١٨**) ، وفي الجزء الثالث ترجم القسم الخاص بالدولة العثمانية (ص**٨٦٧ – ٨٨٠**) [(٢)].

وقد جاءت هذه الموسوعة في ثمانية أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول (ص١- ٣٨٤) .

احتوى على عصور ما قبل التاريخ ، وعصور الحضارات القديمة ،

---

(١) أمين الشريف : تصديره للجزء السابع من موسوعة تاريخ العالم صفحة م ، ن .

(٢) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم جزء **٢** ، صفحة ك – م ، جزء **٣** صفحة ح .

كالمصرية، والبابلية ، والآشورية ، والحيثية ، والهللينية ، والفارسية ، والرومانية ، والهندية [١].

الجزء الثاني (ص٣٨٥- ٧١٨) .

اشتمل على العصور الوسطى ، تلك التي شهدت انهيار الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وظهور الإسلام ، ونشأة البابوية ، وتكوين الإمبراطورية المسيحية في غرب أوربا ، والنزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ، والحروب الصليبية ، ونمو المدن الإيطالية ، وأحوال أوربا الشرقية ، والدولة البيزنطية [٢] .

الجزء الثالث (ص٧١٩- ٩٣٣) .

تناول المرحلة الزمنية المعروفة باسم العصور الوسطى المتأخرة في الغرب والشرق ، وهي مرحلة متداخلة الحوادث بعضها في بعض ، تبتدئ بمطلع القرن الرابع عشر الميلادي ، وتنتهي بانتهاء العصور الوسطى ، وتزحر هذه المرحلة بالحوادث الكبرى التي تولد عنها العالم الحديث سواء في أفريقيا أو أوربا أو آسيا أو أمريكا الشمالية ، فهي تشتمل على جميع المقدمات التي أنتجت العصور التاريخية الحديثة [٣] .

الجزء الرابع (ص ٩٩٥ – ١٤٥٢) .

---

(١) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء **١** صفة ز ،ح .

(٢) المرجع نفسه جزء **٢** صفحة ن .

(٣) المرجع ذاته جزء **٣** صفحة هـ .

ويضم تاريخاً لمرحلة العصور الحديثة حتى قبيل الثورة الفرنسية [١] .

الجزء الخامس (**ص ١٤٥٣- ١٩٠٩**) .

احتوى تاريخ القرن التاسع عشر ومشارف القرن العشرين حتى سنة **١٣٣٣**هـ / **١٩١٤**م ، وهي مرحلة العلم الحديث ، والبحث العلمي المبتكر ، والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام ، ومن هذه المرحلة تستمد المدنية العالمية الحاضرة جذورها وفروعها [٢] .

الجزء السادس (ص ١٩١١- ٢٣٧٣) .

يبدأ هذا الجزء بفصل تمهيدي في العلاقات الدولية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وينتهي بنظرة عامة في الكشوف الجغرافية والاستعمار الأوربي في منطقة المحيط الهادي ، حتى إعلان الحرب العالمية الأولى ، وهو يشتمل فيما بين هذه البداية والنهاية على فصول في أحوال أمريكا الشمالية والجنوبية ، وفصل في أفريقيا وحركة الكشوف الجغرافية ، ثم فصل في آسيا ، ومن الواضح أنه من مجموعة حوادث هذه الفصول المتتابعة تولدت حوادث القرن العشرين من الحرب العالمية الأولى فصاعداً [٣] .

الجزء السابع (ص٢٣٧٥ – ٢٩٩٨) .

اشتمل على حوادث الحرب العالمية الأولى سنة **١٣٣٣**هـ / **١٩١٤**م ، والمضي قدماً حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، وهي فترة قصيرة ولكنها حافلة

---

(١) حسن جلال العروسي : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء **٤** صفحة ي .

(٢) زيادة : تصديره لموسوعة تاريخ العالم جزء **٥** صفحة ك .

(٣) المرجع السابق جزء **٦** صفحة ك .

بالأحداث الخطيرة التي انعكست آثارها على تاريخ العالم بأسره ، كما أنها مهدت السبيل للحرب العالمية الثانية [١] .

الجزء الثامن (٢٩٩٩ – ٣٥٩٨) .

انفرد هذا الجزء بتسجيل أحداث الحرب العالمية الثانية ، وهي لاشك أكثر الحروب ضراوة وأشدها فتكا [٢] .

خامساً : تقييم لجهود الدكتور زيادة في الترجمة :

تلك هي أهم الأعمال التي تصدرها اسم الدكتور زيادة ، سواء أكان مترجماً بنفسه ، أم مشاركاً مع غيره ، أم مشرفا على ما ترجمة الآخرون ، ومن أهم السمات التي خرج بها الدارس من هذا المبحث المنهج الصارم الذي وضعه مؤرخنا لاختيار هذه الكتب ، التي كانت عيوناً من التراث الغربي تأليفاً وعرضاً ومنهجاً ومعرفة ، حتى طبع بعضها طبعات عدة في بضع سنوات ، ولم يكن ذلك هو الهدف الأسمى لترجمتها فحسب ، بل كان هناك دافع آخر ، وهو الحذو حذوها في التأليف والعرض والتناول لقضايا وحوادث من التاريخ الإسلامي عن طريق معاينة النموذج الغربي في عرضه لها ، أو لوجود نقاط تماس بين الشرق والغرب في هذه الناحية أو ذاك ، والنسج على منوالها أو الاهتداء بها .

كما اتسم عمل الدكتور زيادة في مجال الترجمة بالدقة المتناهية ، والتؤدة القائمة على إتقان العمل في لغة أقرب ما تكون إلى لغة مؤلفيها ، وفي ثوب عربي قشيب ،

---

(١) أمين الشريف : تصديره للجزء السابع لموسوعة تاريخ العالم صفحة ن .

(٢) عبد المنعم أبو بكر : تصديره للجزء الثامن لموسوعة تاريخ العالم صفحة س .

ينسال من بين الصفحات ، حتى يظن القارئ أن ما يغترف منه هو مؤلف صرف للدكتور زيادة ، وليس من تراجمه أو مراجعاته ، فقد كان لمؤرخنا مفهومه الخاص للبلاغة ، فهي ليست الطنطة اللفظية ، والألفاظ الغريبة ، بل الألفاظ المستساغة التي يصوغها في عقد فريد هو قطعة من الأدب الرفيع ، دون الإخلال بالحقيقة الماثلة أمامه فيما يترجمه .

ومما يستلفت نظر الدارس في هذا الصدد أيضاً تواصل مؤرخنا الدائم مع طبعاته المتتالية من الكتب المترجمة ، وقيامه بالتعديل أو التصويب أو الحذف أو الإضافة مع كل طبعة جديدة ، تبعاً لما يتراءى له من مواطن النقد من قرائه المتخصصين وغيرهم في الشرق أو الغرب ، لتخرج هذه المترجمات في أبهى حلة ، وتزداد في كل طبعة رونقاً عن سابقتها ، مع حرصه على ادخار هذه الملحوظات لحينها حتى ولو طال عليها الزمن .

وثمة ملحوظة جديرة بالوقوف أمامها طويلاً تتعلق بزيادة مترجماً ، هي حرصه على ألا تمتد يديه بالترجمة إلا لعيون التراث الأوربي للعصر الوسيط إلا ما ندر ، ذلك الذي تجلى في تراجمه للإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا وتكوين أوربا ، وتراث العصور الوسطى ، والتاريخ الإنجليزي ، وهو التخصص الدقيق الذي أبدع فيه مترجما من الغرب ، ومؤلفاً في الشرق ، وأما مراجعاته فقد تنوعت ما بين التاريخ القديم والحديث ، مثل العرب في سوريا قبل الإسلام ، أو أطلس التاريخ الإسلامي ، أو الموسوعات الشاملة الكبرى ، كتاريخ العلم أو موسوعة تاريخ العالم ، كما كان سيادته يتدرج في الترجمة من الأخص إلى الأعم ، فبدأ تراجمه بنابليون ، ثم الإقطاع ، ثم التاريخ الإنجليزي ،

ثم توسع نحو تكوين أوربا ، والعصور الوسطى ، ثم أشمل نحو تراث العصور الوسطى ، وأخيراً الموسوعات العالمية كموسوعة تاريخ العالم .

ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذه هي إحدى سمات المنهج العلمي التاريخي الذي سار عليه الدكتور زيادة سواء في الترجمة أم التأليف ، وهو ما يعرف بنظرية الاستقصاء قبل الكتابة ، بجمع الجزئيات والموضوعات الصغيرة والانتقال منها إلى الأشمل والأعم لتكون الأحكام دقيقة[١] .

وبعد هذا التناول والاستعراض للدعامة الثانية التي اعتمد عليها الدكتور زيادة في بناء النهضة العلمية التاريخية في مصر يطيب للدارس الانتقال إلى الدعامة الثالثة وهي جهود ه فى مجال الدراسات التاريخية وهو ما يعرض له الباحث فيما يلي :

---

(١) سيعرض الدارس بالتفصيل للمنهج التاريخي للدكتور زيادة في المبحث الخامس .

المبحث الرابع

الجهود التأريخية للدكتور زيادة

على الرغم من الأعباء الثقال التي تحملها الدكتور زيادة في سبيل تحقيق النهضة العلمية لوطنه ، وإرساء دعائمها الأولى بالنشر والترجمة لم ينس مؤرخنا مكتبه وقلمه فكان يقضي الليل بين كتبه يبحث وينقب ويؤلف[١]، مخلفا للمكتبة التاريخية نتاجاً خصباً ، انصب على حقبة التاريخ الوسيط ، تلك التي رفع لواءها، وتنوع هذا النتاج ما بين الأعمال المطولة ، والأبحاث المحكمة باللغة العربية أو بغيرها ، ناهيك عن عدد غير قليل من المقالات المتخصصة التي توشحت بها العديد من عيون الدوريات ، وقبل هذا وبعده مشاركاته في التأليف مع غيره ، ومراجعاته لما يكتبه الآخرون ، ونقده وعرضه لما يُنشر من المؤلفات ، ذلك الذي يمكن عرضه على النحو التالي :

أولاً : النتاج التاريخي :

خلف الدكتور زيادة للمكتبة التاريخية اثنين وعشرين عملاً ذات عناوين وموضوعات مختلفة يمكن تقسيمها تبعاً لذلك إلى ما يلي :

القسم الأول : الموضوعات التاريخية :

وعددها اثنا عشر عملاً جاءت على النحو التالي :

١- بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر .

مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ربيع الأول **١٣٥٥**هـ/ مايو **١٩٣٦**م ، ط**٢** ، (ص**٧١** – **٨٨**) .

بحث له خطورته من الناحية العلمية ، وترجع أهميته إلى أن الدكتور زيادة أتى فيه بجديد فعلاً ، فكشف الستار لأول مرة عن بعض الجوانب الغامضة في

---

(١) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ١٠٠ .

تاريخ دولة المماليك ونظمهم ، الأمر الذي جعل بعض أساتذة الجامعات الغربية ينوهون به في مجلة « **تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي** » وهي مجلة علمية معروفة يصدرها بريل في ليدن [١] .

يتناول هذا البحث القصير القيم بعض الملاحظات الجديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر ، ومنها – كما يقول الدكتور زيادة – عدم الدقة العلمية في تسمية دولة المماليك الأولى بالبحرية ، ونسبة هذه التسمية إلى الصالح نجم الدين أيوب إبّان سلطنته (**٦٣٧- ٦٤٧هـ/ ١٢٤٠ – ١٢٤٩م**) ، إذ لم يكن هو أول من أوجد هذه الفرقة ، وليس المبتكر لتسميتها ، على الرغم من إجماع المؤرخين على نسبة هاتين الحادثتين إليه ، فقد كان لدى أبيه الكامل طائفة من الأجناد اسمها البحرية العادلية ، كما أن الفرقة التي أنشأها الصالح أيوب كانت تسمى بالبحرية الصالحية ، ولا معنى لهذه التسمية إلا ما أريد بها من تمييز تلك الطائفة مما كان هناك من فرق بحرية أخرى منسوبة لمن سبق الصالح أيوب أو جاء من بعده[٢].

ومن ملاحظات زيادة أيضاً أن إطلاق لفظ البحرية على جميع سلاطين هذه الدولة لا يتسق وبعض الحقائق التاريخية المتواترة ، فلم تكن شجر الدر بحكم أنوثتها من الأجناد حتى يمكن اعتبارها من البحرية ، ناهيك عن أن بعض حكام الدولة كقطز (**٦٥٧ – ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩- ١٢٦٠م**) لم يكن من البحرية ، كما أن أولاد السلاطين وولاة عهدهم الذين حازوا السلطنة بعد آبائهم لم يكونوا مماليك

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٠ .

(٢) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٧٢ .

أصلاً في يوم من الأيام ، فقد ولدوا أحراراً ، ونشأوا في ثياب العز والكرامة [١] .

كما أن تسمية هذه الدولة باسم دولة المماليك الأتراك أقل صلاحية من إطلاق اسم المماليك البحرية عليها ؛ لأن جل سلاطينها الأوائل كانوا أجلاباً من أسواق النخاسة البيضاء في الشام وآسيا الصغرى ، فهذا كفيل بالشك في نسبهم للترك ، فضلاً عما تواتر من أدلة تاريخية تنفي أنهم كانوا جميعاً من الأتراك ، فشجر الدر كانت أرمينية ، والسلطان العادل كتبغا(**٦٩٤-٦٩٦**هـ/ **١٢٩٤- ١٢٩٦**م) كان مغولي الأصل وصهراً لهولاكو نفسه ، وأسره المماليك في واقعة حمص سنة **٦٨٠**هـ/ **١٢٨١**م [٢] .

ومن هذه الملاحظات الجديدة أن السلطان بيبرس البندقداري (**٦٥٨ - ٦٧٦**هـ / **١٢٦٠- ١٢٧٧**م) ليس هو بطل موقعة غزة سنة **٦٤٢**هـ/ **١٢٤٤**م كما تواتر في المؤلفات الحديثة ، وهي الوقعة التي انتصر فيها الصالح نجم الدين أيوب والخوارزميين على الصليبيين ، ولم تقم لهم من بعدها قائمة في بلاد الشرق ، وإنما كان بيبرس آخر مملوكٍ للملك الصالح نجم الدين أيوب وتوفى سنة **٦٤٤**هـ / **١٢٤٦**م ، وأما بيبرس السلطان فقد كان بطلاً لوقعة أخرى عند غزة سنة **٦٥٩**هـ/ **١٢٦٠**م غداة معركة عين جالوت ضد التتار [٣] .

ومن هذه الأضواء الجديدة التي وقف عليها مؤرخنا أن إحياء الخلافة العباسية في مصر سنة **٦٥٩**هـ/ **١٢٦٠**م على يد بيبرس لم يكن المحاولة الأولى ،

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٤ .

(٣) المرجع ذاته ص ٧٤ ، ٧٥ .

فقد سبقه إلى التفكير فيها أحمد بن طولون ، حينما حاول اجتذاب الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ / ٨٦٩- ٨٩٢م) إلى مصر سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م ، لإكساب دولته الجديدة ثياب الشرعية ، وكذلك محمد الإخشيد سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م ، حينما ذهب إلى بلاد الشام لإغاثة الخليفة المتقي بالله (٣٢٩- ٣٣٣هـ / ٩٤٠- ٩٤٤م) من جور الأمراء الترك ، ثم حاول قطز القيام بالشيء نفسه قبل موقعة عين جالوت وبعدها ، ولكنه قتل قبل قيامه بذلك ، ونجح في ذلك بيبرس الذي أحيا الخلافة في مصر سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م ، ولم يكن في مقصودة جعل مصر مركزاً لها ، كما توجس من بقاء الخليفة بجواره في القاهرة مع ما يتمتع به من سلطات واسعة ، ومن ثم دفع بيبرس الخليفة العباسي الأول المستنصر بالله للعودة إلى العراق ، ليلقي مصيره المحتوم ، ثم تريث في تنصيب الخليفة الثاني حتى يخطط لنزع سلطاته ، وإبقائه في مصر دون سلطات حقيقية [١] .

ومن ملاحظات الدكتور زيادة الجديدة في هذا البحث حديثه عن بعض المصطلحات المملوكية المعروفة : كالمملوك والخشداش[٢] والأستاذ[٣] ، وغير

---

(١) المرجع عينه ص ٧٥ – ٧٩ .

(٢) الخشداش : لفظ فارسي معناه الزميل في الخدمة ، والخشداشية هم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة الزمالة ، وكان لهذه الرابطة أثرها في حوادث المماليك . محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، ١٩٨٣ ، محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٦٨ ، ٦٩ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ودمشق ، ط ١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٣) الأستاذ : لقب أطلق على من يشتري المملوك بالمال ويربيه ثم يعتقه عند الكبر ، وكانت=

المعروفة كالترابي ، وإشارته إلى أن استخدام السلاطين للفظ مملوك في مكاتباتهم لم تكن من باب التواضع لغيرهم ، بل كانت اعتزازاً بهذا الأصل وتقريراً لحقيقة واقعة ، وأما مصطلح الترابي فلم يكن حديث عهد بالدولة المملوكية ، بل ترجع أصوله إلى الدولة الفاطمية ، والمقصود به صغار أسرى الحروب من الأطفال الذين يتم تربيتهم على يد الأستاذين ، فيتعلمون الرماية والكتابة ، ويعيشون كفئة حول بلاط السلطان ، ويكون منهم خدام القصر ، ولا شأن لهم بالحياة السياسية والعسكرية إلا نادراً كتقريب العادل الثاني (**٦٩٤-٦٩٦**هـ / **١٢٩٤-١٢٩٦**م) إليهم ، ومنحهم الإقطاعات ، مما أثار عليه الأمراء والقادة فخلعوه من السلطنه[١] .

٢- رحلة ابن جبير :

محاضرة ألقاها الدكتور زيادة بدار المغرب للتبادل الثقافي بمصر سنة **١٣٥٨**هـ/ **١٩٣٩**م ، وصدرت ضمن كتاب نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في السنة نفسها [٢] ، وقد تصدرت هذه المحاضرة رحلة ابن جبير المطبوعة (ص **٥-١٧**) التي سبقت الإشارة إليها في المبحث الثاني .

قام ابن جبير بهذه الرحلة في شوال سنة **٥٧٨**هـ/ فبراير **١١٨٣**م من بلدته غرناطة لأداء مناسك الحج ، فزار مصر ووصف ما رآه فيها ، وانتقل منها عن

= رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه . البقلي : التعريف ص**٢٩** ، دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص **١٤** .

(١) المرجع نفسه ص **٨٠ – ٨٢** .

(٢) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **١٠** .

طريق البحر الأحمر إلى جدة ومنها إلى مكة فمكث فيها شهوراً طوالاً ، وأفاض في وصفها ، وأدى المناسك ، وختم زيارته بالمدينة المنورة ، ثم آب إلى بلاده ولكن عن طريق العراق ثم الشام ، ومنها عن طريق البحر المتوسط إلى صقلية ، ثم حط رحاله في مسقط رأسه غرناطة ، وذلك بعد ما يزيد على عامين في المحرم سنة **٥٨١**هـ/ أبريل **١١٨٤**م .

ولقد قدم الدكتور زيادة في محاضرته لهذه الرحلة عرضا شائقاً ، بالمزاوجة بين ما هو مسطور في دفتيها من معلومات قيمة لهذا العصر ، وما ارتبط به من أحداث العصور الوسطى بشقيها الإسلامي والغربي ، فلم يترك فرصة عابرة إلا وأتحف قارئه بشيء من المقارنات أو الموازنات أو التحليلات أو الإضافات التي تطلبتها الحبكة العلمية لعرض الرحلة ، فصدَّرها بعرض لدوافع الرحلات في الإسلام من دينية ودنيوية ، ونوَّه بأهمية رحلة ابن جبير لمعرفة المسالك والدروب، مما جعل كبار المستشرقين يهتمون بنشرها منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم عرف بابن جبير وميلاده في بلنسية(١) سنة **٥٤٠**هـ/ **١١٤٥**م، وعمله في بلاط أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين كاتماً للسر(٢) ، وما وقع له من إجباره على شرب سبعة أقداح من الخمر على يد سيده ،

---

(١) بلنسية : مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة وتعرف بمدينة التراب وتتصل بها مدن تعد في جملتها . ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت **٦٢٦**هـ / **١٢٢٨**م) : معجم البلدان **٢/٣٨٦** ، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دارا إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، **١٤١٧**هـ/ ١٩٩٧م .

(٢) كاتم السر : أو كاتب السر من الوظائف الديوانية ، ويختص صاحبها بقراءة الكتب =

الذي عوضه عما فعله بردها عليه سبعة أقداح من الدنانير ، فأراد بن جبير أن يكفر بها عما أُكره عليه ، فتوجه لأداء مناسك الحج في تلك الرحلة التي استمرت سنتين وبضعة شهور[١].

ولقد دون ابن جبير مشاهداته وملاحظاته في يومياته تلك فجاءت وافية – كما يقول زيادة – لما شاهده ، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التي مر بها ، وقاموساً لمصطلحات عصره في بناء السفن والملاحة البحرية ، وثبتاً بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد ، فضلاً عن كونها – كما يرى زيادة – دعاية لدولة الموحـــدين التي تمني ابن جبير أن يمتد نفوذهـــا شرقـــاً إلى مصر والحجاز[٢] .

وصل ابن جبير إلى الإسكندرية بحراً في ذي القعدة سنة **٥٨٣**هـ / مارس **١١٨٣**م ، وأجبره أمناء السلطان صلاح الدين على دفع زكاة ما معه من أموال ومتاع ، ولم يمر عليها الحول مما آلمه ، ومما استلفت نظر الدكتور زيادة في وصف ابن جبير لمعاملـــة أمنـاء السلطان له وللحجيج ، أنه أهمل أو تناسى أن يذكر

=الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها والجلوس بجوار السلطان لقراءة القصص والتوقيع عليها ، ومشاركة الوزير في بعض الأمور مع التحدث في أمور البريد ، ومشاركة الدوادار في أكثر الأمور السلطانية . محمد قنديل البقلي : التعريف ص **٢٨٢** . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص **١٢٧** .

(١) زيادة : تقديمه لرحلة ابن جبير ص **٥** ، **٦** .

(٢) المرجع السابق ص **٦** .

ما حدث لبقية المسافرين من غير المسلمين على يد عمال صلاح الدين ، وهذا – كما يقول زيادة – نقص يُؤسف له ، لو تداركه ابن جبير بجملة من كلمة لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين في الموانئ الإسلامية من جديد ، ولأوجب عليهم القصد في العبارة المتواترة في كتب التاريخ القديمة ، بأن سوء معاملة الحجاج النصارى في هذه الموانئ ، كان من أكبر الأسباب التي أثارت أوربا للحروب الصليبية[1] .

رحل ابن جبير من الإسكندرية في ذي الحجة / أبريل ووصل القاهرة ، فزار مشاهدها وآثارها العديدة ، والتقى شيخ المدرسة الناصرية التي ابتناها صلاح الدين الشيخ نجم الدين الحبوشاني ، ولم يلق من رجال مصر سواه ، وليته – كما يقول زيادة – صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين أو أخيه العادل أو بهاء الدين قراقوش أو القاضي الفاضل ، ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية في مصر ، غير أنه لم يفوت الفرصة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته في بلاد المشرق الإسلامي[2] .

ومما شاهده ابن جبير في القاهرة القلعة ولما يكتمل بناؤها ، كما عاين سور القاهرة والخندق المحدق به ، ولاحظ أن جميع المسخرين لتلك المنشآت كانوا من أسرى الفرنج ، وهذا كله – كما يقول زيادة – متواتر في المراجع المعاصرة ، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه ، ثم توجه ابن جبير من القاهرة عن طريق النيل إلى قوص في صعيد مصر ، ومنها إلى عيذاب على ساحل البحر

---

(١) المرجع نفسه ص ٦ ، ٧ .

(٢) المرجع ذاته ص ٧ .

الأحمر، ثم إلى مكة فنزلها في ربيع الآخر سنة **٥٧٩**هـ/ أغسطس **١١٨٣**م [١] .

مكث ابن جبير في مكة بضعة أشهر ، أتاحت له أن يصف مشاهدها في دقة متناهية وتفصيل مسهب بلغ سبعين صفحة من رحلته ، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها في أواخر القرن السادس الهجري – كما يقول زيادة – ومما استلفت نظره سوء معاملة الحجيج من قبل أمراء مكة ، وشدة فرض المكوس عليهم حتى ألغاها صلاح الدين ، وعوض أمراء مكة عنها ، وأن المسلمين في مكة كانوا يؤمنون عند دعاء إمام الحرم لصلاح الدين ، تقديراً له على ما قدم للمسلمين السنة من هدم الدولة الفاطمية ، ثم رحل ابن جبير من مكة إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ ، فوصف مشاهدها ، وتأهب للعودة إلى وطنه [٢] .

لم يسلك ابن جبير نفس طريق مجيئه للعودة إلى بلاده ، بل انضم لموكب الحج العراقي ، وسلك طريقاً طويلاً إلى الأندلس ، فأضاف إلى مؤلفه قيمة جديدة بما دونه فيها من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق وثغور البحر المتوسط في عصره – على حد قول زيادة – [٣] .

تحرك ابن جبير نحو العراق في المحرم سنة **٥٨٠**هـ/ أبريل **١١٨٤**م ، ومر بمدنه حتى وصل إلى بغداد ، فأقام فيها ثلاثة عشر يوماً ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، حتى جاء وصفه – كما يرى زيادة – وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالإضافة إلى ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي مثلاً يعد أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل

---

(١) المرجع نفسه ص ٨- ١٠ .

(٢) المرجع عينه ص ١٠ ، ١١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١١ .

كارثة المغول على يد هولاكو وجنوده ، يرجع إليه المؤرخ ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها ، وفضلاً عن ذلك ففي ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة في أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي [١].

غادر ابن جبير العراق وواصل طريقه شمالاً نحو الموصل صحبة حجاج الشام وكردستان ، ومر على العديد من البلدان حتى وصل حلب ، ومنها إلى دمشق التي أسهب في وصف مشاهدها ، وأقام فيها شهرين ، ثم تأهب للرحيل منها إلى عكا ليركب البحر نحو بلاده ، ولا يكاد يصل القارئ – كما يقول زيادة – إلى عبارة ابن جبير عن عكا حتى يقف على عبارة فيها التفات ، وهي أن أسفار السفن من عكا في الخريف – وهو أحسن أوقاف السفر حين ذاك – كانت تعرف عند أهل الشام بالصليبية ؛ لتصليب أشرعة السفن موافقة للريح في تلك الأسفار؛ فهل استمد اسم الحملات والحروب الصليبية – التي كانت على أشدها إبان ذلك الوقت – من ذلك الاسم العربي – كما يقول زيادة– ؟ فجاءت تسمية دقيقة ورمية من غير رام[٢] .

تجاوز ابن جبير دمشق نحو عكا ، ودخل في أملاك الإمارات الصليبية ، واستلفت نظره أن هؤلاء يمكسون[٣] المسافرين المغاربة دون جميع المسلمين

---

(١) المرجع عينه ص ١١ ، ١٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢ - ١٥ .

(٣) المكس ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في الموانئ وعلى المسافرين العابرين لحدود دول أخرى ، البقلي : التعريف ص ٣٢٥ .

بمكس إضافي عن المعتاد ، وسببه اشتراك فئات من المغاربة مع نور الدين محمود بن زنكي في جهاد الصليبيين ، فعاقبهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة المغلظة ، وأهمية هذه الواقعة - كما يقول زيادة – أنها مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون إلى نداء نور الدين محمود ، ولتقرير ما خفي على بعض المؤلفين في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم الموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت في الواقع في الأندلس قبل أن تمتد إلى الشام [١] .

وصل ابن جبير عكا في جمادى الآخرة سنة **٥٨٠**هـ / سبتمبر **١١٨٤**م ، وركب منها البحر نحو صقلية التي كانت حينئذ في أيدي النورمان ، وكانت- كما يقول زيادة - بحكم موقعها الجغرافي والزمني في أوج نماذج الحكم والإدارة والثقافة في التاريخ الأوربي في العصور الوسطى ، إذ التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية والجرمانية والإسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك امتزاجاً لم يحدث مثله في غيرها من البلاد - كما يقول زيادة - ، الذي جاء حديثه عنها حديث من وعى طبيعة العلاقات التي حكمت هذه الجزيرة بعد انحسار الحكم الإسلامي عنها وبقاء مظاهره في ظل حكم النورمان ، الذين توسطوا في تعاملهم مع المسلمين ، فنالوا قدراً من الحرية لم يتح لقرنائهم في الممالك والإمارات الصليبية في المشرق [٢] .

---

(١) المرجع نفسه ص **١٥** .

(٢) المرجع عينه ص **١٥** - **١٧** .

تجول ابن جبير في مدن جزيرة صقلية ، ثم غادرها نحو الأندلس ، فوصل قرطاجنة في المحرم سنة **٥٨١**هـ / **١١٨٥**م ، ومنها عاد إلى موطنه غرناطة ، ولم يمكث فيها كثيراً ، حيث غادرها مرة أخرى نحو المشرق بعد أن شاع خبر استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة **٥٨٣**هـ/ **١١٨٧**م ، ليؤدي مناسك الحج مرة أخرى ، والتقى في رحلته صلاح الدين ، وألقى عليه قصيدته يشكو فيها من عسف رجاله بالحجاج في ميناء الإسكندرية ، وذكر فيها فضله في فتح بيت المقدس ، ثم آب ابن جبير إلى غرناطة في شعبان سنة **٥٨٧**هـ/ سبتمبر **١١٩١**م[١] .

انتقل ابن جبير من غرناطة إلى مالقة ثم سبته ثم فاس ، وانقطع للعلم وسماع الحديث والنصوص، ثم غادر المغرب واتجه نحو الشرق للمرة الثالثة سنة **٦١٤**هـ / **١٢١٧**م ، وذلك بعد وفاة زوجته وشدة حزنه عليها ، فنزل مكة وجاور بها ، ثم زار بيت المقدس ، وعاد إلى الإسكندرية ، وأقام يحدث بها ويؤخذ عنه ، حتى توفى في شعبان من السنة نفسها **٦١٤**هـ/ **١٢١٧**م ، وقد تجاوز السبعين من عمره[٢] .

٣- مصر والحروب الصليبية :

بحث في تاريخ الحروب الصليبية ، يقع في **(٢٤)** أربع وعشرين صفحة ، يتتبع بطريقة علمية ظاهرة تطلع الصليبيين إلى مصر ، ومحاولاتهم العديدة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧ .

(٢) المرجع ذاته ص ١٧ .

ومشاريعهم الكثيرة لغزوها حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد صدر هذا البحث باللغة الإنجليزية سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م ، وترجمه إلى العربية الأستاذ محمد سعيد منصور(١) .

٤ـ المصريون في قبرس :

بحث يعالج فيه الدكتور زيادة حملات السلطان الأشرف برسباي(ت ٨٢٥-٨٤١هـ - ١٤٢٢- ١٤٣٨م) على قبرس علاجاً مفصلاً ، ويحلل ما صحب هذه الحملات من أحداث تحليلا تاريخياً واعياً ، وقد صدر هذا البحث باللغة الإنجليزية ، وقام الدكتور عبد الرحمن زكي بترجمته إلى اللغة العربية سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م(٢) .

٥ - المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس من جانب سلاطين المماليك في القرن الخامس عشر :

بحث يوضح فيه الدكتور زيادة جهود السلطان جقمق (ت٨٤٢- ٨٥٧هـ /١٤٣٨-١٥٤٣م) للاستيلاء على جزيرة رودس في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ومدى نجاح هذه الجهود في تحقيق أغراضها ، وقد صدر هذا البحث باللغة الإنجليزية ، وقام بترجمته إلى العربية الدكتور جمال الدين الشيال والأستاذ محمد سعيد منصور، ونشر بالقاهرة سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م(٣).

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٩ . وقد بذل الباحث قصارى جهده في الوصول إلى هذا البحث وتالييه لكنه لم يوفق في ذلك .

(٢) المرجع السابق صفحة ٩ .

(٣) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ١٠٠ ، ١٠١ .

٦ـ نهاية السلاطين المماليك في مصر :

بحث قيم ثمين أثرى به الدكتور زيادة المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م (ص ١٩٧- ٢٢٨) ، كشف به مؤرخنا في منهج علمي دقيق عن صفحات مجهولة من تاريخ العلاقات بين سلطنة المماليك والدولة العثمانية ، وتتبع هذه العلاقات حتى استيلاء العثمانيين على مصر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد (١) .

صدَّر الدكتور زيادة هذا البحث بمقدمة أوضح فيها أن بعض أجزاء هذا الموضوع معروف جيد المعرفة ، وبعض آخر منه جديد ، منبعه مؤلفات حديثة لمؤلفين أوربيين لفشر وكلود كاهن ولين وغيرهم ، والجديد في الموضوع هو معالجة الوضع التاريخي وكذلك الجغرافي لنهاية سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشام وسائر أملاكها ، أي من الناحية العالمية ؛ لأن انتهاء سلطنة المماليك واستلاء العثمانيين على سائر أملاكها الممتدة يعد حدثا عالمياً وقتذاك ذو أهميات بالغة في السياسة الجغرافية (٢) .

وأول هذه الأهميات أن انتصار العثمانيين على المماليك نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية لأول مرة في التاريخ من شمال شرقي أفريقيا وغربي آسيا إلى ركن استراتيجي عظيم بأقصى الجنوب الشرقي من أوربا . أي مدينة القسطنطينية، وهي ركن جعلت منه الدولة البيزنطية عاصمة لها ومركزاً

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٠ ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص ٢٩٨ .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ١٩٧ .

لحضارتها ورمزاً لسلطاتها الأرثوذكسية على معظم البلاد المسيحية الشرقية ، وذلك لمدة ألف عام، قبل أن يحل العثمانيون محل البيزنطيين بالقسطنطينية [١] .

وثاني هذه الأهميات أن استيلاء العثمانيين على القاهرة لم يغير من محور الارتكاز في الدولة الإسلامية فحسب ، بل نقل المذهب الفقهي الرسمي من المجتمع المصري من الشافعية إلى الحنفية ، وهذا كذلك حدث عميق الأثر كان له ما بعده على الحركة العلمية في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية ، بعد أن صار العراق كذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية [٢] .

وثمة أهمية ثالثة شهدها مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وهو التنافس الشديد بين السنة والشيعة من أجل السيادة على العالم الإسلامي ، ذلك الذي تمثل في الحروب الدامية بين العثمانيين والصفويين في إيران ، وظنت الدول المملوكية أنها سوف تفيد من هذه الحروب شيئاً لأنها ذات مصلحة كبيرة في مسألة السيادة الإسلامية العليا بوجود الخلافة العباسية بالقاهرة، غير أن سلطنة المماليك لم تفد من هذه الحروب ، ولم ينلها من مراحل المنافسة العثمانية الصفوية سوى ذهابها هي من مسرح الأحداث إلى التاريخ وكتبه وأخيلة المؤرخين ، وذلك سنة **٩٢٣**هـ/ **١٥١٧**م [٣].

غير أن المتتبع لحوادث المشرق الإسلامي من أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وحتى أواسطه لا يستطيع أن يجد فيها ما يدل على احتمال

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) المرجع ذاته ص ١٩٨ .

وقوع هذا الأمر الجلل الفاصل في التاريخ المصري الوسيط ، ولم يدر بخلد سلاطين المماليك أنفسهم أن العثمانين بعد سيطرتهم على البلقان والإمارات التركمانية في الأناضول وآسيا الصغرى سوف يمدون أبصارهم نحو السلطنة المملوكية المهيبة الجانب ، ونحو غيرها من البلاد الإسلامية ، ليكون لهم السلطان الفعلي على العالم الإسلامي كله ، بعد أن توسعوا على حساب النصارى في أوربا ، وجعلوا من عاصمة الدولة البيزنطية القسطنطينية عاصمة للمسلمين ، لم يكن باستطاعة سلاطين المماليك أن يروا شيئاً من ذلك قبل وقوعه [(١)] .

بل كثيرا ما احتفل أولئك السلاطين بالقاهرة حتى سنة **٨٦٦**هـ/ **١٤٦١**م بانتصارات الدولة العثمانية أينما تكون ، كأنما هي انتصاراتهم ، ودأب المؤرخون المصريون المعاصرون على إطراء كل سلطان من آل عثمان عند وفاته ، والإشارة بمفاخر أعماله الحربية وغير الحربية مدة حياته ، وإذا ما اعتلى العرش في إحدى الدولتين المملوكية والعثمانية سلطان جديد تبادلت العاصمتان المملوكية والعثمانية رسائل التهنئة والهدايا ، وإذا اتفق لأي من الدولتين نصر أو فتح قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال أو الزينة ، كما حدث عند فتح القسطنطينية على عهد السلطان محمد الثاني (**٨٥٥-٨٨٧**هـ / **١٤٥١-١٤٨٢**م) وتحولها إلى عاصمة للعثمانيين سنة **٨٥٧**هـ / **١٤٥٣**م [(٢)] .

وبقيت الصداقة متبادلة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ، ما بقيت أطرافهما ومنافعهما متباعدة في مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٨ .

(٢) المرجع ذاته ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

الاقتصادي أو السياسي ، ثم أخذت هذه الصداقة تتحول إلى مغايرة وتحاسد من بعد سنة ٨٨٦هـ / ١٤١٦م ، ثم إلى مباغضة وعداء لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ، وظلت هذه الحرب المملوكية العثمانية ثمانية أعوام حسوماً ، ولم يكن السلام الذي أعقبها والممتد من سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م إلى سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م سوى نفحة من نفحات الهدوء الذي يسبق العاصفة ، حتى إذا هبت هذه العاصفة هبوبها المنتظر ، اكتسحت المماليك وإمبراطوريتهم وسلطنتهم ، وأزالتهم وأزالتها من الوجود السياسي [1] .

أما النذير الأول لهذه العاصفة الكاسحة ، فكان ما وصل إلى القاهرة أواخر سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م من أنباء مفادها أن السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ / ١٥١٢-١٥١٩هـ) يعمل جاداً في إعداد دار الصناعة العثمانية بالقرن الذهبي ، لبناء أسطول جديد ، وأنه يتجهز للهجوم على السلطنة المملوكية في البر والبحر ، ولم يكذب السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦- ٩٢٢هـ / ١٥٠٠- ١٥١٦م) هذه الأنباء التي جاءت فيما يبدو مصدقة لما عنده من معلومات سابقة ، فأخذ من ناحيته يستعد للحرب ، وبات الناس في مصر لا حديث لهم في طول البلاد وعرضها إلا اقتراب يوم الفصل بين السلطان المملوكي ونظيره العثماني ، الذي صار حقيقة واقعة في موقعة مرج دابق ، وما أعقبها من دخول العثمانيين مصر وسقوط الدولة المملوكية وزوالها من الأحداث والتاريخ إلى كتبه [2] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٩ .

(٢) المرجع عينه ص ١٩٩ .

٧ـ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة :

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ط ١، ١٣٨١هـ / ١٩٦١.

كتاب ضخم يقع في (٣٥٤) ثلاثمائة وأربع وخمسين صفحة من القطع المتوسط ألفه الدكتور زيادة بتكليف خاص من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وصدر سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ويعتبر هذا الكتاب أعظم وثيقة تاريخية ظهرت – في عصره – عن الحملة الصليبية السابعة ، واعتمد فيه المؤلف على أدق المصادر الأولى مخطوطة ومطبوعة ، فضلا عن حولية (جوانفيل) (١) الشهيرة التي درسها المؤلف دراسة عميقة ؛ لاستجلاء كثير من خفايا تلك الحملة(٢) .

استهل الدكتور زيادة هذا الكتاب بتصدير له بين فيه نقطة بداية هذا الموضوع ، وهو قيام الحروب الصليبية وما تولد عنها من تفكير صليبي للاستيلاء على مصر ، دون تحديد بحادثة بذاتها أو بسنة مختارة ، فالحروب الصليبية حركة أوربية اعتدائية توسعية ، استمرت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الإسلامية الأولى في أطراف الإمبراطورية البيزنطية وفي أجواف الممالك المسيحية الغربية في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط ، وتضاف إلى هذه العوامل العالمية الكبرى نوازع

---

(١) القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د/ حسن حبشي ، دار المعارف ، مصر ، ط ١ ، ١٩٦٨م .

(٢) سعيد عاشور : الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ١٠١ .

أوربية محلية ، ترجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وإلى صميم التاريخ الأوربي في هذا القرن (١) .

ووضح الدكتور زيادة أن فاتحة هذا الموضوع ليست مشروعاً للملك الفرنسي لويس التاسع في سبيل استيلاء صليبي على مصر ، بل تفكير زعماء الصليبيين السابقين جميعاً في ذلك المشروع في صورة أو أخرى ، منذ أخذت طلائع الحملة الصليبية الأولى تصل تترى إلى بلاد الشام ، أي قبل وصول حملة لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية بنحو مائة وخمسين سنة ، أي منذ الحلول الصليبي الأول بالشام وتأسيس دولة بيت المقدس الصليبية بفلسطين سنة **٤٩٣**هـ/ **١٠٩٩**م ، مع الإشارة إلى أن طول المسافة الزمنية بين الحملة الأولى وحملة لويس التاسع لا يمحو شيئاً من الواقع التاريخي ، وهو أن الملك لويس التاسع ينتهي نسبه الصليبي إلى (جود فري) أول حكام إمارة بيت المقدس الصليبية ، وأول المفكرين من أولئك الحكام في الاستيلاء على مصر ، وكلا الرجلين فرنسي، وما بينهما من شخصيات وحوادث صليبية كثيرة لا يعدو أن يكون سلسلة نبتت بعضها من بعض في حلقات زمنية متصلة ذات إلحاح عنيد للاستيلاء على الأراضي المصرية (٢).

وبالقياس إلى الملك لويس التاسع ونسبته الصليبية تبدو شخصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب كذلك واضحة جلية ، فهو الذي تلقى مطالع الزحف الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ، وهو السليل الحقيقي لعمه الأعلى

---

(١) زيادة : حملة لويس صفحة هـ .

(٢) المرجع السابق صفحة هـ ، و .

صلاح الدين الأيوبي في الجهاد العام ضد الصليبيين في مصر والشام ، على أن هذا القياس يكشف عن فارق هام كبير بين الأيوبيين والصليبيين ، وهو أنه على حين جنح سلاطين الأسرة الأيوبية عموماً إلى سياسة المهادنة نحو الصليبيين بالشام ، مع اليقظة للجهاد الدفاعي في أي وقت من الأوقات ، لم يأل ملوك أوربا والبابوية جهداً في تكرار الاعتداء على مصر مرة بعد أخرى منذ قيام الحروب الصليبية بالشام (١) .

ونوه مؤرخنا إلى أن الكتابة في هذا الموضوع تسير على وتيرة متدرجة نحو التوسع النسبي ، ليكون الدخول بعد ذلك في صلب الموضوع على مستوى واحد من التفصيل والتحليل وهو ما تمليه قواعد التناسب التاريخي والتوزيع والتركيز (٢) .

ولفت الدكتور زيادة الأنظار إلى أن هذا البحث كغيره من البحوث التاريخية الكبرى ، يستطيع أن يطل عليه مختلف المؤرخين من زوايا مختلفة ، ومن منظور تاريخي محدود لكل واحد منهم بجغرافيته وقوميته وحضارته ، وليس معنى ذلك أن اختلاف الزوايا يغير الحقائق التاريخية ، أو يؤثر في ترتيبها الزمني ، بل معناه أن يغير النظرة إلى تلك الحقائق التاريخية تغييراً كفيلاً بعرضها في أبعاد شتى ، وأشكال مختلفة ، وتقويمها تقويمات متنوعة ، تصل أحياناً إلى درجة العكسية والتضاد ، لاسيما عند تعارض المصالح القومية الطبيعية (٣) .

---

(١) المرجع نفسه صفحة و .

(٢) المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

(٣) المرجع عينه صفحة و ، ز .

وضرب الدكتور زيادة مثلاً على اختلاف هذا المنظور التاريخي ، بأن المؤرخ الفرنسي الحديث لا يستطيع أن يرى في حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة ، ما يراه المؤرخ العربي المصري ، إذ الأول معتدٍ ، والثاني معتديً عليه ، والاثنان لا يتفقان على الحادثة الواحدة ، مع العلم بأن الجانب العربي المصري هنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار ، لكن كلاً من هذين الطرفين المختلفين لا يستطيع أن يغير شيئاً من الحوادث التي وقعت ، مع العلم بأن الحوادث التي حولت معسكر المنصورة من منزلة حربية من منازل السلاطين الأيوبيين إلى مقبرة لأطماع فرنسية صليبية ، هي بذاتها الحوادث التي جعلت مدينة المنصورة الحالية ، موضع مجد من أمجاد التاريخ المصري في مرحلة من أشد مراحله حرجاً في التاريخ كله[١] .

ويوضح مؤرخنا الملابسات التاريخية لكتابه هذا الموضوع ، وهي أنه استعد له منذ فترة طويلة ، وجمع ما تيسر له من مادة تاريخية متنوعة ، وغربلها واختزنها في مستودع الآمال ، وتعاقبت عليه السنون ، وتوارت بطاقات هذا الموضوع تحت ما استجد عليه من أعمال أخرى ، ولم يستخرج منها إلا ما يحتاج إليه من قدر ضئيل لأعمال التدريس والمحاضرة ، حتى كُلف من قبل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بتأليف كتاب في هذا العنوان وموضوعه ، ولولا ما أعده الدكتور زيادة واختزنه من مادة علمية ما استطاع – كما يقول – الإلمام بمراجعه الكثيرة للانتهاء من البحث في الوقت المحدد له [٢].

ولفت الدكتور زيادة أنظار القراء إلى أن الجزء الأكبر من المادة العلمية لهذا

---

(١) المرجع ذاته صفحة ز .

(٢) المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

الموضوع أتي من مصادر ومراجع أجنبية ، مكتوبة في نغمة صليبية ، ومن الزاوية والمنظور الأوربي ، على عكس المراجع العربية التي يتكون منها الجزء الآخر من مادة البحث ، لذا ينبغي الحذر من مادة المراجع الأجنبية ، وما تطلقه من ألفاظ ومسميات ، كلفظ أعداء الذي تستعمله هذه المراجع ، والمقصود به المسلمون ، ولكي يبرهن الدكتور زيادة على هذا التنويه جعل في ختام بحثه ملحقين لمرجعين متعاصرين متضادين (ص٢٦٣- ٣٣٧) ، وأولهما لابن واصل الحموي (مفرج الكروب) وهو من أهم المصادر العربية وأوفاها في حوادث حملة لويس التاسع على مصر ، وثانيهما (جوا نفيل) ، وهو مؤرخ فرنسي شاهد عيان لا يدانيه غيره في بعض النواحي الوصفية لحوادث هذه الحملة ، لاسيما وقعة جديلة الكبرى ، التي اشترك فيها بكتيبته وشخصه [١] .

ولقد بذل مؤرخنا في سبيل إخراج هذا العمل إلى النور بتلك الصورة القيمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فحقق بنفسه على أرض الواقع مواضع البلاد والأماكن التي دارت فيها كل أحداث الحملة ، منذ أن وطئت أقدامها أرض مصر ، حتى خرجت منها مذمومة مدحورة ، من دمياط شمالاً حتى المنصورة جنوباً ، كما ألحق الدكتور زيادة بكتابه خمس لوحات توضيحية منقولة من مصادر أجنبية مرموقة ، تصف بعض حوادث الحملة ، بالإضافة إلى مجموعة من الخرائط التوضيحية في ثنايا كتابه ؛ ليستعين بها القارئ على ضبط مواضع البلاد والقرى المتعلقة بحملة لويس التاسع وما سبقها من حملات صليبية أخرى على مصر [٢] ،

---

(١) المرجع عينه صفحة ح .

(٢) المرجع نفسه صفحة ح –ي .

وقد اشتمل هذا الكتاب على الفصول التالية :

الأول : مصر ومملكة بيت المقدس **٤٩٢- ٥٩١**هـ/ **١٠٩٧- ١١٩٣**م (ص **١- ٣٦**) .

الثاني : نشأة مدينة المنصورة **٦٦١**هـ/ **١٢١٩**م (ص**٣٧-٥٩**) .

الثالث: الهدنة بين المسلمين والصليبيين **٦١٨- ٦٤٦**هـ/ **١٢٢١- ١٢٤٨**م (ص **٦٠- ٨٦**) .

الرابع : لويس التاسع واستيلاؤه على دمياط **٦٤٣- ٦٤٨**هـ/ **١٢٤٥- ١٢٥٠**م (ص **٨٧- ١١٥**) .

الخامس : معركة المنصورة ذو القعدة **٦٤٧**هـ/ فبراير **١٢٥٠**م (ص **١١٦- ١٦٤**) .

السادس:هزيمة لويس السادس وأسره في المحرم **٦٤٨**هـ / إبريل **١٢٥٠**م (ص **١٦٥- ٢١١**) .

السابع : جلاء الصليبيين عن دمياط صفر **٦٤٨**هـ/ مايو **١٢٥٠**م (ص**٢١٢- ٢٦٢**) .

كما نشر الدكتور زيادة ثلاث مقالات في القسم الثاني من المجلد الثاني من **تاريخ الحضارة المصرية** « **العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي** » ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت ، وهي ما يلي:

٨- الدولة الأيوبية ٥٦٧- ٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م (ص٤٥٨- ٤٨٠).

تقع هذه المقالة في (**٢٣**) ثلاث وعشرين صفحة من القطع الكبير ، وتنقسم إلى شقين ، الأول : الحديث عن الجانب السياسي للدولة الأيوبية ، ظروف

نشأتها، وأشهر القوى المعاصرة لها ، وسلسلة سلاطينها ، وأهم الأعمال التي قاموا بها خاصة في مجال مواجهة الصليبيين في حملاتهم المتكررة على الشرق الإسلامي ، ثم سقوطها ، وإرث المماليك لها ، وأما الشق الثاني فتحدث عن حضارة هذه الدولة ، وأهم الموارد الاقتصادية التي كفلت لها القيام بدورها في التاريخ من زراعة وصناعة وتجارة داخلية وخارجية ، ثم الإشارة إلى أهم المؤسسات العلمية التي ظهرت في عصرها من المدارس والخوانق ، ناهيك عن المنشآت المعمارية التي قام بها سلاطين هذه الدولة من بناء القلعة وسور القاهرة والقلاع والحصون ، مع وجود حركة علمية وفكرية ما تزال آثارها حتى اليوم ظاهرة للعيان .

٩- الدولة المملوكية الأولى ٦٤٨ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ـ ١٣٨٢م (**ص ٤٨١ـ ٥٠٧**) .

تقع هذه المقالة في (٢٧) سبع وعشرين صفحة من القطع الكبير ، وكسابقتها انقسمت إلى شقين ، الأول الجانب السياسي الذي تمثل في حديث زيادة عن أصل هؤلاء المماليك ومواطنهم ، ومراحل ظهورهم في الدولة الإسلامية منذ عصر العباسيين ، وازدياد أعدادهم ونفوذهم في عصر الدولة الأيوبية ، ثم نجاحهم الباهر في وراثة أسيادهم ، وتمتع دولتهم بالشرعية بعد هزيمة حملة لويس التاسع في المنصورة ، وسحق القوات التتارية في عين جالوت، ثم إحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها في بغداد ، ومن ذلك التاريخ تعاقب غير واحد من هؤلاء المماليك على حكم مصر ، فكان منهم بيبرس ، وقلاوون ، وابنه خليل ، والناصر محمد ، وأولاده ، وأحفاده وأبناؤهم ، وكان لهذه الدولة المملوكية الأولى فضل الإجهاز على من تبقى من الصليبيين في بلاد

الشام ، وضم مملكة أرمينية الصغرى إلى مصر سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، وأما الجانب الحضاري فتحدث فيه زيادة عن النظام السياسي لهذه الدولة ، وأقسام الوظائف فيها ، والنظام الإقطاعي ، وأجناد الجيش ، وموقف المصريين من هؤلاء المماليك ، ودورهم في حكم البلاد ، وحرص المماليك سلاطين وأمراء على تخليد ذكراهم بما خلفوه من تراث معماري شاهد حتى اليوم على عظم دولتهم وغناها وقوتها .

١٠- الدولة المملوكية الثانية ٧٨٤- ٩٢٣هـ / ١٣٨٢- ١٥١٧م (ص ٥٠٨- ٥٢٨) .

تقع هذه المقالة في (٢١) احدى وعشرين صفحة من القطع الكبير ، وتعد حقبة حكم هذه الدولة من أقرب الفترات التاريخية إلى فكر الدكتور زيادة ومعارفه ، فمن خلالها نال درجة الدكتوراه عن العلاقات الخارجية للدولة المصرية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ومن جهة أخرى وضع كتابه عن المؤرخين في مصر في القرن نفسه ، فكان فارس الميدان – في عصره- الذي لا منافس له فيه ، ومن ثم فقد استهل مقالته بالحديث عن مؤسس هذه الدولة السلطان برقوق ونجاحه في الجلوس على كرسي الحكم فيها ، وتصديه للأخطار الداخلية المتربصة به ، والخارجية من جانب تيمور لنك ، وتثبيته لقواعد الملك لخلفائه من بعده الذين تعاقبوا على السلطنة ، كابنة فرج ، والمؤيد ، وبرسباي صاحب النصر العظيم في ضم قبرس للسلطنة ، وصاحب السياسات الاقتصادية الجائرة ، وجقمق الذي اتبع سياسة خارجية سلمية ، أفضت إلى هدوء فترة حكمه ثم اينال ، وابنه ، وخشقدم الذي بدأت في عصره بوادر الصدام والصراع

مع العثمانيين ، وإن كان طفيفًا لم يلفت الأنظار ، ثم خلفه يلباي ، وتمربغا ، وقايتباي الذي كان من أطول سلاطين الدولة الثانية حكماً ، وصاحب انتصارات متتالية على العثمانيين ، والذي خلفه خمسة من السلاطين المغمورين ، حتى آلت السلطنة لقانصوه الغوري ، الذي كانت الدولة قد بلغت على عهده من الكبر عتياً ، وبدت عليها علامات الزوال ، لتحول طرق التجارة العالمية من مصر إلى رأس الرجاء الصالح ، وما ترتب عليه من اصطدامه غير مرة بالبرتغاليين ، وانتصار هؤلاء عليه ، الأمر الذي أجبره على سلوك سياسة اقتصادية تعسفية ضد المصريين ، لجمع الأموال من حلها وحرامها ، فانطلقت ألسنتهم بالنيل منه ، ثم كانت القاضية تحول العثمانيين بأنظارهم إلى مصر وغزوهم لها ، وقضائهم على السلالة المملوكية الحاكمة فيها ، وفقدان مصر لاستقلالها ، مع ما خلفه هؤلاء المماليك من منشآت معمارية باهرة ، خلدت أسماءَهم ، وضاهت ما قام به أسلافهم من المماليك البحرية .

وفي خلال رحلة الدكتور زيادة إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة سنة **١٣٨٢**هـ/ **١٩٦٢**م واضطلاعه بمهمة التدريس فيها ، كتب مقالتين باللغة الإنجليزية ، نشرا بعد وفاته في كتاب (تاريخ الصليبين) .

(Ahistory of the Crusades)

إعداد : كنيته . م. سيتن (General editor Kenneth . M . Setton)

١١- المقالة الأولى عنوانها : سلاطين المماليك حتى سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م . الجزء الثاني (ص ٧٣٥- ٧٥٨) .

(The Mamluk sultans to 1293 Wisconsin 1969 voL . 11.pp 735 - 758)

١٢- المقالة الثانية : سلاطين المماليك حتى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥١٧م .
الجزء الثالث (ص ٤٩٦- ٥١٢) .

(The Mamluk Sultans to 1517 Wisconsin 1975. voL . III. Pp 496- 512) [(١)].

هاتان المقالتان متداخلتان تماما مع ما نشره الدكتور زيادة في كتاب تاريخ الحضارة المصرية من حديثه عن دولة المماليك الأولى والثانية مع الإلماع إلى أهم العوامل التي ساعدت على قيامها ، كالتصدي لحملة لويس التاسع على مصر ، وهزيمتها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وهزيمة التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ، وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وأشهر سلاطين هذه الدولة ، وتراثهم الحضاري ، ثم عوامل اضمحلال الدولة وانهيارها وسقوطها ، ولتحول طرق التجارة العالمية من مصر أولاً ، ثم هجوم العثمانيين عليها ثانياً ، ومقتل آخر سلاطينها ، وتحولها لولاية عثمانية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

تلك هي أهم مؤلفات الدكتور زيادة في مجال الموضوعات التاريخية ، وبنظرة فاحصة لها يستبين للدارس انصبابها على حقبة الدولتين الأيوبية والمملوكية تلك التي برع فيها مؤرخنا فكان فارس ميدانه – في عصره – بلا منازع كما أنها جميعاً باستثناء كتابه القيم عن حملة لويس التاسع كانت من الأبحاث العلمية أو المقالات الموجزة تلك التي نادى بها مؤرخنا ودعا إلى توفر جهود الباحثين على

---

(١) أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص ٢٩٨ ، تكرمت الأستاذة الدكتورة عفاف صبرة بإرشادي إلى المقالة الأولى ومنحي صورة منها فلسيادتها الشكر الجزيل .

مثلها بقوله : « **لا ينبغي أن تنصرف مجهودات المعنيين بالتأليف إلى المواضيع الواسعة فقط ؛ فإن كثيراً من المسائل والمشكلات المفردة في التاريخ المصري بحاجة إلى دراسة تفصيلية واستقصاء عميق كيما يصبح التعميم في المؤلفات الكبيرة بعد ذلك مأموناً سليماً** »(١)

فكان سيادته من أوائل الذين يفعلون ما يقولون ليجعل من قوله وفعله مثلاً لغيره ، وليتابع الدارس عرض النتاج التاريخي للدكتور زيادة .

القسم الثاني : الكتابات المنهجية والتأريخيـــة

برع الدكتور زيادة في هذه الناحية ، فأتحف المكتبة التاريخية بعشرة أعمال متنوعة كان في باكورتها سلسلة مقالات نادرة عن صناعة التاريخ في أربعينيات القرن العشرين ، وضح فيها بما لا يدع مجالاً للشك مقدرته الفائقة على جعل التاريخ علماً – لا فناً – له قواعد وأصول ينبغي على المنتمين إليه الإحاطة بها ، وتطبيقها في مجال كتابة التاريخ ، ولم يكن الدكتور زيادة ممن ينظر إلى غيره فحسب، بل كان من السابقين إلى تطبيقها في كتاباته ومنشوراته من التراث ، ثم كانت ذروة مؤلفاته في هذه الناحية كتاب (**المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر للميلاد / التاسع الهجري**) ذلك الذي يعد فتحاً مبيناً في مجال علم التأريخ ، وله فضل السبق فيه ، وكانت مقالاته المتتالية عن المقريزي ومؤلفاته ، وابن إياس وأعماله ، بمثابة تدعيم لجهوده في هذا المضمار ، الذي اشتمل على ما يلي :

١ـ في تقسيم التاريخ :

مقالة منشورة في مجلة الثقافة ، السنة الأولى ، العدد التاسع ، **٩** محرم سنة

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

١٣٥٨هـ / ٢٨ فبراير ١٩٣٩م (ص٢٩- ٣١).

كما نشر الدكتور زيادة عشر مقالات بمجلة الثقافة ما بين سنتي ١٣٥٨و ١٣٥٩هـ / ١٩٣٩و ١٩٤٠م، حوت كل ما جاء بعد ذلك في كتابه المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، ومن ثم فلا حاجة لضمها إلى النتاج العلمي للدكتور زيادة، وسيكون الحديث عنها ضمن الكتاب المذكور[١].

٢- ٥ صناعة التاريخ في مصر :

نشر الدكتور زيادة أربع مقالات متتالية بنفس الاسم في مجلة الثقافة وبياناتها كما يلي :

---

(١) وقف الباحث على ست من هذه المقالات وهي ما يلي :

١- المقالة الرابعة : معاصرو أبي المحاسن، السنة الأولى، العدد ٣٨، ٥ شعبان سنة ١٣٥٨هـ / ١٩ سبتمبر ١٩٣٩م (ص ١٨٦٠- ١٨٦٣).

٢- المقالة السادسة : معاصرو ابن إياس، السنة الثانية، العدد ٦٥، ١٧ صفر سنة ١٣٥٩هـ / ٢٦ مارس ١٩٤٠م (ص ٥٧٦- ٥٨٠).

٣- المقالة السابعة : معاصرو ابن إياس، السنة الثانية، العدد ٨٦، ١٦ رجب سنة ١٣٥٩هـ / ٢٠ أغسطس ١٩٤٠م (ص ١٤١٥ – ١٤١٧).

٤- المقالة الثامنة : معاصرو ابن إياس، السنة الثانية، العدد ٨٨، ١ شعبان سنة ١٣٥٩هـ / ٣ سبتمبر ١٩٤٠م (ص ١٥٠٤- ١٥٠٥).

٥- المقالة التاسعة : مقالة في النقد التاريخي المقارن، السنة الثانية، العدد ٨٩، ٧ شعبان سنة ١٣٥٩هـ / ١٠ سبتمبر ١٩٤٠م (ص١٥٤١- ١٥٤٤).

٦- المقالة العاشرة : مقالة في النقد التاريخي المقارن، السنة الثانية، العدد ٩٠، ١٤ شعبان سنة ١٣٥٩هـ / ١٧ سبتمبر ١٩٤٠م (ص١٥٨٤- ١٥٨٨).

المقالة الأولى : السنة الثانية ، العدد **٩٧** ، **٥** شوال سنة **١٣٥٩**هـ/ **٥** نوفمبر **١٩٤٠**م (ص**١٨٦٧ –١٨٦٩**) .

المقالة الثانية : السنة الثانية ، العدد **١٠٠** ، **٢٦** شوال سنة **١٣٥٩**هـ / **٢٦** نوفمبر **١٩٤٠**م (ص **١٩٨٩ – ١٩٩١**م) .

المقالة الثالثة : السنة الثانية ، العدد **١٠٥** ، **٣** ذي الحجة سنة **١٣٥٩**هـ/ **٣١** ديسمبر **١٩٤٠**م (ص **١٨ – ٢١**) [١] .

المقالة الرابعة : السنة الثالثة ، العدد **١١١** ، **١٥** محرم سنة **١٣٦٠**هـ / **١١** فبراير **١٩٤١**م (ص **١٨٩- ١٩١**) .

تعد هذه المقالات من أروع ما قرأ الدارس للدكتور زيادة في مجال المنهجية ودراسة التاريخ ، فهي جديرة باسمها ولا ريب ، وعلى الرغم من أن صفحات المقالة الواحدة لم تتجاوز ثلاث صفحات من القطع الكبير ، بيد أنها حوت ما يجل عن الحصر ، وشملت ما يمكن اعتباره - في رأي الباحث المتواضع – قانوناً ودستوراً للقوامين على هذه الصنعة ، بدءاً من التعريف بالمؤرخ ، والفارق الجلي بينه وبين معلم التاريخ أو المشتغل به ، ومصادر كتابة التاريخ ، والأدوات اللازمة للباحث ، وقواعد النشر العلمي للمخطوطات ، وبيان مدى أهميتها في كتابة التاريخ ، ثم كان مسك ختامها نظرة تنبئ عن مكانة الدكتور زيادة ومفهومه لمدرسة التاريخ في مصر ، ماهيتها ، أهدافها ، برنامجها ، منهجها ، رسالتها ،

---

(١) وصل الباحث إلى مجلد هذه المقالة وفهرسها ولكنه فوجئ بأن هذه المقالة وما بعدها ساقطة من المجلة وأن النسخ المماثلة لهذا المجلد متهالكة في دار الكتب وممنوع اطّلاع الباحثين عليها .

ونظرة عابرة على حواشي هذه الدراسة تشيء بمقدار ما أفاده الباحث منها .

٦- المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د ط ، **١٣٦٩**هـ/ **١٩٤٩**م .

كتاب متوسط يقع في (١١١) مائة وإحدى عشرة صفحة من القطع الصغير، صدره الدكتور زيادة بمقدمة سنة **١٣٦٩**هـ / **١٩٤٩**م وذيله بقائمة لمؤلفات المؤرخين الواردة في الكتاب ، ويعد هذا العمل باكورة في مجاله ، وهو أول محاولة في القرن العشرين للكتابة في علم التأريخ ، أو ما يعرف بـ (الأسطوغرافيا Historiography) ، حيث تحدث فيه الدكتور زيادة عن صنعة التاريخ في مصر في عصر دولة المماليك الثانية ، وترجم لمشاهير المؤرخين في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، محللاً أسلوبهم ومنهجهم ، وما كان بينهم من صلات ، وقد قسمهم المؤلف إلى ثلاث طبقات ، المقريزي ومعاصروه ، وأبو المحاسن ومعاصروه ، وابن إياس ومعاصروه ، ثم اختتم هذا الكتاب النفيس بدراسة ونقد مقارن عن حياة أولئك المؤرخين ونتاجهم [١] .

استهل مؤرخنا تصديره لهذا الكتاب ببيان دوافعه من تأليفه ، وهي أن الحاجة شديدة إلى معجم يحوي سير الذين يرجع إليهم الفضل في توجيه المجتمع المصري على مختلف الأزمنة والعصور ، وأن مثل هذا العمل ينادى الباحثين هل من مبتدئ ، وأردف زيادة قائلاً : ولست أعرف ممن استمعوا إلى هذا النداء

---

(١) زيادة : المؤرخون في مصر صفحة ز ، سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص **٩** ، **١٠** ، أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٨** .

وأصاخو ثم استجابوا[١] إلا نفراً كريماً قليلاً ، والعمل ضخم يتطلب مجهوداً أضخم ، والحماسة الفردية فيه كالغناء بصوت مرتفع في البادية الموحشة[٢] .

ونوه الدكتور زيادة إلى أن مثل هذا المشروع لا يقل أهمية – في حاضر الأمة ومستقبلها – عن مشروع مكافحة الأمية ، فهو مثله نوع من المكافحة في سبيل النهضة العامة للأمة ، وهو كذلك في حاجة إلى عدد من الأيدي العاملة في صمت نشيط ، ولم يُبرئ مؤرخنا نفسه من إقبال على الدعوة إلى ذلك المشروع أحياناً متقطعة ، كما لا يبرؤها من إدبار عن الكلام فيه أحياناً أقل تقطعاً ، وإن آمل أن يكفر عن هذا وذاك بتأليفه هذا الذي يحتوي على أخبار لهؤلاء المؤرخين ، الذين عاشوا في مصر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وخلفوا من المؤلفات ما سوف يبقى المصدر الأول لما يحتاجه هو واللاحقون من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ ، وما يقاربه من المعارف والعلوم ، لاسيما إذا أضفنا إلى تلك المؤلفات ما هنالك من مؤلفات ومخطوطات مطمورة لهؤلاء المؤرخين وغيرهم ، تحتوي علوماً ومعارف شتى [٣] .

---

(١) كان ممن استجاب لهذا النداء الدكتور أحمد عبد الرازق أحمد ، فوضع كتاب « دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ١- المصادر التاريخية » واشتمل على أربعة فصول في **١٩٨** صفحة ، الأول عن المصادر المصرية المعاصرة ، والثاني عن المصادر السورية المعاصرة ، والثالث عن المصادر المتأخرة ، والأخير عن المصادر الثانوية . مكتبة سعيد رأفت ، الزيتون، د ط ، **١٩٤٧**م .

(٢) زيادة : المؤرخون في مصر صفحة هـ .

(٣) المرجع السابق صفحة هـ ، ز .

وأوضح مؤرخنا لقارئه السبب الذي جعله يقتصر على هذه الطائفة من المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي دون غيره من القرون والأزمان والبلدان ، بأن تلك صدفة محمودة غير مقصودة ؛ إذ أعد هذه التراجم في سنة **١٣٤٦**هـ / **١٩٢٧**م لتكون فصلاً إضافياً لرسالة الدكتوراه « **العلاقات الخارجية للدولة المصرية في القرن الخامس عشر للميلاد** » بعد الاستقرار على عدد فصولها ، حيث رغب أستاذه ومشرفه (كوبلاند) أن يبين له زيادة الأصول والمصادر العربية التي استقى منها حقائقه الكثيرة ، ليكون على بينة من أمره وأمرها ، وليلقى عليه درساً في الجرح والتعديل – وهي العدالة والضبط على قول المحدثين – وعاد زيادة إلى مصر ليعمل في كلية الآداب ، وألفى هذه التراجم خير مقدمة لدراسة الشطر الثاني من التاريخ المملوكي ، فنقلها من الإنجليزية إلى العربية ، ووضع لمسات تقويمه عليها ، ونشرها في عشر مقالات بمجلة الثقافة سنتي **١٣٥٩** و**١٣٦٠**هـ / **١٩٤٠** ، **١٩٤١**م ، وما لبث أن ظهرت له معلومات جديدة مما ينشر من المخطوطات المحققة ، فعكف مؤرخنا على تقويم هذه التراجم وتعديلها بالإضافة أو الحذف ، وأخرجها في هذا الكتاب القيم الذي نعرض له[١] .

ولفت الدكتور زيادة الانتباه إلى أنه لا يريد من مُؤَلَّفِهِ هذا التنويه بتلك الفئة من المؤرخين فحسب ، بل يريد كذلك الإشارة إلى مؤلفاتهم التي كانت لا تزال في وقته مبعثرة تسبح في ظلمات المخطوطات في الشرق والغرب ، وهي متفاوتة القيمة ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات ، فهي دعوة منه لنشر الأهم

---

(١) المرجع نفسه صفحة ز ، ح .

فالمهم دون النظر لأحجامها[١] .

كما أعلم مؤرخنا قارئه بمنهجه في هذا العمل بأنه لم يستمد مادته العلمية في مؤلفه هذا من كتب التراجم فحسب ، بل قرأ جميع ما وصلت إليه يداه من مؤلفات القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بمصر في التاريخ وغيره ، مطبوعاً ومخطوطاً ، واستخرج من هذا وذاك معلومات كثيرة عن طريق المقارنة والاستنتاج ، كما وقف على حقائق تاريخية في غير مظانها من المؤلفات الأخرى ، وأنه ما سطر عنوان مؤلفه مقروناً بالتاريخ الميلادي حباً في الفرنجة ، ولا هجراً للتوقيت الهجري ، بل قصد من ذلك أن يكون بحثه مرآة لناحية من نواحي الحياة العلمية والثقافية في مصر في العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناها الإسلامي الخاص ، وليدلل على مبلغ ما أسهمت به مصر في التراث الإنساني ، وليبرهن على أن المجتمع المصري الإسلامي في هذا العصر كان ولا يزال جزءاً هاماً من المجتمع الإنساني[٢] .

ولكي يبرهن الدكتور زيادة على منهجه هذا بطريقة عملية عقد مقارنة بين المؤرخين في هذا القرن الذي أنجب المقريزي وابن حجر وابن تغري بردي وابن إياس في الشرق ، و(حنا لفيفر) و(فروا سار) و(مونستر ولية) في الغرب ، وليس المقصود المقارنة – كما يقول زيادة – في الأسماء فحسب ، بل تتعدى إلى الخصائص والوسائل والغايات عند المؤرخين في مصر ، و نظرائهم في أوربا – كل على شاكلته ونضج بيئته وشخصيته وأحواله – فابن حجر أشبه حنا لفيفر في

---

(١) المرجع عينه صفحة ح .

(٢) المرجع ذاته صفحة و ، ز ، ط .

أن كلاً منهما تولى وظيفة كبيرة مسئولة في بلده ، وكتب على تلك الوظيفة مذكرات ضافية في بعض صفحاتها أسرار عصره ، بالإضافة إلى أن معظم المؤرخين في الشرق والغرب استخدموا وسائل متشابهة في جمع الحقائق والأخبار وتدوينها ، فتعقبوا الحوادث وتفاصيلها ، كما يتعقب الصحفي مادته الصحفية اليومية ، وابتدأوا مؤلفاتهم بأصل الكون وتاريخ الخليقة ، وانتهوا بالسنوات التي عاصروها وشهدوها ، كما دأبوا على طريقة الحوليات الرتيبة ، ونقلوا من كتب السابقين في غير خشية أو قصد أو اعتراف بالنقل ، مع الاشتغال بنظم الشعر والإجادة فيه ، إلى جانب صناعة التاريخ [١] .

وقد اشتمل هذا الكتاب على أربعة فصول جاءت على النحو التالي :

الأول : **المقريزي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ومعاصروه (ص٣- ٢٥)** .

حيث تحدث فيه الدكتور زيادة عن شيخ مؤرخي عصره المقريزي الذي اعتز به كثيراً ، فوصفه بشيخه وأستاذه ، فعرف به ، وسار معه في أطوار حياته ، وألمح إلى أشهر مؤلفاته ، وختم الفصل بمعاصريه من المؤرخين ، كابن حجر العسقلاني ت **٨٥٢**هـ / **١٤٤٨**م ، والعيني ت **٨٥٥**هـ / **١٤٥١**م ، وابن عربشاه ت **٨٥٤**هـ / **١٤٥٠**م ، وخليل بن شاهين ت**٨٩٣**هـ / **١٤٨٨**م ، وأخيرا الخالدي ت بعد سنة **٨٣٦**هـ / **١٤٣٢**م ، مترجماً لهم ، ومعرفاً بأهم مؤلفاتهم .

الثاني : **أبو المحاسن ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ومعاصروه (ص٢٦- ٤٥)** .

تناول فيه الدكتور زيادة أصل هذا المؤرخ ، وعلاقة أبيه بالسلطان فرج بين

---

(١) المرجع نفسه صفحة ط ، ي .

برقوق ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م ، ونشأته يتيماً في كفالة أزواج أخواته ، ومراحل حياته ، وثقافته وشغفه بالتاريخ ، وأهم مؤلفاته ، ومعاصريه من المؤرخين كابن الصيرفي ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م ، والسخاوي ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م ، مترجماً لهما ، ومعرفاً بأشهر مؤلفاتهما .

الثالث : **ابن إياس ت ٩٣٠هـ** / **١٥٢٣م ومعاصروه (ص٤٦- ٨٠)** .

حيث تعرض الدكتور زيادة فيه لأصول هذا المؤرخ منذ عصر دولة المماليك الأولى ، وسار حتى وصل إليه ، فعرف به ، ونوه إلى حياته وثقافته وعلومه وأشهر مؤلفاته وشخصيته الناقدة ، ثم عرف بمعاصريه من المؤرخين ، كالسيوطي الموسوعي ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، وعبد الباسط بن خليل ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ، وحسن الطولوني ت بعد سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، وابن زنبل الرمال ت بعد سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ، وأخيراً محمد بن طولون الدمشقي ت ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م ، مع الإلماع لأشهر مؤلفاتهم .

الرابع : **خاتمة ونقد مقارن (ص٨١- ١٠٥)** .

يعد هذا الفصل الأخير ذروة ما سطره الدكتور زيادة في هذا الكتاب النفيس، وحمل محتواه ما جاء في عنوانه وهو أمرين :

الأول : تعقيب نقدي من الدكتور زيادة على ما جاء من أخبار المؤرخين السابقين الذين وردت تراجمهم في الفصول الثلاثة .

الثاني : تحليل مقارن لمؤلفاتهم من حيث إنها نتاج شامل لمرحلة من مراحل التاريخ المصري مدتها قرن ونيف من السنين .

وفيما يتعلق بالأمر الأول فقد توصل الدكتور زيادة من خلال دراسته

لطبقات هؤلاء المؤرخين إلى مجموعة من العوامل المشتركة التي جمعت بينهم في أغلب الأحيان وهي ما يلي :

أ – أنهم كانوا في الغالب ممن شغلوا أو طلبوا وظائف كبيرة في الدولة المملوكية ، وأنهم جمعوا إلى ذلك بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتآليف المتنوعة ، فالمقريزي مثلاً تولى التوقيع بديوان الإنشاء ، ثم حسبة القاهرة والوجه البحري ، فضلاً عن عمله سنوات عدة مدرساً للحديث في مصر والشام ، ومع هذا فشهرته مبنية على ما كتبه في التاريخ ، وكذلك جل مؤرخي هذا القرن[1] .

ب– ممارسة هؤلاء المؤرخين لنظم الشعر في مناسبات مختلفة ، مما يوحي أن هذا الفن كان من متطلبات مثقفي ذلك العصر[2] .

ج– شدة التحاسد والتباغض بين أولئك المؤرخين ، ذلك الذي يستشفه القارئ – كما يقول زيادة – لكتبهم في غير عناء ، وسببها في الغالب ما تولد بينهم من منافسة أو تعصب لمشايخهم ، سواء أكانوا مؤرخين أم محدثين أم موظفين في الدولة المملوكية ، فلم يخل من ذلك التحاسد أمثال ابن حجر المعروف بالاتزان والوقار ، فإنه كره العيني كرهاً تماماً ، ولم يستطع أن يسكت عن سرقاته فيما ألف في الحديث والتاريخ ، فرماه بما سمح به قلمه من التجريح[3] .

د – اتفاق أولئك المؤرخين في صفة التصنع في مقدمات مؤلفاتهم ، والدعوى أنهم يؤلفونها لأنفسهم خاصة ، أو نزولاً على رغبة صديق من الأصدقاء ، وأنهم لا

---

(١) زيادة : المؤرخون في مصر ص ٨١– ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٨٤ – ٨٦ .

يريدون من ذلك جزاءاً أو نفعاً أو صيتاً أو حباً في استجلاب الرضا من أمير أو سلطان ، لاسيما إذا كان الحظ لم يسعف مثل هذا المؤلف في القرب من البلاط ، والدليل على ذلك أن الذين نالوا شيئا من التشجيع والرضا عند بعض أولى الأمر في الدولة لم يكتبوا مثل تلك العبارات المصطنعة في افتتاحيات مؤلفاتهم ، بل ذكروا اسم الأمير أو السلطان صاحب الفضل عليهم[١]

هـ – أن الغالبية العظمى من مؤلفات مؤرخي القرن التاسع الهجري في مصر ليست سوى ذيول وتكميلات لكتب سبقتها زمنياً ، والهدف من ذلك أن يستمد المؤرخون لأنفسهم من شهرة سابقيهم ، بربط مؤلفاتهم إلى كتب سلم الناس بأهميتها قبلاً ، أو أن يدعوا أنهم هم الوارثون لسالفيهم ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى المقريزي الذي ذيل على نفسه في تأليفه كتاب السلوك ، ليكمل به سلسلة مؤلفاته الخالدة في تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى عصره[٢].

و– اتفق أولئك المؤرخون بصورة غير متساوية على تأليف الكتب الصغيرة، بجانب انشغالهم بالمؤلفات الكبيرة والحوليات ، واتجاه بعضهم كالسخاوي وابن تغري بردي إلى اختصار الكتب الكبيرة المنسوبة لأسلافهم ، على أن إنتاج البعض الأول من ذلك الصنف من التأليف هو القمين بالانتباه ، فمؤلفات المقريزي الصغرى مثلاً تتصف بصفات خارقة ، حيث تظهر فيها شخصية المؤلف ، فيحلل ويعلل ويفلسف ويتحلل من القيود المفروضة عليه في المؤلفات

---

(١) المرجع ذاته ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) المرجع عينه ص ٨٨ – ٩٠ .

الكبرى ، التي لا ترى فيها شخصيته إلا بمنظار[١] .

وبعد هذا التعقيب النقدي من الدكتور زيادة على كتابات مؤرخي القرن التاسع الهجري **يأتي الأمر الثاني المرتبط بالتحليل المقارن لمؤلفاتهم** ، من حيث إنها منابع أصيلة للتاريخ المصري في عصرها ، والتعريف بمنهج الكتابة ، وشرح طريقة التأليف والترتيب عندهم شرحاً استقرائياً ، والذي يمكن حصره فيما يلي:

أ – اتباع مؤرخي ذلك العصر طريقة الاستطراد في التأليف ، فلم يفرقوا بين التاريخ وغيره من العلوم الأخرى ، وبدأوا مؤلفاتهم ببدء الخليقة ، واستطردوا حتى وصلوا إلى عصرهم ، فتعمقوا ورتبوا مؤلفاتهم على طريقة الحوليات ، وفصلوا الحوادث تبعا للسنين ، فلم يؤلفوا من أعمالهم قصة متصلة مع التفاوت بينهم في طرق الترتيب والتنظيم ، بيد أن هذه الطريقة – كما يقول زيادة – ليست من التاريخ بمعناه الحديث في شيء ، لقطع تتابع الحوادث[٢] .

ب– اكتفاء هؤلاء المؤرخين في الأغلب بذكر الحقائق مجردة عن أسبابها دون الربط بينها وبين سابقها ، والإقلال من التحليل أو التعليل والنقد ، وإن بدا منهم ذلك فكان للعظه والعبرة [٣] .

ج – اعتياد هؤلاء المؤرخين نقل الأجزاء غير المعاصرة من سابقيهم مع التنويه أحياناً بذلك ، وعدم التعرض للمنقول بنقد أو تعليل إلا قليلاً ، وإن كانت هذه الطريقة البدائية قد عادت بفائدة جديرة ، وهي حفظ كتب مفقودة

---

(١) المرجع ذاته ص ٩٠- ٩٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٢- ٩٨ .

(٣) المرجع عينه ص ٩٨ ، ٩٩ .

أصولها حتى الآن ، ولولاها ما وصل شيء للمتأخرين من هذه المؤلفات ، ولما عرفت أساليبهم وأنماطهم [١] .

د – فيما يتعلق بالقيمة العلمية لكل من الأجزاء المعاصرة في تلك المؤلفات جميعاً ، فقد ارتبطت بها استقام للمؤلف من مقدرة على استقاء الأخبار من منابعها، وعلى غربلتها وفحصها ، وعلى هذا المقياس فقد كان **المقريزي** رجلاً نقادة فيما عاصره من أحداث ، يعرف الغث من السمين ، لذا يجد القارئ لديه معلومات قلما يجدها عند غيره من معاصريه ، فضلاً عن انفرادها بحقائق ضافية في أحوال المعاملات الاقتصادية ، بيد أنه احتد في تأريخه لعصر برسباي لنفوره منه ومن سياساته ، فتحامل عليه ، بينما جاءت كتابات **ابن تغري بردي** في النجوم الزاهرة أعدل لفظاً وحكماً ؛ لأنه كان من الحائمين حول قصر ذلك السلطان ، وإن كان الثاني ناقلاً عن الأول في معظم ما كتب دون إشارة إلى ذلك إلا إذا أراد الانتقاد والاستدراك عليه صرح باسم المقريزي، وفيما عدا ناحية النقد هذه فإن ما أورده ابن تغري بردي بصدد كثير من الحوادث من تصويب جاء أقرب إلى الحقيقة والواقع مما كتب المقريزي الذي كان يستدبر عمره وذاكرته وعلاقته بينما كان أبو المحاسن يستقبل كل هذا [٢] .

وأما **العيني** فإن القيمة النسبية للجزء المعاصر من تاريخه عقد الجمان والمعاصرة لسلطنة برسباي موضع نظر ؛ لأن الرجل كان يجالس هذا السلطان ليقرأ عليه من تاريخه ، كما كان دائم التملق لسابقيه من السلاطين ، واستمد **ابن**

---

(١) المرجع ذاته ص **٩٩** .

(٢) المرجع نفسه ص **٩٩** – **١٠١** .

حجر في إنبائه من العيني ولكنه لم يتعقب عثراته بالعدالة والضبط كما فعل ابن تغري بردي مع المقريزي ، بل اعترف بالنقل منه صراحه ، أي أن الكتابين يكمل كلاهما الآخر في كثير من المواضع ، مع الأخذ في الاعتبار اقتصار كتاب ابن حجر على ما عاصره من أحداث ، واشتمال كتاب العيني على تاريخ مصر من بدء الخليقة حتى عصره ، ومع هذا فالأول منهما اشتمل على تعليقات انفرد بها ابن حجر عن سائر المؤرخين المعاصرين والسابقين ممن استقى منهم ، وأما ابن إياس فافتقد إلى التفاصيل التي توفرت عند سابقيه ، ومع اختصاره وعزوفه عن الإطالة والإطناب حتى في الأجزاء المعاصرة ، إلا أن أسلوبه مطبوع بطابع الذكاء والدقة[١] .

هـ - اتفق مؤرخو القرن التاسع الهجري على معرفتهم الجغرافية الجيدة بالبلدان الإسلامية المجاورة ، بفضل رحلاتهم المتكررة إليها ، وأما الممالك البعيدة عنهم فكانت معارفهم عنها غير قليلة بالقياس إلى معلومات تلك العصور ، كما اتسمت مؤلفات هؤلاء المؤرخين بسقم الأسلوب العربي ، وماجت فيها ألفاظ وعبارات لا تمت إلى العربية بصلة ، وعاميات غريبة ، واصطلاحات غامضة خلت منها القواميس والمعاجم ، ويرجع هذا كله إلى ذيوع اللسان التركي بين الخاصة والعامة ، ودخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة في مصطلحات الجيش والدواوين ، وكل هذا شكل عبئاً على قراء التاريخ ، إلا أنه يعد مادة للمعنيين بتاريخ اللغة والأدب واللهجات في تلك العصور [٢] .

---

(١) المرجع ذاته ص ١٠١ – ١٠٣ .

(٢) المرجع عينه ص ١٠٣ – ١٠٥ .

لا مراء في أن الدكتور زيادة بهذا الفصل النقدي قد أفصح عن سبره لأغوار مؤرخي القرن التاسع الهجري ، ليس من قبيل الترجمة لهم وعرض مؤلفاتهم فحسب ، بل عن طريق الدراسة المقارنة لهذه المؤلفات ، وسمات كاتبيها المشتركة بينهم أحياناً ، والمختلفة حينا ، مع تحليله لهذا التراث من حيث مطابقته لمفهوم التاريخ قديماً وحديثاً ، وبيان مواطن التفرد والتميز بين نتاج هذا وذاك ، ومقدار ما أضافه هؤلاء من معارف عصرهم لمؤلفاتهم ، والتباين بينهم في طريقة العرض والترتيب ، وعلاقة هذه المؤلفات بعضها ببعض في الأجزاء المعاصرة منها ، ومقدار ما تحلى به هؤلاء المؤرخون من حاسة النقد والتعليل والتحليل أو الاستنباط ، ذلك الذي بدر منهم على استحياء في مواطن غير كثيرة ، بيد أنها نمت عن شخصية كل منهم ، وتفردهم بشيء من هذا أو ذاك .

وبالإضافة إلى ما سبق عرضه من نتاج فقد أسهم الدكتور زيادة بمقالتين في موسوعة تراث الإنسانية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت وهما :

٧- السلوك للمقريزي ، **الجزء الثاني** (**ص٥٠٩ – ٥٢١**) .

فاح حديث الدكتور زيادة عن المقريزي في هذه المقالة بالوله والحب الشديدين ، والاعتراف بفضله ومكانته بين سابقيه ومعاصريه من المؤرخين ولاحقيه ، وحرص زيادة على إثبات تلمذته للمقريزي بوصفه أنه شيخه ، كما قدم عرضاً شائقاً لترجمة أستاذه ، بين فيها أصله ونشأته وفكره ، وتأثره بابن خلدون لمعاصرته إياه ، وتتبع الوظائف التي تقلب فيها من الديوانية كالكاتب والنائب ، والدينية كالإمامة والتدريس والحسبة ، معرجاً بين هذا وذاك إلى

زواجه وأولاده ، ثم منوهاً إلى ما للمقريزي من باع طويل في سلك التأليف ، الذي تجاوز إسهامه فيه ما يزيد على مائة كتاب ، ما بين مطول ومتوسط وموجز ، وما بين تراجم وتاريخ وخطط ورسائل متخصصة في موضوعات بذاتها ، مع الإشارة إلى رحلاته التي قام بها نحو الحجاز والشام ، والتي ألف فيها غير واحد من هذه الأعمال ، وحرص زيادة على التنويه بمكانة شيخه كمفكر ، ونظرته للتاريخ ، وفلسفته أحياناً ، ومنظوره التاريخي الذي يكتب منه ، ناهيك عن وطنيته تلك التي تجلت في كتاباته غير مرة وهو يتحدث عن حارته ووطنه مصر مسقط رأسه وملعب أترابه ، وختم زيادة مقالته الشيقة تلك بالحديث عن ذروة سنام مؤلفات المقريزي السلوك(١) .

يعد هذا الكتاب فخر مؤلفات المقريزي من حيث إنه منتهى مهاراته ، وخاتمة خبراته ، وقمة تجاربه ، وأوج نضوجه العقلي والعلمي والفني في كتابة التاريخ ، وأوضح زيادة منهج المقريزي في كتابه هذا ، وترتيبه على النظام الحولي ، مبتدأً بالسلاجقة حتى عصره ، وتوسعه في القسم الأخير منه ، حتى غدا السلوك سجلاً يومياً صافياً بأخبار مصر وما يقع فيها وفي جاراتها من الدول من الحوادث الكبرى والصغرى ، مع الإلماع إلى الأحوال الاقتصادية والتجارية والدينية والعمرانية ، فضلاً عن التراجم التي يذيل بها سنواته ، ثم دعا مؤرخنا قارئه إلى مطالعة كتابه هذا خاصة ، وعامة مؤلفات المقريزي ، لمشاركة المؤلف في تجربته ، فإذ لم تسعفه الفرصة لذلك فلا أقل من استعراض تلك الصفحات النموذجية التي ذيل بها المقال عن جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، وفتح بيت المقدس

---

(١) زيادة : السلوك للمقريزي ، تراث الإنسانية ٢/ ٥٠٩ – ٥١٤ .

سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وصفحات مماثلة عن عصر الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م ليرى ما للمقريزي من قدرات ومهارات في كتابة الأخبار التاريخية ، أو رسم اللوحات القلمية الواصفة لشخصية من الشخصيات الهامة في التاريخ المصري[1] .

٨ - بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس (ص٢٤٩ – ٢٧٠) .

وضع الدكتور زيادة ابن إياس ومُؤلَّفه بدائع الزهور في صدارة القسم الثالث من مؤرخي مصر في القرن التاسع الهجري ؛ لبراعته في التأريخ لهذه الحقبة الأخيرة من تاريخ مصر المملوكية ، وبداية الحكم العثماني في كتابه الذي يعد القسم المعاصر منه هو المصدر شبه الوحيد في تاريخ هذه الفترة من حياة مصر ، التي شهدت انهيار دولة المماليك ، وفقدان مصر لاستقلالها ، وتحولها من سلطنة مستقلة إلى ولاية عثمانية متبوعة [2] .

وابن إياس مؤلف بدائع الزهور يعود بجذوره إلى طلائع الدولة المملوكية الأولى ، حيث كان أجداده من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يكتب لهم المضي قدماً في هذا المضمار ، ومواصلة العمل العسكري ، فعاش أجداد ابن إياس الأقربين وأبيه على هامش سياسة هذه الدولة ، فيما عرف بفرقة أولاد الناس ، تلك التي تعيش على ما تبقى لها من إقطاع صغير ، بيد أنه كافٍ لحياة كريمة ،

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٥١٤- ٥٢١ ، سبقت الإشارة إلى مواطن هذه الاقتباسات وموضوعاتها عند الحديث عن جهود الدكتور زيادة في مجال نشر التراث وتحقيقه بالمبحث الثاني ص ١٠٣ ،١٠٤ .

(٢) زيادة : بدائع الزهور ، تراث الإنسانية ٣/ ٢٤٩ .

بشرط ولائهم للدولة ونفورهم معها إذا ألم بها خطب عسكري ، وفي هذا المحيط نشأ ابن إياس ، فكان قريباً من أهل الحكم والإدارة ، دون أن يقع تحت طائلتهم ، فأتاح له ذلك رؤية الأحداث عن كثب دون الولوج فيها أو التأثر بها ، فانكب على تحصيل علوم عصره ومعارفه كمعاصريه من أولاد هذه الفرقة ، دون أن يتطلع إلى وظيفة رسمية كتلك التي كان يقوم بها أخوة يوسف الزردكاش [١] .

وعاصر ابن إياس منذ نعومة أظفاره ظهور قوة العثمانيين على الساحة الدولية ، وفتحهم للقسطنطينية ، وعاين عهود غير واحد من سلاطين المماليك حتى عصر قايتباي ، الذي اصطدم بالعثمانيين غير مرة ، وحقق النصر عليهم في جولاته تلك ، بينما كان ابن إياس قد أتم نصف قرن من عمره ، كما شاهد من نافذته المملوكية الحوادث العالمية السياسية والاقتصادية ، ولم يكن ابن إياس من رجال السياسة فتطربه الانتصارات ، ولا من رجال الاقتصاد فتزعجه تحركات البرتغاليين ، بل كان يشمر عن ساعد الجد لجمع مادة كتابه ، فأحاط بالمصادر التاريخية الأولى ليضمها إلى كتابه ، الذي أراد منه أن يكون مستودعاً للأحداث منذ بدء الخليفة حتى عصره ، وشرع في عمله هذا سنة **٨٨٩**هـ / **١٤٩٣**م ، وواصل الجهد منكباً حتى وصل بحوادثه إلى سنة **٩٢٨**هـ/ **١٥٢١**م ، وتوفى في تاليها[٢] .

ولا تقتصر أهمية هذا الكتاب على الأجزاء المعاصرة منه فحسب ، بل تتعدى

---

(١) المرجع السابق **٣/ ٢٤٩ – ٢٥١** . والزردكاش هو المسئول عن السلاح وصناعته . دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ص **٨٦** .

(٢) المرجع نفسه **٣/ ٢٥١ – ٢٥٣** .

في كثير من الأحيان الأجزاء غير المعاصرة التي نقلها لنا ابن إياس بنصها من مصادر أخرى ضاعت أصولها ، فحفظها لنا في كتابه ، ويعد الجزء المعاصر من بدائع الزهور أهم ما في هذا السفر ؛ إذ يكاد يكون المصدر الوحيد للتأريخ لهذه الفترة من نهاية حكم المماليك وبداية الحكم العثماني لمصر ، ففيها يستكمل ما توقف عنده ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، ويسير ابن إياس في كتابه كمعاصريه على المنهج الحولي فيما سبق ، حتى إذا ما وصل لعصره توسع شيئاً فشيئاً ، حتى غدا سجلاً يومياً لأحداث مصر وغيرها من مجاوريها ، مشتملاً على كافة نواحي الحياة المصرية ، من سياسة واقتصاد وعلوم وفنون ، فهو سجل حافل لعصره ذا مصداقية ، لأن مؤلفه ما كان من أرباب الوظائف الذين يمنحون فيمدحون ، بل كان مؤرخاً مصرياً ، يرصد مساوئ السلاطين بقلمه الناقد ، مما ينم عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يدانيه فيها معاصروه من المؤرخين ، فلم يقتصر ابن إياس على إيراد الحوادث ، بل كان يقف بين هذه وتلك ، يفلسف الأحداث ، ويشرحها مع شيء من القسوة في الحكم وجرأة في التقدير ، وربما شجعه على ذلك صلاته بالبلاط السلطاني عن طريق أخيه يوسف الزردكاش ، وابتعاده عن الوظائف الرسمية في الدولة ، كما فج من كتابه أريج المرارة والحزن عند حديثه على الغزو العثماني لمصر ، وفقدان استقلالها ، وانتقد في جرأة محمودة العثمانيين لتسلطهم وبداوة حضارتهم ، فلم يشاركهم احتفالاتهم ، ولم يحفل بما يقومون به ، وربما كان ذلك سبباً في إخفاء ترجمته عن العيون والأنظار(١).

---

(١) المرجع ذاته ٣/ ٢٥٤ – ٢٥٧ .

وعلى هذا – كما يرى الدكتور زيادة – يمكن اعتبار ابن إياس طليعة مبكرة من طلائع الوطنية في الشرق العربي ، وتكون كتاباته المعاصرة في بدائع الزهور أول صيحة طيبة من صيحات الاحتجاج ضد مظالم الحكم العثماني ، الأمر الذي أضفى على كتابه أهمية قصوى دفعت القوامِّين على النشر للاهتمام به شرقاً وغرباً، وإخراجه في طبعات عدة ، تُوجت بنشر الدكتور محمد مصطفى صفوت له في أجزائه كاملاً ، كما ذيل الدكتور زيادة مقاله هذا بمقتبسات منه [١] .

وكان مسك ختام هذا الصنف من النتاج التاريخي للدكتور زيادة اشتراكه ببحثين في الحلقة التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالتعاون مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة **١٣٨٦**هـ/ **١٩٦٦**م ، والذي صدر في كتاب بعنوان دراسات عن المقريزي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د ط ، **١٣٩١**هـ/ **١٩٧١**م وهما :

٩ـ أحمد بن علي المقريزي (**ص ٧- ١٢**) .

استهل الدكتور زيادة حديثه في بحثه هذا بالإشارة إلى الجديرين بالتقدير والمحبة من الأعلام في أي عصر من العصور ، وهم الذين يعطون لوطنهم من الخدمة أكثر مما يأخذون منه ، ويقدمون له من الخير أكثر مما يصل إلى أيديهم من المنفعة لأنفسهم ، ومن هؤلاء الأعلام شيخ المؤرخين المقريزي ومنبع هذا الاستحقاق والتكريم مؤلفاته الخالدة في مختلف العلوم الاجتماعية في عصره ، وبهذه المؤلفات ينال المقريزي أعلى المؤهلات التي تستخدمها الهيئات الأكاديمية

---

(١) المرجع نفسه **٣/ ٢٥٧** ، سبقت الإشارة إلى هذه المقتبسات عند تناول جهود زيادة في مجال نشر التراث وتحقيقه بالمبحث الثاني ص ١٠٤– ١٠٦ .

الحديثة في تصنيف طبقات المؤرخين الباحثين، فهو أستاذ مبتكر مثابر صابر أمين في كل أعماله العلمية ، وهو بجلوسه الفعلي والمجازي في كرسيه الأستاذي العالي بين أجيال تلاميذه ومريديه وقارئيه حتى العصر الحاضر ، فضلاً عن أجيال مشايخه وسابقيه ، جدير بأن يسمى عميد المؤرخين السالفين جميعاً من ابن عبد الحكم حتى الجبرتي[1] .

وهذه الجدارة صادرة – كما يقول الدكتور زيادة – من ثلاث اعتبارات **أولها**: أخلاقه الشخصية ، وما فيها من إيمان بحب الوطن ، والاستقلال في الرأي ، والمناداة الدائمة بضرورة إصلاح أحوال الأمة كلها .

ثانيها : صفات مؤلفاته نفسها من حيث الدقة في إيراد الحقائق ، والتخصص المتنوع ، وحسن التوزيع ، والنسبية والمنظورية في كتاباته .

ثالثها : ما أودع المقريزي في الأجزاء غير المعاصرة من مؤلفاته التاريخية من اقتباسات طويلة وقصيرة من أمهات ووثائق لا تزال أصولها مفقودة[2] .

ويروي الدكتور زيادة في بحثه هذا ذكرياته الأولى عن شيخه وأستاذه المقريزي ، وبداية معرفته به ، عندما كان يحبو في ميدان البحث العلمي إبّان إعداده لرسالة الدكتوراه ، فإذا به يرفع رأسه وينظر بمخياله إلى رجل كالملاك الباسم – كما تصوره مصادر العصور الوسطى الأوربية – يحمل بيمينه كتاب السلوك ، الذي كان أول ما قرأه زيادة من نتاجه ، ثم كان له شرف الاجتهاد في نشر نصفه وإخراجه من ظلمات المخطوطات إلى نور المطبوعات في صورته

---

(١) زيادة : أحمد بن علي المقريزي ص ٧ ، ٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

العلمية الصحيحة وبلغة مؤلفه ، وذلك بعد نشر أجزاء منه في لغات أوربية على يد(كاترمير) و(بلوشيه) سنتي **١٢٥٣** و **١٣٢٦**هـ/ **١٨٣٧** و**١٩٠٨**م [(١)].

ويصف الدكتور زيادة بعض نسخ مخطوطات كتاب السلوك التي وقف عليها بنفسه في داخل مصر وخارجها ، والتي بلغت أربعة أجزاء ضخمة أرخت لعصر الدولتين الأيوبية والمملوكية في مصر حتى عصر المؤلف ، الذي صدَّر هذا الكتاب بتمهيد لتأريخ مصر قبل ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة السلجوقية في فصول موجزة لا تتجاوز الأربعين ورقة ، وذلك في مهارة علمية واضحة ، ومن مصادر تاريخية أصلية ومشهورة ، وكان باستطاعة المقريزي الإفاضة في هذه الموضوعات ، ولكن هذا لم يكن من صفاته في هذا الكتاب ، ولأنه رسم لنفسه خطة مرتبة استهدف فيها أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الإسلامية التي حكمت مصر حتى عصره في تأليف مستقل ، وبدأ هذا الترتيب التاريخي بكتاب (البيان والإعراب فيمن دخل مصر من الأعراب) ، ثم أعقبه بكتاب (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط) ، وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربي إلى قيام الدولة الفاطمية بها ، ثم أتبع ذلك بكتاب في الدولة الفاطمية سماه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) ، ثم سطر بعد ذلك كتابه السلوك[(٢)]

وسار المقريزي في مُؤَلَّفه هذا بعد الفصول الافتتاحية على نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين ، وتدوين حوادث كل عام تدويناً

---

(١) المرجع نفسه ص **٨** ، **٩** .

(٢) المرجع ذاته ص **٩** ، **١٠** .

مستقلاً ، وتحت عنوان لها ، وختم الحوادث بذكر الوفيات مع الاختصار المتعمد لها ، ودون الربط بين سنة أو أخرى ، أو أن يؤلف من كتابه موضوعاً متصلاً مستقلاً بذاته ، وتوسع المقريزي في كتابه حتى صار على عصره سجلاً يومياً ضافياً للأحداث في مصر وخارجها ، مع اشتماله على نواحي الحياة اليومية وما فيها من أنشطة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية أو دينية ، فضلاً عن التراجم التي تطول أو تقصر تبعاً لمقاييس المقريزي ، أو لقيمة صاحبها .

وختم زيادة بحثه هذا بالإشارة إلى مؤلف ضخم آخر للمقريزي وهو كتاب (المقفى الكبير) ، الذي أراده المقريزي أن يكون معجماً قومياً لكل من عاش في مصر أو مر بها منذ أقدم العصور حتى عصره ، وبذا يكون المقريزي – كما يقول الدكتور زيادة – أول المفكرين في كتابة مثل هذا المعجم القومي للأعلام ، الأمر الذي دفع زيادة إلى حث معاصريه على العمل الدؤوب لنشره وتحقيقه خدمة للتراث[١].

١٠ـ تاريخ حياة المقريزي (**ص١٣- ٢٢**) :

هذا البحث يكاد أن يكون منقولاً بنصه وفصه من مقالة الدكتور زيادة المنشورة في موسوعة تراث الإنسانية بعنوان (**السلوك للمقريزي**) ، ومن ثم فلا حاجة لمعاودة استعراضه .

وبعد فتلك هي أهم مؤلفات الدكتور زيادة في مجال المنهجية ودراسة التأريخ ، ومن اللافت لأنظار الدارس أنها جميعاً باستثناء كتاب (المؤرخون في مصر) كانت من المقالات القصيرة ، أو الأبحاث العلمية المنشورة التي خلت

---

(١) المرجع عينه ص ١٠ – ١٢ .

من التوثيق أو الحواشي ، وانقسم هذا النتاج إلى قسمين : المقالات المنهجية المتمثلة في صناعة التاريخ وتقسيمه ، والكتابات التأريخية التي انصبت على مؤرخي دولة المماليك الثانية ، تلك الفترة التي كانت موضعاً لرسالة مؤرخنا في مرحلة الدكتوراه ، كما يلفت الانتباه في هذا الشطر الثاني من كتابات الدكتور زيادة اهتمامه الشديد بالمقريزي الذي أولع به ، فلم يترك عنه شاردة أو واردة إلا وأحصاها في منهج استقصائي دقيق ، ينبيء عن أن زيادة ما كتبها إلا بعد أن أحاط إحاطة تامة بكل جزئيات موضوعه هذا وما يماثله من كتابات .

ثانياً : **مشاركات زيادة في التأليف** .

ضرب الدكتور زيادة له بسهم مشاركاً لغيره في مجال إعداد مؤلفات للنشء المصري بعد ثورة **١٣٧٢**هـ / **١٩٥٢**م ، ولم تحل مكانته وقامته من ترك بصمته على غير واحد من هذه المؤلفات المدرسية التاليــــة ، وهي مرتبــــة وفق تواريخ صدورها :

١ـ الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها :

المؤلفون : عبد الحميد العبادي ، ومحمد مصطفى زيادة ، وإبراهيم أحمد العدوي .

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة ، ط **٣** ، د ت .

يقع هذا الكتاب في (**٢٢٨**) مائتين وثمان وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، مسبوقة بمقدمة أبجدية ، حوت تصديراً للطبعات الثلاث ، ثم فهرستاً لمحتويات الكتاب ، وقائمة بالصور واللوحات ، وقد كان هذا المؤلف مقرراً على الصف الثاني الثانوي (المنهج العام) .

نال الدكتور زيادة شرف تصدير الطبعة الأولى من هذا العمل سنة **١٣٧٤**هـ/ **١٩٥٤**م ، فاغتبط للصدفة الحميدة التي جمعت المؤلفين الثلاثة في وضعه ، إذ الثاني تلميذ للأول في المدارس الثانوية سنة **١٣٣٣**هـ/ **١٩١٤**م ، والثالث تلميذ للثاني في مرحلة التعليم الجامعي سنة **١٣٦٥**هـ/ **١٩٤٥**م ، وبينهم صلات علمية وثيقة ، وخبرة بالتدريس الجامعي ، وترتب على توزيع العمل بين المؤلفين الثلاثة شيء من التنوع من حيث غزارة المادة ومستوى الأسلوب في مختلف أجزاء الكتاب ، وهو ما لابد منه في إنتاج مشترك بين ثلاثة أجيال من المشتغلين بدراسة التاريخ والتأليف فيه وتدريسه ، مع ما بينهم من تكامل وتوافق وفهم للتاريخ[١].

ونوه مؤرخنا في تصديره هذا بوحدة تاريخ الدولة الإسلامية ، وكونها جزءاً من التاريخ العام ، وما يربطها به من علاقات تماس أو تقاطع أو تداخل ، وأن هذا الكتاب ليس تاريخاً سياسياً للدولة ا لإسلامية فحسب بل هو تاريخ حضاري يبحث في عوامل انتشار الإسلام واللغة العربية ، وتطور الدولة الإسلامية وحكومتها المركزية وذلك في الفصل الأول (ص**٣**- **٣٩**) وأعقبه حديث عن الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها ، مع بيان المؤثرات الأجنبية فيها ، ووصف لنواحي الحياة المختلفة في المجتمع الإسلامي في الفصل الثاني (ص**٤٠** – **٨٥**) ، وتلاه تناول للحركات الاستقلالية في الدولة الإسلامية ، وعوامل ذلك في الفصل الثالث (ص**٨٦** – **١٤٢**) ، ثم كان الحديث عن سقوط العالم الإسلامي بين شقي الرحى الصليبيين والمغول ، ونجاحه بواسطة مصر في

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الدولة الإسلامية صفحة هـ .

رد هذين الخطرين وذلك في الفصل الرابع (ص **١٤٣- ١٧٨**) ، وختم الكتاب بفصلٍ عن تكوين الدولة العثمانية ، التي انتقل إليها محور الارتكاز في العالم الإسلامي بعد بسط سلطانها عليه في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد ، واستحواذها على الخلافة وذلك في الفصل الخامس (ص**١٧٩- ٢١٤**) ، ثم كان مسك الختام الحديث عن بقاء قوة الإسلام الذاتية ، وانتشاره في غير حرب أو سيف إلى بلاد مترامية الأطراف في الشرق والغرب وذلك في الفصل السادس (ص**٢١٥- ٢٢٨**) [١] .

٢ـ تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية :

المؤلفون : محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني ، ومحمد أحمد الغنام.

وزارة التربية والتعليم ، مطابع جريدة الصباح بمصـــــر ، د ط ، **١٣٧٧**هـ / **١٩٥٧**م .

يقع هذا الكتاب في (**١٦٠**) مائة وستين صفحة من القطع الكبير ، صدره الدكتور زيادة بمقدمة في صفحتين سنة **١٣٧٥**هـ / **١٩٥٥**م ، وكان مقرراً على الصف الثالث الإعدادي ، واشتمل على فصول خمسة :

الأول : الدعوة إلى الإسلام ، وبناء الدولة الإسلامية .

الثاني : اتساع الدولة الإسلامية الأموية والعباسية .

الثالث : مصر ودولة الخلافة .

الرابع : الدولة المصرية الإسلامية .

---

(١) المرجع السابق صفحة هـ – ح .

الخامس : مصر والشعوب العربية تحت الحكم العثماني .

٣ـ تاريخ العالم العربي وحضارته في العصور القديمة والعصر الإسلامي :

المؤلفون : الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، والدكتور أحمد طربين ، والدكتور محمد جمال الدين مختار .

الجمهورية العربيـــة المتحدة، وزارة التعليم ، الإقليم الجنوبي ، د ط ، **١٣٨١**هـ/ **١٩٦١**م .

يقع هذا الكتاب في (**٣٩١**) ثلاثمائة وإحدى وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، وكان مقرراً على الصف الثاني الثانوي أدبي ، وصُدِّر بمقدمة قصيرة للمؤلفين ، وبيان للمنهج المقرر ، وختم بفهرس ، واحتوى على أبواب أربعة :

الأول : الحضارات القديمة في الوطن العربي (ص**١**- **١١٢**) .

الثاني : الوطن العربي قبل الإسلام (ص**١١٣**- **١٦٤**) .

الثالث : العرب والإسلام (ص**١٦٥** – **٢٨٨**) .

الرابع : الحضارة الإسلامية (ص**٢٨٩** – **٣٦٨**) .

٤- التاريخ العربي الإسلامي :

المؤلفون : محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني ، ومحمد أحمد الغنام ، ومحمد الهادي عفيفي .

وزارة التربيـــــة والتعليم ، الجمهورية العربية المتحدة ، د ط ، **١٣٨٤**هـ/ **١٩٦٤**م .

يقع هذا الكتاب في (**١٩١**) مائة وإحدى وتسعين صفحة من القطع الكبير ، صدره المؤلفون بمقدمة في صفحتين ، وتحدث عن حال العرب قبل الإسلام

مروراً بظهور الدعوة ، ثم حال الدول المتعاقبة عليه حتى جلاء العثمانيين عنه في مطلع العصور الحديثة ، وكان هذا الكتاب مقرراً على الصف الثاني الإعدادي .

٥ـ تاريخ العرب والإسلام :

المؤلفون : محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني ، ومحمد الهادي عفيفي ، وعبد الرحمن فهمي ، ومحمد أحمد الغنام .

وزارة التربيـــــــة والتعليم ، الجمهورية العربية المتحدة ، د ط ، **١٣٨٤**هـ/ **١٩٦٤**م .

يقع هذا الكتاب في (**١١٢**) مائة واثنتى عشرة صفحة من القطع المتوسط ، مسبوقة بمقدمة للمؤلفين في صفحتين ، ومذيلة بثلاثين لوحة للفنون والصناعات العربية ، وكان مقرراً على الصف الأول الإعدادي الصناعي ، وتحدث بإيجاز عن حالة العرب قبل الإسلام ، مروراً بظهوره وتوسع دولته حتى امتدت من المحيط إلى الخليج ، ثم فترات نكوصه وتعرضه للحملات الصليبية والغزو المغولي ، وخلاصه منهما على أيدي الأيوبيين ثم المماليك ، مع الإشارة إلى الحضارة العربية الإسلامية التي أنارت العالم بضوئها ، وخلفت كثيراً من الآثار الدالة عليها ، والتي ألحقت صورها بالكتاب [١] .

ثالثاً : **مراجعات الدكتور زيادة وتقديماته ونقده لبعض ا لمؤلفات** .

كما شارك الدكتور زيادة في تأليف الكتب المدرسية سالفة الذكر ، فإنه أولى اهتمامه أيضاً بمراجعة بعض الكتب المدرسية التي وضعها تلاميذه ومنها :

---

(١) مؤلفو تاريخ العرب والإسلام صفحة أ ، ب .

١ـ الوافي في تاريخ الدولة الإسلامية .

المؤلف : عبد الشافي غنيم عبد القادر .

مراجعة : محمد مصطفى زيادة ، والأستاذ حسن محمد جوهر .

مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، د ط .

يقع هذا الكتاب في (**١٤٤**) مائة وأربع وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، وخلا من المقدمة ، ولكن المؤلف وهو تلميذ زيادة قدم الشكر في ختامه لأستاذيه عبد الحميد العبادي وزيادة اللذين لم يبخلا عليه بالنصح والإرشاد والتوجيه ، حتى جاء هذا الكتاب خير مساعد للكتاب الأصلي الذي قررته وزارة التربية والتعليم على طلاب الصف الثاني الثانوي (المنهج العام) .

٢ـ المفيد في تاريخ العالم العربي في العصور القديمة والإسلامية :

المؤلف : فتحي محمد أمين البيسري .

مراجعة : محمد مصطفى زيادة .

مكتبة نهضة مصر ، د ط ، **١٣٨٢**هـ / **١٩٦٢**م .

يقع هذا الكتاب في (**٧٩**) تسع وسبعين صفحة من القطع الصغير ، وخلا من مقدمة للمؤلف أو للمراجع ، وهو كتاب خارجي لمثيله الذي كان مقرراً على الصف الثاني الثانوي أدبي .

مما سبق ذكره يتضح للقارئ أن مؤرخاً في قيمة وقامة الدكتور زيادة ، لم تقف جهوده على النشر أو الترجمة أو التأليف العلمي الرصين فحسب ، بل أولى اهتمامه هو وأترابه بالنشء في مراحل التعليم ما قبل الجامعي ، لإعداده إعدادًا يضع أقدامه على الطريق الصحيح في الفكر التاريخي ، بحيث يدرك تاريخ وطنه ثم أمته ثم عالمه الإسلامي ، وقد تجلى هذا فيما سبق ذكره من مؤلفات

ومراجعات لمؤرخنا ، تلك التي حرص فيها على التأصيل لهذا النوع من الكتابات، التي تقدم للأجيال الناشئة ، أن تكون مستوفاة من الناحية العلمية ، حتى ولو كانت موجزة ومقتضبة ، وهذه منقبة أخرى تحسب لهذا المؤرخ ، الذي لم يستنكف كذلك من طلب إسداء النصيحة له بالنقد البناء المؤدي إلى حسن صناعة الكتب المدرسية في التاريخ ، لتصبح هذه الكتب عند المستوى التربوي المرجو لها بفضل نقد الناقدين [١].

كما أسهم الدكتور زيادة في التقديم لبعض المؤلفات العلمية ، لاسيما تلك التي تعلقت بالعصور الوسطى ، وهو التخصص الذي برع فيه ومن هذه الأعمال:

١ـ **قيام دولة المماليك الثانية** :

المؤلف : حكيم أمين عبد السيد .

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٣٨٦**هـ/ **١٩٦٦**م .

هذا الكتاب يقع في **(٢١١)** مائتين وإحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط ، وهو في الأصل رسالة علمية لمُؤَلِّفِهِ حصل بها على درجة الدكتوراة سنة **١٣٨٠**هـ/ **١٩٦٠**م بإشراف الدكتور زيادة ، الذي قدم لها عند نشرها في صفحتين ، تحدث فيها عن ضرورة تقسيم التاريخ المصري إلى عصور متولدة بعضها من بعض ، ثم إلى دول منسلخة بعضها من بعض ، وذلك لفهم التاريخ ، ثم استعرض فصول الرسالة ، ونوه بجهود الباحث وحسن توظيفه لمصادرها المطبوعة والمخطوطة ، كما قدم الباحث في نهاية مقدمته شكره لأستاذه ، الذي

---

(١) زيادة : تقديمه لتاريخ الدولة الإسلامية صفحة د .

أشرف على البحث إشرافاً علمياً دقيقاً في روح أبوية مملوءة بالعطف الصادق الذي أحس به كل من تتلمذ على يديه[١] .

٢ـ النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى :

المؤلف : إبراهيم على طرخان .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٣٨٨**هـ / **١٩٦٨**م .

يقع هذا الكتاب في (**٥٩٠**) خمسمائة وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، قدم له الدكتور زيادة في صفحتين نوه فيهما إلى الإقطاع الأوربي ونشأته ، ثم انتقل إلى الشرق الإسلامي ، وبزوغ هذا الإقطاع فيه بعد اتساع الدولة الإسلامية ، وأشاد بحسن اختيار المؤلف لموضوعه الذي لا يحتاج إلى تزجية أو تنويه ؛ لأهميته العلمية للقارئ ، وختم المؤلف مقدمة كتابه بتوجيه الشكر لأستاذه زيادة على ما بذله معه من عون صادق خلال مراحل هذا العمل [٢] .

كما ضرب الدكتور زيادة له بسهم في نقد وعرض بعض المؤلفات التاريخية ، خاصة تلك التي ارتبطت بحقبة العصور الوسطى ، وكان منها ما يلي :

١ـ تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان :

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، شعبان **١٣٦٩**هـ / مايو **١٩٥٠** ، (ص**٢٠٩** – **٢١٤**) .

استهل الدكتور زيادة حديثه عن الجزء الأول من هذا الكتاب بأنه تأليف

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب قيام دولة المماليك ص **٥** ، **٦** ، **١٠** ، رسائل الماجستير والدكتوراه التي أجيزت بالجامعات المصرية ص **٤١٩** .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب النظم الإقطاعية ص **٥** ، **٦** ، **١٥** .

كبير في موضوع ضخم وهو الحروب الصليبية ، وبدا واضحاً لزيادة من قراءته أن مؤلفه رنسيمان عكف على دراسة هذا الموضوع في صبر علمي خارق سنين عديدة ، ناهيك عن مؤلفاته الممتازة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها[١] .

وأردف زيادة أن الأستاذ (توينبي) في نقده لهذا الكتاب شرح مسألتين هامتين للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى خاصة ، وللمشتغلين بالتاريخ عامة ، **الأولى:** أن معظم مؤرخي الحروب الصليبية أوربيون غربيون يعتبرون أن البلاد الشرقية بيزنطية أو إسلامية مجالاً للحروب الصليبية من قبلهم ، ولا يسع أصحابها إلا الانهزام والخضوع أو الفناء أمام حملاتهم تلك ، ولم يشذ عن هذه القواعد الصليبية العامة من المؤرخين الأوربيين الغربيين إلا القليل النادر الذين كان منهم رنسيمان [٢] .

أما **المسألة الثانية** التي شرحها (توينبي) : فهي أن الموضوع التاريخي الواحد يمكن دراسته من عدة زوايا مختلفة ، فتخرج الصورة في جميع الأحوال واحدة من حيث الموضوعية والسلامة التاريخية ، ولكنها تتراءى مختلفة في عرضها لا في جوهرها من حيث المنظور التاريخي وهو ما لابد منه قطعاً ، والقارئ لهذا الكتاب لا ينبغي له أن ينتظر جديداً من الحقائق إلا في التفاصيل ، لأن أجيال المؤرخين الأوربيين الغربيين لم تترك من موضوع الحروب الصليبية ناحية إلا درستها أكثر من مرة ، على أن هذا الكتاب لرنسيمان – كما يقول زيادة –

---

(١) زيادة : نقده لكتاب الحروب الصليبية لرنسيمان ص ٢٠٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

يمتاز بأنواع من الجدة والابتكار [١] تتمثل فيما يلي :

أولاً : أن المؤلف استطاع أن يعتصر مجهودات هذه الأجيال كلها اعتصاراً علمياً على اختلاف لغاتها ، وأن يخرج من هذه العملية الجهيدة بمادة نهائية شاملة لتاريخ الحروب الصليبية [٢] .

ثانياً : استقامت للمؤلف فرصة مزدوجة نادرة ، وهي أنه تعلم في غرب أوربا ، وانصرف إلى دراسة التاريخ البيزنطي ، وعاش في استانبول عيشة الباحث المنصرف إلى البحث الهادىء عدة سنين ، فاستطاع أن يطل على موضوعه من شباك مشرف تاريخيا وجغرافيا على الجهات الأصلية الأربع لموضوعه ، ولذا جاء منهجه في الحروب الصليبية غير مسبوق إليه ، وهذا هو النوع الثاني من الجدة التي يمتاز بها الكتاب ، إذ بدأه بظهور الإسلام ، وفتوحاته للممالك النصرانية في الشرق والغرب ، وما ترتب عليه من صدام بين المسلمين والبيزنطيين ، مع استمرار وصول الحجاج النصارى من أوربا لبيت المقدس وتزايدهم مع مرور الأيام ، وعودتهم سالمين بفضل ما ساد الدولتين الفاطمية والبيزنطية من علاقات حسن الجوار ، حتى ظهر السلاجقة وبسطوا سلطانهم على أجزاء من أملاك هاتين الدولتين ، ثم انحلالها وما ترتب على ذلك من ظهور دويلات مختلفة شكلت عقبات أمام قوافل الحج النصراني المتدفق ، وتناقل أنباء هذه العقبات بين الأوربيين ، فكان ما كان من الدعوة لتخليص الأماكن المقدسة النصرانية من

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) المرجع ذاته ص ٢١٠ .

سلطة المسلمين [١] .

ثالثاً : تحول المؤلف (رنسيمان) من موضوع الحج المسيحي وأثره في تطور الفكرة الصليبية إلى ميدان الحروب بين المسلمين والنصارى في أسبانيا ، وتطور الحوادث في هذا الميدان من حركة مقاومة مسيحية ضد سيادة إسلامية إلى حركة صليبية عامة تزعمتها البابوية والديرية الكلونية ، وأسهمت فيها جماعات من الفروسية الأوربية على رأسها زعامات مشهورة من شمال إيطاليا وجنوبي فرنسا ، وتشجيعا لهذه الحركة أفتى البابا جريجوري السابع بأن البلاد التي يستولي عليها فرسان غرب أوربا من المسلمين حلال لهم ، يتملكونها وأبناؤهم من بعدهم ، كما دعا البابا أربان الثاني جميع الراغبين في الحج إلى الأماكن النصرانية بالشرق أن يحجوا عسكريا بسيوفهم إلى أسبانيا ، وأن يوفروا ما يتطلبه السفر إلى فلسطين من المال لإعادة بناء المدن التي خربتها الحروب الأسبانية ضد المسلمين [٢] .

رابعاً : أن الحقائق المبعثرة في عديد الكتب الأوربية عن هذا الموضوع صارت معروضة عرضاً نهائيا في كتاب واحد ، مع استناد المؤلف لا إلى المراجع الغربية فحسب ، بل إلى المصادر البيزنطية الأصلية كذلك ، وهو – كما يقول زيادة – ما يمتاز به هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، ناهيك عن أنه بمجرد وصول المؤلف إلى حوادث الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى ترى حواشي العمل مشيرة إلى مراجع تركية وأرمينية وعربية أصلية ، فضلاً عن المراجع الحديثة في

---

(١) المرجع عينه ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١١ ، ٢١٢ .

اللغات الأوربية [١] .

خامساً : تتبع المؤلف في جدارة أدوار الحملات الصليبية الشعبية الأولى التي سبقت حملة الأمراء المعروفة بالأولى ووصولها إلى القسطنطينية بزعامة بطرس الناسك وغيره ، وعبورها إلى الأناضول ، وسحق السلاجقة لها ، على أن خاتمتها تلك لم تذهب هباء ، إذ فتحت عيون الزعماء والقادة في الحملة الصليبية الرسمية لما سوف يلقون من المقاومة ، فكان استعدادهم لها وما سيحتاجونه من معرفة بجغرافية آسيا الصغرى [٢] .

سادساً : شرح المؤلف للمفاوضات التي دارت بين الصليبيين والدولة الفاطمية حول مشروع اقتسام النفوذ في بلاد الشام ، فللصليبيين شمال وللفاطميين جنوبه مع مساعدة كلاهما للآخر ضد النفوذ السلجوقي ، والإشارة إلى المقاومة الإسلامية الهزيلة للصليبيين آنذاك[٣] .

سابعاً : ختم المؤلف كتابه بمجموعه من الملاحق ، كان الأول منها لنقد وتحليل مصادر الحملة الصليبية الأولى ، وثانيهما لتحليل أعداد جيوش هذه الحملة مقارنة بما جاء في المصادر أو على أرض المعارك ، والتحقق من أن كثيراً من قواد هذه الحملة جاءوا إلى الشرق بعائلاتهم للاستقرار ، وأن الدافع الديني لم يكن هو الهدف الأسمى ، بل كانت الرغبة في الإمارة وتأسيس الممالك البعيدة عن صخب المنافسة والتزاحم والتخاصم فيما بين الملكية والإقطاع في غرب

---

(١) المرجع ذاته ص **٢١٣** .

(٢) المرجع عينه ص **٢١٣ ، ٢١٤** .

(٣) المرجع نفسه ص **٢١٤** .

أوربا ، وهذه الدعوى – كما يقول زيادة – لا تستند إلى الاستنتاج فحسب بل إلى حقائق استمدها ر نسيمان من ماضي أولئك القادة في أوربا قبل أن يتزعموا الحروب الصليبية في الشرق[1] .

٢ـ نقد الحروب الصليبية لبالمراثروب :

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، شعبان **١٣٦٩**/ مايو **١٩٥٠** ، (ص**٢١٥** – **٢١٨**) .

صدَّر الدكتور زيادة عرضه ونقده لهذا الكتاب بالإشارة إلى سعة الهوة بين بعض المتواتر من الحقائق في كتب التاريخ وبين الحقيقة ، لاسيما حين يكون بعض هذا المتواتر خلواً من طعم الجغرافيا ، وسنده في ذلك أن المسافة التي قطعها قطار الشرق من استانبول حسن وصوله إلى محطة إسكي شهر (دورا اليوم) إبّان رحلة مؤرخنا لتركيا سنة **١٣٥٥**هـ / **١٩٣٦**م استغرق ثماني ساعات متواصلة ، مر بها القطار بين صنوف شتى من الخضرة والسهول والجبال ، حتى وصل لمحطته ، ما أجال الذكريات بخاطره عن مسيرة الحملة الصليبية الأولى في نفس الطريق قبل تسعة قرون ، حيث أورده مؤرخو الحروب الصليبية في عبارة مقتضبة نصها « **ثم رحل الصليبيون عن القسطنطينية ، واخترقوا آسيا الصغرى إلى دور اليوم ، فاستولوا عليها عنوة من سلطان السلاجقة بالروم** » ، مما يؤكد أن الأسطر القليلة التي يقرؤها القارئ في التاريخ تنطوي أحياناً على ما يملأ مجداً من الحوادث المنسية ، هذا إذا علمت أن الجيش الصليبي كان ثقيل العدة والمؤونة ،

---

(١) المرجع ذاته ص ٢١٤ .

وئيد الحركة ، مختلف القيادات والطاعات ، قليل المعرفة بالجغرافيا [١].

هذا ما جال بخاطر الدكتور زيادة عند قراءته ونقده لهذا العمل ، الذي يبحث في فشل الحروب الصليبية ما تقدم منها وما تأخر ، وهو فشل يرجع معظمه في نظر المؤرخين إلى انصراف ملوك غرب أوربا إلى شئون ممالكهم وغيره من الأسباب المتواترة ، بيد أن مؤرخنا بعد فراغه من قراءة هذا الكتاب ألفى أسباباً جديدة لأن المؤلف لم يعمد إلى حوادث الحملات الصليبية ذات الأرقام أو غير ذات الأرقام ليجعل منها مادة للمضي في بحثه ، فهذا – كما يقول زيادة – عملية سهلة وما عليه – مثلاً – إلا أن يأخذ الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، فيدلل على فشلها من تنكبها عن غرضها إلى مسألة الاستيلاء على دمشق ، ولكن المؤلف لم يعمد إلى هذه الطريقة التقليدية القريبة ؛ لأنها ليست سبيله في البحث ، بل اتخذ موقفا عند سنة **٦٧٣**هـ / **١٢٧٤**م وهي السنة التي جمع فيها البابا جريجوري العاشر مجلساً دينياً لاستبانة الطرق والمسالك والوسائل والإمكانيات لمشروع حملة صليبية جديدة إلى الشرق ، ثم جمع إليه المؤلف المواد المكتوبة التي أنتجها هذا المشروع ، وهي مجموعة رسائل ومذكرات طويلة ، قدمها أصحابها بناءً على أمر البابا ، **أولها** رسالة كتبها راهب فرنسسكاني يشرح فيها سخط الناس في مختلف الممالك الأوربية من أساليب بعض رجال الكنيسة في جمع الأموال من أجل الحروب الصليبية ، **وثانيها** رسالة سطرها أسقف ألماني قال فيها : إن الأقربين من الأوربيين الوثنيين أولى بالحروب الصليبية من المسلمين البعيدين ، **وثالثها** رسالة كتبها راهب دومينكاني من طرابلس بالشام ، خلاصتها قلة

---

(١) زيادة : عرضه لكتاب نقد الحروب الصليبية ص **٢١٥** ، **٢١٦** .

الجدوى في الحروب الصليبية وجيوشها وسيوفها ومقاتليها بالقياس إلى كثرة الفائدة من التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين [١] .

بالإضافة إلى هذه الرسائل والمذكرات الطويلة بضع رسائل قصيرة ذكرها المؤلف في الفصل السادس من كتابه ، واستخدمها استخداماً تحليلياً دقيقاً في بحثه – كما يقول زيادة – ولعل أعمق ما اشتملت عليه كل هذه الرسائل والمذكرات من ملاحظات ، أن إخفاق ملك فرنسا لويس التاسع مرتين في حملتين صليبيتين كبيرتين – وهو الذي قدمته الكنيسة وحاطه المعاصرون بالجلالة الدينية والإخلاص لوجه الدين – شكك القلوب بأنحاء أوربا في رضا الله عن الحروب الصليبية وفكرتها [٢] .

ولاحظ مؤرخنا أن المؤلف لم يضف إلى هذه الأسباب سبباً خارجياً رددته المراجع التي اعتمد عليها في كثير من المواضع ، وهو ما استولى على المسلمين من روح معنوية عظيمة ، منذ استطاع صلاح الدين أن يجعل من بلاد الشرق جبهة إسلامية واحدة ، وأن يحرز انتصارات كثيرة ضد الصليبيين ، كما أغفل المؤلف الدوافع الدنيوية الظاهرة والباطنة التي أفسدت على الصليبين نياتهم وأعمالهم منذ الحملة الصليبية الأولى ، وهو الأمر نفسه الذي اعترى المقاومة الإسلامية بعد صلاح الدين الأيوبي من مطامع شخصية وانفصالية [٣] .

مما تقدم رأى القارئ أن جهود الدكتور زيادة في مجال نقد وعرض المؤلفات

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٧ .

(٣) المرجع ذاته ص ٢١٨ .

انصب بدوره على موضوعات هي من صميم تخصصه الدقيق الذي برع فيه ، وهو تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، وكان في نقده وعرضه لا يشق له غبار ، يعطى كل ذي حق حقه ، ويضفي على نقده مسحة من خبراته ومعارفه بما يحتاجه العمل من تقويم أو إضافة أو استبيان لبعض المواضع المبهمة ، وهو قبل هذا كله لا يختار لجهده في هذا المجال إلا الروائع من الأعمال ، التي تبوأ مؤلفوها قصب السبق في هذا الميدان ، الذي كانت معارف زيادة ووسائله من معدنه ، فكان نعم المعين ونعم الدليل في عرضه ونقده وتقديمه .

وبعد هذا الاستعراض والتناول لجهود الدكتور زيادة الفكرية من تأليف ومشاركة ومراجعة ونقد وتقديم ، يطيب للدارس أن ينتقل بالقارئ إلى لُب هذا الموضوع ، وهو المنهج التاريخي الذي اتبعه مؤرخنا ، وذلك في المبحث الخامس والأخير .

المبحث الخامس

المنهج التاريخي للدكتور زيادة

بعد هذا الاستعراض والتناول الوصفي لجهود الدكتور زيادة في مجال النشر والترجمة والتأليف ، يصل الباحث إلى لُب الموضوع الذي توفر على دراسته أو ما يقاربه ، ألا وهو إشكالية المنهج الذي اتبعه مؤرخنا وسار عليه في نتاجه التاريخي، أو ما الأسئلة التي كان يحـــاول من خلال جهوده المختلفـــة الإجابة عليها؟

ومما لاشك فيه أن الإجابة عن مثل هذا السؤال الجوهر تتطلب **الإلماع إلى أهم العوامل المؤثرة في فكره** ، والتي انعكس دورها على ما قدم الرجل للمكتبة التاريخية من تراث زاخر متنوع ، ولا ريب أن أول هذه المؤثرات الهامة كانت المدرسة التاريخية التي انضوى الدكتور زيادة تحت لوائِها ، وتلقن أصولها ومبادئها ومناهجها وهي **المدرسة الإنجليزية في دراسة التاريخ** والبحث فيه.

فزيادة ومعاصروه يمثلون طرازاً فريداً قائماً بذاته في طليعة من تصدوا للكتابة التاريخية في مصر وربما في الوطن العربي بأسره في مطلع القرن العشرين ؛ إذ ينتمي هؤلاء الرواد إلى جيل قائم بذاته له سماته الخاص ونظرته المتميزة إلى العلم والمعرفة ، وهو الجيل العملاق الذي قامت على أكتافه صروح الدراسات الأكاديمية في الوطن العربي ، والذي قُدِرَ له أن يولي وجهه صوب الغرب الأوربي للحصول على درجات الماجستير والدكتوراه في جامعاته ، وتتلمذ أغلبه على أيدي كبار المستشرقين في مختلف العلوم والفنون ، ثم أسهم بعد عودته إلى الوطن في إعادة تشكيل الحياة الفكرية في مصر وغيرها من البلدان ، حين نقل إليها طرائق البحث العلمي الحديث التي عرفها الغرب وتمثلها وهضمها ، ثم

عاد ليسير على نهجها في تناول التراث العربي من تاريخ وغيره [١].

وليس المقصود بالأساليب العلمية الحديثة القول : إن التاريخ علم له قواعده وقوانينه الثابتة مثل العلوم الطبيعية التي تبحث في الظواهر المعاينة وأداتها المشاهدة والملاحظة والتجربة والحساب ، فالتاريخ يبحث في الموضوعات الإنسانية ، وعلاقة الناس والأمم بعضها ببعض ، وهؤلاء وأولئك تختلف أحوالهم وآراؤهم وفقاً لبيئاتهم وثقافاتهم ، لذلك فأحكامهم على الحوادث والوقائع عرضة للتغيير والتعديل والتبديل ، وما قصده الرواد الأوائل من طرائق البحث العلمي في دراسة التاريخ ، هو أن تكون دراسته وفق الأسلوب العلمي من حيث تحليل المسائل ، وتقصي مصادرها وعللها ونتائجها ، وتسلسل أجزائها تسلسلاً منطقياً لا سبيل فيه للمبالغة وزخرف القول ، ولا مكان فيه لآيِّ دوافع أو أغراض ذاتية أو خارجية ، وإنما معالجة المسائل معالجة موضوعية مجردة [٢] .

وقد آمن الدكتور زيادة بهذه المبادئ التي تجعل التاريخ علماً له أصوله ، مما حدا به إلى تعريف المؤرخ بقوله : « **هو الشخص المدرب على كتابة التاريخ بطريقة علمية ، وأسلوب فني يبعث الاطمئنان والاقتناع بالأمانة والتحري والنأى عن الهوى** » [٣] كما أيقن الرجل بأن كتابة التاريخ صنعة يجب أن يتوفر للقوَّامين عليها

---

(١) أيمن فؤاد سيد : رواد الدراسات التاريخية ص **٢٩٤** ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : شفيق غربال مؤرخاً ص **٢٥٢** ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادي عشر ، **١٩٦٣**م .

(٢) محمد رفعت : تأبين شفيق غربال ص **٨** ، **٩** .

(٣) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص **١٨٦٧**.

شروط كسائر المهن والأعمال ، الأمر الذي دفعه لأن يكتب أربع مقالات نادرة عن صناعة التاريخ في مصر ، ألمع فيها إلى مستلزمات هذه الصنعة وأدواتها وصفة القائمين عليها ، ونوع النتاج المرجو منها ، والمنهج الذي ينبغي أن يسير عليه المؤرخون في كتاباتهم ، والهدف منه هو « **البحث عن الحقيقة المجردة وعليتها**» [١] وشبه الدكتور زيادة طريقة عمل المؤرخ بالقاضي الذي يحاول الوصول إلى الحقيقة بما توفر لديه من أدلة قرائن وملابسات وشهادات ، وعرضها على ميزان النقد ، حتى يصل من خلالها إلى الحقيقية [٢].

وثاني هذه العوامل التي تركت أثراً واضحاً في فكر ومنهج الدكتور زيادة **المخيال أو المنظور التاريخي** ، فقد كان لسيادته مخيالاً ونافذة خاصة لدراسة التاريخ ، وهو في هذا متأثر بالمدرسة الكلاسيكية الإنجليزية ، التي تجعل مثل هذا المخيال من لوازم المؤرخ أياً كان وطنه وأياً كانت ثقافته ، وقد ظهر هذا المخيال وبدت تلك النافذة واضحة جلية في تطبيقاته العملية وتأريخه للعصور الوسطى بشقيها الشرقي والغربي ، بل إني أخال أن هذا المخيال كان في كفة وثقافة الرجل الإنجليزية كانت في الأخرى ، فوازن الرجل بين الكفتين ، فلم تثقل كفته ذي الثقافة الإنجليزية ، فيتفرنج كما تفرنج بعض معاصريه ممن استغرقتهم الثقافة الأوربية ، ونادوا بها ثقافة وحيدة للنهضة ، كما أن مخياله ومنظوره للتاريخ لم يهوَ به إلى الإسراف في القومية والمغالاة في فضلها وجعلها محور دراسته ، بل كانت كفتا ميزانه معتدلتان متساويتان ، يكتب بعين شرقية ،

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٨٩ .

(٢) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٧ .

وتراقب الأخرى الثقافة الغربية ، فإن جنحت إحداهما إلى غير الطريق السوي ردتها المقابلة لها .

وتكررت أحاديث الدكتور زيادة عن هذا المنظور التاريخي الذي منه يستمد المؤرخ عذاءه الثقافي غير مرة في كتاباته ، فقد كان يرى أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من حصيلته الثقافية ووضعه الجغرافي ، أو يتقمص بديلاً جغرافياً عن أحدهما أو كليهما مهما طرأ عليه طارئ عابر وقتا ما ؛ لأن ثقافته وجغرافيته تتكون منهما نافذته أو منظوره أو شباكه الذي يستنشق منه المعنويات والماديات من أصناف المعرفة والحياة اليومية ، فالحدث الواحد يستطيع أن يطل عليه مختلف المؤرخين من زوايا مختلفة ، ومن منظور تاريخي محدود لكل واحد منهم بجغرافيته وقوميته وحضارته ، وليس معنى هذا أن اختلاف الزوايا والنوافذ يغير الحقائق التاريخية ، أو يؤثر في ترتيبها الزمني ، بل معناه أنه يغير النظرة إلى تلك الحقائق التاريخية ، تغييراً كفيلاً بعرضها في أبعاد وأشكال مختلفة ، وتقويمها تقويمات متنوعة تصل أحياناً إلى درجة العكسية والتضاد عند تعارض المصالح القومية الطبيعية ، فإذا أطل المؤرخ مهما كانت جنسيته وثقافته على حادث ما – مهما كان شرقياً أو غربياً – فإنه يطل عليه من النافذة الروحية والمادية المخلوقة له، أو المخلوق هو لها بعبارة أدق (١) .

ويقرب الدكتور زيادة فكرته للقارئ بقوله : إن التاريخ كله سجل أمين لأخبار الدول والأمم والشعوب الإنسانية التي تبعثرت في أجزاء الكرة الأرضية وسكنت إليها ، وأن المؤرخ لا يستطيع رؤية هذه الأجزاء الجغرافية رؤية متساوية

---

(١) زيادة : حملة لويس صفحة و ، ز ، تصديره للتاريخ أوربا لفشر ، القسم الثاني صفحة هـ .

من وضع جغرافي واحد ، وأنه كذلك لا يستطيع رؤية تواريخ هذه الأجزاء رؤية تاريخية متساوية من وضع ثقافي واحد ، وضرب الدكتور زيادة مثلاً نظرياً على ما يقوله : بإن المؤرخ لا يستطيع أن يكتب عن تاريخ الدولة المملوكية الأولى مثلاً وكأنما هو يطل على القاهرة من منظرة عالية ببغداد المغولية أو عكا زمن الصليبيين ، ولا يتناول الفتح العثماني لمصر وكأنما هو يشرف على الحوادث من برج عاجي في اسطنبول (١) .

وشرح الدكتور زيادة عمليًا مفهومه للمنظور التاريخي عند تأريخه لحملة لويس التاسع على مصر ، حيث قال : إن المؤرخ الفرنسي الحديث والقديم لا يستطيع أن يرى في حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة ما يراه المؤرخ العربي المصري ، إذ الأول معتدٍ ، والثاني معتديً عليه ، والاثنان لا يتفقان ، مع العلم بأن الجانب العربي المصري هاهنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار ، لكن كلاً من هذين الطرفين المختلفين لا يستطيع أن يغير شيئاً من الحوادث التاريخية التي حدثت ، والتي حولت معسكر المنصورة مقبرة للأطماع الفرنسية الصليبية ، هي بذاتها التي جعلت منها موضع مجد من أمجاد التاريخ المصري في مرحلة من أشد مراحله حرجاً في التاريخ كله (٢) .

وخلص الدكتور زيادة في ختام حديثه عن المنظور التاريخي إلى أن المؤرخ الشرقي – وهو واحد منهم – بحاجة إلى نافذة مصرية عند كتابة التاريخ سواء

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) صفحة ١٩٠ ، ١٩١ ، تصديره لتاريخ أوربا لفشر القسم الثاني صفحة هـ .

(٢) زيادة : حملة لويس صفحة ز .

أكان شرقياً أو غربيا ، وهذه النافذة ذات وضع جغرافي فريد ، وتركيب حضاري منقطع النظير – على حد قول المؤرخ الإنجليزي توينبي - ، لكون مصر جزءاً من مجتمع مزاجه الرسمي العام إسلامي منذ ظهور هذا الدين ، ولكونها أيضاً أعظم إغراء سياسياً للمجتمع الأوربي المسيحي من سائر البلاد الإسلامية الأخرى ، ذلك الذي تمثل جلياً في محاولات الأوربيين قديماً وحديثاً الاستيلاء عليها ، وعلى هذا – كما يقول زيادة – فالمؤرخ في مصر والشرق عموما لا ينبغي له حين يدرس التاريخ أن يدرسه وفق القواعد والمنظور الأوربي ، بل ينبغي له أن يطل على الموضوع كله من نافذته المصرية بما فيها من ثقافات متنوعة عاشت على أرضها وامتزجت حتى صارت وحدة ثقافية مصرية متجانسة ، تلك التي يطل منها المؤرخ ويستضيء وهو يكتب تاريخ مصر[١].

وإذا كانت هذه هي رؤية الدكتور زيادة للمخيال أو المنظور التاريخي الذي يجب على كل مؤرخ أن يحدده ويهتدي به في كتاباته ، فإنه كان في ذلك متأثراً بالمدرسة الإنجليزية من جهة ، ومن جهة أخرى كأن أشد تأثراً بأسلافه من المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ المصري وتمتعوا بهذا المنظور ، كشيخه وأستاذه المقريزي الذي قال عنه زيادة : « **شهد المقريزي ... من نافذته الفكرية المصرية**»[٢] وكذلك لاحقه ابن إياس الذي عاين أحداث مطلع القرن العاشر الهجري ، فعقب زيادة على ذلك بقوله : « **من نافذته المملوكية المصرية** »[٣].

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الثاني صفحة و –ح .

(٢) زيادة : السلوك للمقريزي ، تراث الإنسانية **٢/ ٥٠٩** .

(٣) زيادة : بدائع الزهور ، تراث الإنسانية **٣/ ٥٢١** .

وقد انعكس هذا المنظور التاريخي على نتاج الدكتور زيادة المتنوع من نشر وترجمة وتأليف ، فنظر الرجل لتاريخ وطنه من هذا المخيال وهذه الزاوية ، فسطر ما تراءى له من تاريخ مصر الأيوبية أو المملوكية وفق منظوره له ، كاشفاً عن مواطن الجدة والأصالة فيه ، كما في مقالاته الثلاث الرائعة في تاريخ الحضارة المصرية ، حيث عرض لتواريخ هذه الدول من حيث كونها كيانات سياسية أثرت وتأثرت بمن حولها من الأقطار ، مع ختام حديثه عن كل واحدة منها بالنواحي الحضارية فيها ، وما خلفته من مشاهد وآثار ونهضة علمية أو ثقافية ، تلك التي ما زالت معالمها حتى اليوم تأسر الناظرين إليها .

إذن فهذان هما **العاملان الرئيسان** اللذان أثرا في فكر الدكتور زيادة التاريخي، ومن خلالهما ظهرت مجموعة من السمات والخصائص لمنهجه التاريخي في نتاجه المتنوع ، ومن أهمها **سمة النقد والتحقيق والتعليل والتحليل** للأخبار قبل تفسيرها والولوج إلى عملية الكتابة ؛ لأن التاريخ كما وعاه الدكتور زيادة في صميمه دراسة وتحليل للسلوك الإنساني في مختلف مدارجه ومراقيه ، فليس مجرد دراية ورواية وكفى كما اقترح الدكتور أسد رستم في كتابه مصطلح التاريخ ، ليبين أوجه الشبه الظاهرة بين التاريخ والحديث النبوي الشريف ، فمع أن التاريخ فرع مبارك من شجرة الحديث ، وأصوله من أصوله ، وبعض علومه الموصلة من علومه ، فهو متفق مع الحديث في أنهما دراية فقط ، وتلك – كما يقول زيادة – بديهية لا تحتاج إلى إعلان وشرط كفاية لجميع أنواع المعرفة والعلوم النقلية والعقلية ، غير أن التاريخ مخالف للحديث في الركن الثاني من هذا التعريف الخلاب ؛ لأنه برغم اعتماده على روايات النصوص والمتون كمادة

للصياغة والإنشاء لا يجعل النصوص كل شيء ، ولا يحتم ترديد المتون وترجيعها لفظًا بلفظ كما وردت في المصادر ، ولا يطلب أن يكون عمل المشتغل به شرح الغامض من هذا وذاك كما هو المنهج الخاص بعلم الحديث والنقد فيه ، فالتاريخ بحكم كونه من العلوم الإنسانية ينظر إلى النصوص والمتون كروايات متوافقة ومتناقضة في حوادث معينة ، ويستخرج منها ما يبدو راجحاً من حقائق ، والمؤرخ هاهنا في حل من جميع الحدود المفروضة على المشتغل بعلم الحديث ، ولا جناح عليه ولا تثريب إذا لم يذكر من تلك الروايات سطراً ، بل الجناح والتثريب إذا ظن أنه عمله مقصور على إيراد تلك الروايات واحدة بعد أخرى دون هضم وتمثيل وصوغ جديد[١] .

وهذا المنهج النقدي الذي دعا إليه زيادة من عدم الاعتماد على السند كمسبار لقبول الرواية أوْ ردِّها كما هو المتبع في علم الحديث أمر جائز ومقبول طالما أن هذه الوقائع لم يرد عليها دليل من القرآن أو السنة الصحيحة ، فجل ما تناوله زيادة بالكتابة والتدوين مرتبط بشكل أو آخر بالعصور الوسطى في المشرق وما يتصل به من علاقات أو نقاط تماس مع العالم الأوربي ، ومن ثم كانت دعوة زيادة إلى عدم التعويل على النقل وكفى للروايات التاريخية ، ونقل واحدة إثر أخرى ، والتنويه بنقاط الخلاف والاتفاق بينها ، فهذا ليس من وظيفة المؤرخ ، بل عمله الرئيس هو استخلاص الحقائق من ثنايا النصوص ، بعرضها على ميزان النقد ، حتى ولو لم يذكر المؤرخ منها سطراً واحداً بفصه ونصه .

وحتى لا يظن ظان أن ثقافة الدكتور زيادة الغربية كانت حائلاً بينه وبين

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩١ .

ولوج ميدان علم الحديث ومعرفة قواعده وأصوله وأهدافه ، ما أفضى به إلى مجانبة الصواب فيما قاله ، حول : إن علم التاريخ لا يشارك الحديث في كونه رواية، أقول بملء الفيه : إن الرجل كان ضليعاً بعلم الحديث وطرائق البحث فيه ومناهجه ، ذلك الذي وضح جلياً عند نقده لكتاب فضائل الشام ودمشق للربعي ، حيث أثنى على ناشره لقيامه بوضع ملحق لمصطلح الحديث ، مبيناً أهمية ذلك في دراسة التاريخ بقوله : « **لأنه درس في علم الحديث يلذ للمؤرخ قراءته ، لمعرفة قواعد التحديث ، وطرق التمييز في الأحاديث النبوية بين الصحيح والضعيف والمرفوع والموضوع والمنكر والمعضل والباطل ، وهكذا ، لأن هذه الألفاظ الاصطلاحية هامة في تدريس مناهج البحث في التاريخ أهميتها في علم الحديث ، والمؤرخ الذي يستطيع أن يستخدمها في تقويم مراجعه وترتيبها ويجعل منها مسبارا لامتحان حقائقه هو القمين بصناعـــة التاريخ ، المأمون من القارئين على مقارفتها** »[١].

وقد طبق الدكتور زيادة هذا المنهج النقدي على مصادره التاريخية التي أعد منها رسالة الدكتوراه ، حيث طلب منه أستاذه (كوبلاند) بعد الانتهاء من إعداد الرسالة أن يلحق بها فصلاً عن المصادر التي استقى منها حقائقه العلمية ، ليلقنه درساً عملياً في الجرح والتعديل ، وليكون على بينة من أمره وأمرها ، وهذا الفصل صار بعدئذ الركيزة التي قام عليها كتاب زيادة (**المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي**)[٢].

---

(١) زيادة : نقده لكتاب فضائل الشام للربعي ص **٢٥٠** .

(٢) صفحة ز .

كما وضح هذا المنهج النقدي التحليلي في مؤلفات الدكتور زيادة للدارس وضوح الشمس في كبد السماء ، ومن أمثلة ذلك بحثه القيم (**بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر**)[١] حيث نقض فيه مؤرخنا بعض الحقائق المتواترة في المصادر جيلاً بعد جيل عن دولة المماليك البحرية حول أول من أطلق عليها هذه التسمية وعلة ذلك ، ومجانبة الصواب في تسميتها بدولة الأتراك ، على الرغم من تضافر المصادر جيلاً بعد آخر على نقل مثل هذه الروايات ، وتسليمهم بها وكأنها مسلمات لا تقبل الجدال أو النقاش أو التبديل أو التغيير .

ومن الشواهد النقدية للدكتور زيادة كذلك نقده لطريقة مؤرخي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في ترتيب مؤلفاتهم ، وانتهاجهم المنهج السردي الاستطرادي دون ربط أجزاء الحادثة الواحدة مع بعضها البعض بقوله : « **ليست في شيء من التاريخ بمعناه الحديث** » ، كما أنحى الدكتور زيادة باللآئمة على هؤلاء المؤرخين الذين قنعوا في مؤلفاتهم « **بذكر الحقائق مجردة عن أسبابها ، ... دون أن يحاولوا ربط حادثة ما بشيء سابق ، أو يجعلوا من كتابتهم قصة متصلة ، أو يعرضوا لشيء من المقدمة والنتيجة لهذا أو ذاك مما كتبوه** » ، و بالرغم أن بعض هؤلاء المؤرخين قد انتقد وفلسف وأنهى مكتوبه بأحكام واضحة في بعض الحوادث الجارية ، بيد أنها جاءت – كما يقول زيادة - « **من باب التعقيب على الحوادث للعظة والاعتبار ، دون أن يكون فيها شيء من التعليل أو التحليل أو الاستقصاء** »[٢] ، كما انتقد مؤرخنا طريقة ترتيب ابن إياس في كتابه (بدائع

---

(١) يمكن مطالعة ذلك ص .

(٢) زيادة : المؤرخون في مصر ص ٩٨ ، ٩٩ .

الزهور في وقائع الدهور) بقوله : « **وذلك دون تفرقة بين ما هو مقدمة وما هو نتيجة ، ودون اعتبار لمقتضيات الترابط التاريخي بين حوادث أيام معينة وحوادث أخواتها من الأيام السابقة أو اللاحقة ...** »(١) .

وإذا كان الدكتور زيادة قد انتقد منهج هذه الطائفة من المؤرخين فيما كتبوه ، فكان من الطبيعي أن ينتقد كذلك طريقتهم في النقل من سابقيهم دون النظر فيه أو فحصه أو تمحيصه قائلاً : « **فلم يتعرضوا لمنقولهم بمعقول أو نقد أو تجريح أو تعديل** »(٢) .

وخالف مؤرخنا شيوخه في منهجهم هذا فنقد أقوالهم ، وحلل محتوياتها ، وقارن بينها ، واستنبط أحكاماً جديدة تخالف ما نقلوه في حق بعضهم البعض ، ومن ذلك استنباطه عدم دقة حكم المؤرخين على بعضهم البعض ، ليس ذلك عن طريق الاكتفاء بالتراجم الصريحة ، بل تتبع أقوالهم غير المباشرة ، كنقد السخاوي لابن الصيرفي عند الترجمة له نقداً شديداً بقوله : « **ونصب نفسه لكتابة التاريخ فكان تاريخاً ، لكونه لا تمييز له عن كثير من العوام ، ... وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، .... وجهله واضح الظهور**)(٣)، بيد أن السخاوي عادَ في ثنايا ترجمة ابن الصيرفي وأثنى عليه وتعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره ، الأمر الذي شهد به كذلك زيادة بعد وقوفه على ما تيسر له من مؤلفات ابن الصيرفي(٤) .

---

(١) زيادة : بدائع الزهور لابن إياس ، تراث الإنسانية **٣/ ٢٥٤** .

(٢) زيادة : المؤرخون في مصر **٩٩** .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع **٥/ ٢١٨** .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع **٥/ ٢١٧ – ٢١٩** ، زيادة : المؤرخون في مصر ص**٣٨** ، **٣٩** .

ومن الخصائص التي اتصف بها منهج الدكتور زيادة التاريخي **الاستقصاء والمثابرة في تعقب الخبر الواحد** في كل مظانه المتاحة ، وجمع كل تفاصيله قبل الشروع في عملية الكتابة ، وهي من السمات التي تجلت في تعقب الدكتور زيادة لكل ما كتب عن المؤرخين في القرن التاسع الهجري من مطبوع ومخطوط في التاريخ وغيره ، لإعداد كتابه المتعلق بهذه الطائفة من المؤرخين في ذلك القرن[١]، كما تعقب الدكتور زيادة أستاذه وشيخه المقريزي في كل مصادره ، وكتب عنه مقالات ولوحات قلمية عدة ، أبانت عن قدرته في تصوير شخصية هذا المؤرخ ، كما دعا مؤرخنا تلاميذه ومعاصريه إلى اقتفاء أثره في هذه الناحية لاستيفاء ما يريدون الكتابة فيه قبلاً ، وقد ترتب على هذه السمة أن سيادته ما كان يكتب إلا بعد الإحاطة بكل جزئيات الموضوع المراد في مظانها ، وتركها لتختمر في ذهنه ، بحيث تصبح عملية الكتابة من الذاكرة مباشرة دون الالتفات أحياناً لعملية التوثيق ، الأمر الذي بدا للدارس جلياً في مقالاته الرائعة عن المقريزي وابن إياس في موسوعة تراث الإنسانية ، ودراسات عن المقريزي ، وكتابه (المؤرخون في مصر ....) .

وفيما يتعلق **بالتوثيق العلمي لمؤلفات الدكتور زيادة وكتاباته** فقد كان الرجل أحياناً يلتزم به وخاصة في أبحاثه العلمية المحكمة مثل : (**بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك**) ، و(**نهاية السلاطين المماليك في مصر**) ، وفي كتابيه (**المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر للميلاد**) ، و(**حملة لويس التاسع على مصر ...**) ، وما عدا ذلك من المؤلفات كان سيادته يسطرها من

---

(١) المرجع السابق صفحة و ، ز .

واقع الحصيلة الفكرية والتاريخية التي أحاط بها ، ومن ثم لم يعمد إلى التوثيق فيها لبيان مصادره ، إذ هي عديدة ومتنوعة ، وحصيلة سنوات طويلة من القراءات المتأنية ، وإذا كان البعض يعتبر ذلك مأخذاً عليه في منهجه التاريخي ، فقد جانبه الصواب في ذلك ؛ لأن مثل هذه الطريقة في الكتابة دون توثيق كانت معتادة لمن كان في قيمة وقامة مؤرخنا ، ولا تفت ولا تطعن في مكانتهم ومنزلتهم من الناحية المنهجية ، لاسيما إذا علمت أن الشطر غير الموثق من نتاج الدكتور زيادة كان من نوعية المقالات التأريخية التي سطرها من واقع خبرته العملية في نشر المخطوطات ، وقسم آخر كان من المقالات العامة التي تتوَّجت بها بعض الدوريات والمؤلفات التذكارية للقارئ المتخصص وغيره ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة ملحة لتوثيق محتواها في حواشيها ، كما أن السمة العامة لكتَّاب ومؤرخي النصف الأول من القرن العشرين كان يغلب عليها الكتابة فيما يبدو من غير توثيق في حواشي مؤلفاتهم .

ومن الخصائص المنهجية في فكر الدكتور زيادة ، **ميله إلى التوفر في الكتابة على الموضوعات الدقيقة المتخصصة** ، ولا ريب أن هذه السمة كانت نتيجة طبيعية لخاصية الاستقصاء والمثابرة في تتبع الخبر الواحد التي سبق الإشارة إليها ، وقد تجلت سمة الكتابات الدقيقة المتخصصة نظرياً وعملياً في النتاج التاريخي للدكتور زيادة ، فمن الأول كانت دعوته للمعنيين بالتأليف – وهو منهم – إلى عدم الانصراف في مؤلفاتهم إلى الموضوعات الواسعة فقط ؛ لأن كثيراً من المسائل والمشكلات المفردة في التاريخ المصري بحاجة إلى دراسة تفصيلية واستقصاء عميق ، كيما يصبح التعميم في المؤلفات الكبيرة والمشاريع الواسعة

بعد ذلك مأموناً سليماً وناجعا [١] .

وفي مجال التطبيق العملي بدت هذه السمة المنهجية للدارس واضحة وضوح الشمس في كبد السماء ، فالرجل تصدر اسمه في مجال التأليف منفرداً اثنين وعشرين عملاً ، لم أجد فيهما سوى كتابين فقط ، أولهما متعلق بعلم التأريخ (**المؤرخون في مصر ...**) ، وهو متوسط الحجم صنفه مؤرخنا وهو على رأس الخمسين من عمره ، وكانت نواته قد وضعها إبّان إعداده لرسالة الدكتوراه ، والثاني مؤلف مطول لموضوع تاريخي (**حملة لويس** ...) كتبه في أخريات حياته، وما عداهما كان من نوعية هذه الأبحاث التي نادى هو بها غيره ، وكان من أوائل المؤلفين لها على ما كان عليه من قيمة وقامة في تخصصه النادر ، وهذه دعوة قديمة جديدة لكل من سود صفحات لتوضع على أرفف المكتبات ، وهي لا تسمن ولا تغني من جوع في مجالها وتخصصها ، أو تعرض لما فوق طاقتهـــــا وحجمها من الموضوعات .

وهذه المنقبة السالف ذكرها في منهج الدكتور زيادة التاريخي تفسر ما يبدو غامضاً ، وما يظنه القارئ إقلالاً منه في الكتابة التاريخية المطولة ، لأن الرجل – وكثير من أترابه – كان موسوعياً في تكوينه الثقافي ، وربما كانت سعة ثقافته هو ومعاصروه مسئولة عن القلة النسبية في نتاجهم المطول ؛ لأن التاريخ عندهم يقوم على منهج صارم لا يغتفر الشطط والفروض والخيال هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الدكتور زيادة ومعاصروه – من رواد المدرسة التاريخية المصرية– ممن يؤمنون بأن النهضة الفكرية المرجوة لا تقوم دعائمها إلا بعد

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

اكتمال ساقيها بنشر التراث التاريخي ، والترجمة من عيون الفكر الغربي ، ومن ثم لم يسهبوا كثيراً في مؤلفاتهم المطولة [١] إلا بعد الإدلاء بنصيب في هاتين الدعامتين .

كما كان هذا الرعيل من الرجال ممن يؤسسون لمدرسة تاريخية مصرية تحمل الراية خلفاً لأسلافهم من غير العرب ، فكان همهم منصرفاً لبذر بذور هذه المدرسة ، ورعايتها حتى تبلغ مرحلة الفطام ، وتتمكن هي بدورها من مواصلة الحياة العلمية في الجامعات الوليدة ، ومن طلائعها يمكن خلق جيل جديد من المصريين ، يستطيع أن يؤرخ ويدون ، وهو ما تحقق على يدي خلفاء الدكتور زيادة كتلميذه النجيب سعيد[٢] عاشور وغيره ممن حملوا ا لراية خلفاً لأسلافهم وانتشرت أعمالهم المطولة في الآفاق ، بعد أن توفر لهم ما يحتاجون إليه من مصادر الكتابة التاريخية وموادها ، تلك التي أصَّل لها السابقون فكانوا من التابعين لهم بإحسان .

كما اتسم منهج الدكتور زيادة في الكتابة التاريخية **بالولع بالمقارنة بالغرب** ، فكان يكتب عن التاريخ الشرقي بعين ، ويراقب بالأخرى نظيره الغربي ، فيقارن بين هذا وذاك ، ويبين أثر كل منهما في الآخر ، ولا ريب في إنه كان مبتدع هذه المدرسة التي درست العصور الوسطى بمفهوم جديد يربط بين الشرق والغرب كما ألمع الدارس إلى ذلك في المبحث الأول ، فعند حديثه عن مفهوم الإقطاع نوه

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : شفيق غربال مؤرخاً ص **٢٦١** .

(٢) الذي خلف للمدرسة التاريخية تسعة عشر مؤلفا ، وخمسة أعمال تراثية ، وثلاثة وأربعون بحثاً ومقالاً ، وأشرف على أربع وأربعين أطروحة علمية . حسنين ربيع : سعيد عاشور صفحة ز – ر .

مؤرخنا إلى الشبه الظاهري في كلا النظامين الإقطاعيين في الشرق والغرب ، الذي قد يخدع القارئ فيظنهما نوعاً ونظاماً واحداً ، انطبق على الشرق كما كان في الغرب ، بيد أن الدكتور زيادة حرص على الدقة المتناهية في بيان أوجه الخلاف والشبه فيما بينهما .

فمن النوع ا لأول الاختلاف في أصلهما وجذورهما حيث إن الإقطاع لم يعرف في المجتمعات الإسلامية ذات الصبغة الصحراوية التجارية ، بدليل أنه لم يرد في كتاب الله ذكر لهذه الكلمة أو مترادفاتها ، وإن شهد الشرق بعد العصور الإسلامية الأولى تنظيمات إقطاعية قامت مبعثرة في مختلف الأقاليم التي شهدت الفتوح الإسلامية ، وظلت على هذا المنوال المبعثر ، حتى كانت أيام بني بويه ثم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك ، فغلبت الناحية الحربية على الدول السالفة ، فعمدت إلى تعميم النظام الإقطاعي وتطبيقه على المجتمع وتسخيره لسياستها ، وظهرت تبعاً لذلك المؤلفات والدساتير التي تقننه ، كصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ت **٨٢١**هـ/ **١٤١٨**م ، وزبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين ت **٨٩٣**هـ / **١٤٨٨**م وغيرهما ، وأما منشأ الإقطاع في الغرب فأصله وجود المجتمع الزراعي الطبقي ، وهو ما درج عليه المجتمع الأوربي الغربي في العصور الوسطى كلها من حياة زراعية اكتفائية ، وإقليمية جغرافية محدودة المعالم ، وطبقة حربية أركانها الملوك والنبلاء والفرسان ورجال الدين ، وهذا التنظيم الإقطاعي مرحلة من مراحل التطور العام في تاريخ الدول الملكية السالفة منذ العصور الوسطى في الغرب[١] .

---

(١) زيادة : تصدير لكتاب النظم الإقطاعية لطرخان ص **٥** ، **٦** .

وفضلاً عن اختلاف النظامين في أصلهما ، فإنهما اختلفا كذلك في طبيعة التملك في كل منهما ، فعلى حين تطور الإقطاع الأوربي حتى غدا متأثراً بمبدأ التوريث وتملك الرقبة ، ظل الإقطاع المملوكي الشرقي في الغالبية العظمى شخصياً فقط ، ولا يعني أكثر من قطعة أرض أو أي حصيلة مالية ، لا يتمتع صاحبها بحق ملكيتها أو التصرف فيها أو توريثها ، بل يقتصر تمتعه بها على استغلالها مدة إقامته في وظيفته أو مدة حياتـــــــه فحسب ، وفق قواعد وشروط خاصة[1] .

ومن النوع الثاني المتعلق بأوجه الشبه والاتفاق والتأثير والتأثر بين كلا النظامين الإقطاعيين ، أن دول المشرق تأثرت بالإقطاع الأوربي بعد حلول الصليبيين في بلاد الشام ، فانتقلت بعض خصائصه بلفظها ومعناها إلى تلك الأقطار كبقاء بعض ألفاظ وأسماء ونظم إقطاعية غربية حتى اليوم في بلاد الشام مثل : الضيعة والناطور ، كما انتقلت بعض النظم الإسلامية الوسيطة إلى محيط الصليبيين ، كاستخدام هؤلاء لمنصب الحسبة على غرار ما استخدمه المسلمون في مراقبة الأسواق والقضاء ومجلس الحكم[2] .

كما قارن مؤرخنا بين طبيعة النظامين الحاكمين في الشرق والغرب ، وهو النظام الملكي ، ونجاح مبدأ الوراثة في كليهما ، وذلك في سياق حديثه عن ورثة الناصر محمد بن قلاوون ونجاح ثمانية من أبنائه وأربعة من أحفاده في التعاقب على الحكم ، ومقارنة ذلك بما حدث في الغرب الأوربي حيث قال : « **ولذا**

---

(١) زيادة : الدولة المملوكية الأولى ، تاريخ الحضارة المصرية ص **٥٠٢** .

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة ص **١٢٥ – ١٢٩** ، زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة م ، ن .

أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبناء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروفنجيين المتأخرين، الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى »[١].

وكذلك قارن الدكتور زيادة بين سياسة هذا السلطان الناجحة وجنوحه إلى السلم مع الأوربيين ، وتخليد تاريخه بما خلفه من قصور ومنشآت بنظرائه في الغرب بقوله : « **ولذا يشبه الناصر محمد من بضع نواحٍ لويس الحادي عشر ملك فرنسا في القرن الخامس عشر** » ، كما اقتبس مؤرخنا بعضا من العبارات الأوربية في وصف طريقة حكم السلطان الناصر محمد ، ونجاحه في التمسك بالحكم الفردي أربعة عقود متتالية ، حيث قال : (**وحكم الناصر محمد دولته حكماً فردياً بيد حديدية مكسوة بناعم القطيفة على قول التعبير الأوربي**)[٢].

ومن ظواهر هذا المنهج المقارن الذي اتبعه الدكتور زيادة في كتاباته الدعوة للاستفادة من المؤلفات الأوربية المترجمة والسير على منوالها في الكتابة التاريخية عن الموضوعات المتشابهة في المشرق ، كدعوته عند ترجمة كتاب (الإقطاع لكوبلاند) أن يكون في ذلك إبراز للنموذج الأوربي الغربي في اللغة العربية ، ليستفتح به المشتغلون بالتاريخ المصري ، وليسيروا على نحوه سيراً علمياً مأموناً[٣] ، وكذلك دعوته عند ترجمة كتاب (تكوين أوربا لكرستوفر دوسن) إلى أن يكون ذلك مقدمة لتسطير كتاب عن تكوين الشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، ويكون هدفه البرهان عن طريق الظواهر الحضارية الشرقية على ما

---

(١) زيادة : الدولة المملوكية الأولى ص ٥٠٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٩ .

(٣) زيادة : تصديره لكتاب الإقطاع صفحة ل .

بهذا الشرق من وحدة حضارية متكاملة متنوعة الأجزاء ، بالإضافة إلى وحدته الجغرافية الطبيعية ، مثلما فعل مؤلف الكتاب الأوربي[١] .

كما أولى مؤرخنا اهتماماً بليغاً في كتاباته بنقاط التماس التي التقت فيها الحضارة الشرقية بنظيرتها الغربية ، كتأصيله للمحاولات الصليبية الدؤوبة للاستيلاء على مصر منذ فجر الحروب الصليبية وحتى حملة لويس التاسع ، وذلك في كتابه (**حملة لويس التاسع على مصر ...**) وقبل هذا كان حديثه في محاضرة ابن جبير عن كثير من شواهد الاتصال بين الشرق والغرب ، ومحاولة الربط بين هذا وذاك ، كتمنيه أن لو وصف ابن جبير طريقة معاملة أمناء السلطان في ميناء الإسكندرية لغير المسلمين عند نزولهم إلى مصر ، مما قد يدفع مؤرخي الحروب الصليبية إلى القصد في عبارتهم المتواترة من القول : بأن سوء معاملة هؤلاء الأوربيين من الحجاج وغيرهم كانت سبباً في إشعال فتيل الحروب الصليبية [٢] ، كما أدلى الدكتور زيادة بدلوه في علة تسمية هذه الحروب بذلك المسمى ، استنادًا لما ذكره ابن جبير في عبارة قصيرة من أن أفضل أوقات السفر من الشرق إلى الغرب كانت عند هبوب الرياح في الخريف ، والتي كانت تعرف عند أهل الشام بالصليبية ، فتلقفها زيادة قائلاً : قد تكون هذه هي علة تسميتها بالصليبية فتكون رمية من غير رام[٣].

ومن سمات منهج الدكتور زيادة التاريخي **النظرة الشاملة إلى التاريخ** باعتباره

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تكوين أوربا صفحة ط .

(٢) زيادة : تقديمه لرحلة ابن جبير ص ٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ ، ١٥ .

وحدة واحدة تنقسم إلى أجزاء وفروع ودول بين الشرق والغرب، فلا يمكن للمؤرخ أن يكتب عن تاريخ دولة ويتناسى ما حولها من الدول والحضارات التي أثرت فيها أو تأثرت بها ، فتواريخ الأمم الأخرى محتاج إليها لإتقان صناعة التاريخ القومي من عدة وجوه ، وهي كذلك من مقومات الثقافة العامة ومكملاتها ، ومن ثم فإن تقسيم التاريخ إلى عصور متولد بعضها من بعض ، ثم إلى دول منسلخ بعضها عن بعض ضرورة علمية عامة لفهم التاريخ ، كما نظر الدكتور زيادة إلى التاريخ الإسلامي كوحدة تاريخية واحدة وهي جزء من التاريخ العام ، وليس التاريخ العام جزءاً منها ، وبين هذا الجزء الإسلامي وسائر أجزاء التاريخ في الشرق والغرب وفي السابق واللاحق من العصور التاريخية تماس أحياناً ، وتداخل أحياناً أخرى ، وتقاطـــع أحياناً سواء في الخير أو الشر وما بينهما من نوازع (١) .

وقد وضحت هذه السمة في ضبطه لحوادث كتابه (المؤرخون في مصر ...) بالتاريخ الميلادي ، ليجعل منه مرآة لناحية من نواحي الحياة العلمية والثقافية بمصر في العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناه الإسلامي الخاص ، وليدلل بذلك على مبلغ ما أسهمت به مصر في التراث الإنساني ، وليبرهن على أن المجتمع المصري الإسلامي في العصور الوسطى – زمنياً وليس حضارياً – جزء هام من المجتمع البشري في تلك العصور (٢) .

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب الدولة الإسلامية صفحة هـ ، و ، تقديمه لكتاب قيام دولة المماليك ص ٥ . صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ .

(٢) زيادة : المؤرخون في مصر صفحة ط .

كما كان الدكتور زيادة يرى أن التاريخ الإسلامي ليس وحدة مقفلة ، ولا ثبتا لعهود الخلفاء والولاة والملوك ، وقصائد من شعر المداحين والوصافين في مختلف المناسبات ، حتى يخيل للقارئ أنه يطالع أخبار الفردوس المفقود ، بل هو تاريخ اقتصادي اجتماعي سياسي مثل تواريخ سائر الأمم ، وفي معالجة مشكلاته وشرح تطوراته وتياراته ما هو أهم كثيراً من الوقفات الطويلة أمام السنوات والشهور لمناقشة ما ورد في تحديدها من روايات (١) .

وكانت للدكتور زيادة **نظرة منهجية مستقبلة للتاريخ الاجتماعي** ، الذي تنبأ له أن يصبح هو الوحيد الذي تصح تسميته تاريخاً عند الإطلاق ، وما عداه سينبغي على المؤرخين أن يسموه بأسماء مركبة ، كالتاريخ السياسي ، أو العسكري ، أو الاقتصادي ، ... ودلل مؤرخنا على نجاعة نظرته تلك بأن التاريخ الاجتماعي وإن اقتصر على التعريف بطرق الحياة عند الفرد والجماعة ، وعلى وصف المجتمع في تقدمه وتأخره ، فهو يوضح كذلك آثار الملوك في ممالكهم ، وينوه بالرؤساء والزعماء ، ويفسر أسرار قيام الدول وسقوطها ، وتعاقب الملوك ، وتوارث العروش ، واشتعال الحروب وخمودها ، لأن واحداً من هذه الأشياء لا يمكن أن يتأتى إلا نتيجة لما بالمجتمع من عوامل ومؤثرات ظاهرة وباطنة ، ذلك أن الدولة التي تستطيع النمو والتوسع – اقتصادياً أو حربياً – لابد أن تستمد استطاعتها هذه من مجتمع قادر على النمو والتوسع ، كما أن الدولة التي تبدو عاجزة وقاصرة بالقياس إلى غيرها من الدول لابد أن يكون

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الأول صفحة ز .

قصورها وعجزها أثراً لما بالمجتمع نفسه من نقص مادي أو روحي [١] .

وهذه قضية قديمة جديدة ، ما تزال حتى تسطير هذا الموضوع مثار اهتمام للمشتغلين بالكتابة التاريخية ، الذين يرون أن التاريخ أوسع رحابة في تدوينه من مجرد حوادث الحكم والسياسة في القصور ودوائر الحكم والإدارة ، فالتاريخ سجل شامل لحركة المجتمع في الداخل والخارج ، ومن ثم أسهم غير واحد من المصريين المعاصرين في الكتابة في التاريخ الاجتماعي كالسيد يس ، وإلقاء الضوء على المشترك بين التاريخ والمأثورات الشعبية والشفاهية كمحمد الجوهري ومحمد مرسي ، وإبراز العلاقة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية كأحمد زايد وفيصل يونس، والبحث في التاريخ الثقافي لقراءة تاريخ الفكر المصري كجابر عصفور ، هذا في الشرق ، أما في الغرب فقد خطا هذا المنهج خطاه بسرعة كبيرة ، حتى شمل كل ما يتعلق بالبشرية من أحداث لم يكن للسابقين شغوف بتدوينها وكتابتها ، كالتاريخ البيئي ، والتاريخ الشفاهي ، وتاريخ المهمشين ... ، مما يدلك على أن مؤرخنا كان ذا نظرة مستقبلة لهذا النوع من الدراسات التاريخية وكأنه يستشرف الأحداث [٢] .

كما أولى الدكتور زيادة **اهتماماً بليغاً بمسألة التقاسيم الشائعة في معظم المصادر المتداولة** ، من تقسيم العصور إلى سلسلة رتيبة من عهود حكام وملوك ، وغض الطرف عما للأمة من دور في هذا أو ذاك من الأحداث ، مع أن هؤلاء الحكام

---

(١) زيادة : تصديره لكتاب نهاية الرتبة صفحة ج .

(٢) محمد عفيفي : نظرات جديدة على الكتابة التاريخية ، ص ٦ ، ملحق أهرام الجمعة ٢١/١/ ٢٠١١م .

ليسوا وحدات قائمة بذاتها في حياة الأمم ، بل الأمم نفسها وعلى رأسها ساستها وقادة الرأي فيها هي التي تعين تاريخها وتقاسيمه ، وذلك بما تحدثه – أو يحدث لها – من تغير وتطور سواء أكان طفرة أم تدريجاً ، وعلى هذا فينبغي على المؤرخ – كما يقول زيادة – أن يجعل من تلك الحقيقة الجامعة عند تدوينه وكتابته للتاريخ ضابطاً ومسباراً لعمله ، لتجيء كتاباته تصويراً حياً ممثلا لمجموعة الأمة ، (Body- politic) حكاماً ومحكومين ، ومن ثم كانت دعوة زيادة إلى أن تاريخ الشرق في العصور الوسطى بحاجة إلى عقول شرقية جديدة مستنيرة لمثل هذه الكتابة ، التي هي بدورها في حاجة إلى تقسيمات تاريخية جديدة مستمدة من القوانين العلمية في دراسة التاريـــــــــــخ والبحث فيه لا التقاليد الموروثة القائمة على السرد[١] .

لا يخالج المرء ريب في أن الدكتور زيادة بدعوته إلى توفر المشتغلين على هذا النوع من التاريخ الاجتماعي كان سابقاً لعصره بكثير ، ومتأثراً فيما يبدو بالمدرسة الغربية ، لترجماته المتنوعة حول مثل هذا الموضوع ، (ككتاب تكوين أوربا لكرستوفر دوسن) ، و(تراث العصور الوسطى لكرامب وجاكوب) ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان الرجل أشد تأثراً بشيخه وأستاذه المقريزي ، الذي كان له قصب السبق للكتابة في مثل هذه الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية في كتابه (**إغاثة الأمة بكشف الغمة**) وغيره من المؤلفات الصغرى للمقريزي ذات الطابع الاجتماعي الاقتصادي الذي برع فيه وفاق سابقيه

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٩٠ ، تقديمه لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الأول صفحة ز .

ولاحقيه ، وكذلك ابن إياس الذي كان يسطر من نافذته المصرية ما يحدث للمجتمع المصري في أخريات دولة المماليك من مخايل الانهيار ، لجشع السلاطين في جمع الأموال ، ولإحداق الأخطار بمصر من جانب البرتغاليين والعثمانيين ، لذلك كانت دعوة الدكتور زيادة إلى العناية بتاريخ الأمة ؛ إذ هو أولى بالتدوين والتأريخ من غيره ، ذلك الذي بدأ على استحياء في كتاباته ، وإن كان قد شد من عزيمة لاحقيه للولوج إليه .

كما كان من خصائص منهج الدكتور زيادة في كتاباته ومترجماته **الدعوة للأهداف التربوية** ، لربط الماضي بالحاضر وهذا بالمستقبل ، فقد أدرك مؤرخنا أن التاريخ صور للماضي غير متكررة ، وأن تلك الصور ليست لمجرد الإمتاع والمؤانسة لمؤلفيها أو الناظرين فيها ، بل هي الوسيلة لتعريف الأمة بأصلها وكيفها وطاقتها وماضيها ووضعها ومكانتها بين الأمم في مختلف الأزمنة ، والأمة – بالغة ما بلغت من حاضر القوة والمنعة – مفتقرة إلى معرفة ذلك كله جيد المعرفة ، كي تستنير به في مشكلاتها الطارئة ، وليستضيء عليه أبناؤها السبيل إلى القومية الصحية المعتدلة ؛ إذ لا سبيل إلى فهم الحاضر والمعيشة الراضية به إلا بفهم الماضي ، أما القنوع بالحاضر وما فيه وحده ، فإن معناه ضمناً عدم الاهتمام بالمستقبل ، ولا خير في مواطن لا يهتم بمستقبله وماضيه سواء[(١)] .

وتلك القضية كانت من أهم القضايا التي شغلت فكر الدكتور زيادة طيلة حياته ، وظهر أثرها جلياً واضحاً في نتاجه الفكري من نشر وترجمة وتأليف ، **قضية التاريخ القومي المصري** وكيفية إخراجه في صورته الحقيقية اللائقة به بين

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (٤) ص ١٨٩ ، تصديره لكتاب الإقطاع صفحة ن .

تواريخ الأمم ، خاصة حقبة العصور الوسطى منه ، تلك التي كانت مصادرها الأولى – في عصر زيادة – ما تزال في ثوب المخطوطات ، ومن ثم كانت دعوة مؤرخنا لمدرسة التاريخ في مصر وللمعنيين بهذا الأمر أن يساهموا جماعات وفرادى بنصيب في نشر وإحياء هذا التراث ، وأنه لا يحق لأحد من هؤلاء وأولئك أن يتخذ لنفسه هذه الصفة ، إلا إذا أسهم في هذا الواجب أولاً بنصيب ، دون حساب للجزاء الكافي ، أو الشكر الوافي ، أو الصيت السريع ، معللاً ذلك بقوله : لسنا بمستشرقين يكفينا العمل في إحياء التراث التاريخي كهواية أو دعاية، بل نحن شرقيون واجبنا الكد المتواصل في هذه الناحية ، لتصبح المادة الأولية للتأليف السليم المأمون في المتناول العام ، وبذلك – كما يقول زيادة – يخطو البحث العلمي في تلك الناحية من التاريخ المصري خطوة للأمام ، ويصبح عمل المؤرخين سهلا ومؤلفاتهم قيمنة بما يريدون لها من عناوين وأسماء ومكان محترم تحت الشمس [١] .

ولم يكن الدكتور زيادة يقصد من ذلك الدعوة إلى قومية مسرفة ، أو إلى إهمال تواريخ الأمم الأخرى لقلة الصلة وضآلة العلاقة بها ، لأن التواريخ الأجنبية محتاج إليها لإتقان الصناعة في التاريخ القومي من عدة وجوه ، وهي أيضاً من مقومات الثقافة العامة ومكملاتها ، وإنما الغرض تركيز النشاط الكائن في الميدان الذي من معدنه ، لاسيما وأنه – كما يقول زيادة – كان ميداناً بكراً وخاماً وفيه أكثر من متسع لجميع القادرين على مقارفة التاريخ ومعاناته ، مع

---

(١) زيادة : صناعة التاريخ (١) ص ١٨٦٩ ، المقالة الثانية ص ١٩٨٩ ، المقالة الرابعة ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

الإخلاص والإيمان بضرورة توجيه الهمم إلى تلك المقومة الأولى للحياة الثقافية في مصر آنذاك [١] .

والحق رأيت أن مؤرخنا كان أول المساهمين في هذا وذاك ، فقد عكف ما يربو على ثلاثة عقود لنشر ما تيسر له من سفر السلوك لمعرفة دول الملوك – كما عرض الدارس – ثم كانت كتاباته ومؤلفاته من تلك النوعية التي تهدف إلى إبراز هذا التاريخ المصري في العصور الوسطى بصورة حقيقة تقوم على الحقائق ، مع إبراز مواطن الجدة والأصالة فيه ومكانته من التاريخ العالمي ، ذلك الذي تمثل في مقالاته عن الدولة الأيوبية ووريثتها المملوكية ، مع المزاوجة في هذه الكتابات بما يرتبط بها من علاقات مع الغرب الأوربي ، سواء أكان ذلك المعروض قاسماً مشتركاً بين الثقافتين من أوجه التشابه أو التقارب في النظم والعادات ، أو كان ميداناً للصراع على النفوذ ، ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذه النظرة للتاريخ المصري في فكر الدكتور زيادة تعد محور تفكيره وكتاباته ؛ إذ هي من صميم تخصصه الدقيق في العصور الوسطى بمعناه العلمي الجديد ، الذي كان لزيادة قصب السبق فيه ، ووضع قواعده وأطره القائمة على المزاوجة بين تاريخ الشرق والغرب في هذه الحقبة .

ومن الابتكارات المنهجية في فكر الدكتور زيادة **وضعه لقواعد علم التأريخ (الأسطوغرافيا)** ، وهو حقل كان جديداً وبكراً للمؤرخين في عصره ، فكان لمؤرخنا قصب السبق فيه بمؤلفه النادرة الشيق (المؤرخون في مصرفي القرن الخامس عشر للميلاد) ، ذلك الذي كان فاتحة عهد جديد لمثل هذا النوع من

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ .

الكتابة عن مناهج المؤرخين ومدارسهم ، ومقارنة مؤلفاتهم مقارنة تكشف النقاب عن قيمة كل منها بالنسبة لغيره ، وما أضافه هذا أو ذاك من معرفة حقيقية أو منحولة من غيره ، ولم يكن مثل هذا العمل بالسهل الميسور للدكتور زيادة في عصره إذا ما علمت أن جل التراث التاريخي الذي تناوله كان لا يزال مخطوطاً عند الشروع في موضوعه هذا إبّان إعداده لرسالة الدكتوراه كما أن هذا العمل كان النواة الأولى لمثل هذا النوع من الجهود لجمع سلاسل المؤرخين ومؤلفاتهم في كل العصور ، وتطوره مع مرور الأيام حتى غدا فرعاً هاماً من فروع الدراسات التاريخية .

ومن هذه الإضافات المنهجية للدكتور زيادة بذله جهدا كبيرا **في وضع المصطلحات الجديدة الخاصة بتاريخ العصور الوسطى بالعربية** ، وهي المصطلحات التي لم يعرفها الباحثون العرب من قبل ، لبعدهم عن الميدان الذي طرقه الدكتور زيادة من زاوية جديدة ، وهو الربط المحكم بين تاريخ الشرق والغرب ، واستكشاف مجاهل هذه العصور ، كمصطلح الإقطاع وغيره [١] ، كما أنه بذل جهداً في التعريف بالمصطلحات الغربية الواردة في أعماله المترجمة ، والتي كانت جديدة على آذان القارئ العربي ، فعرف بها ، وجعل من ضمن دوافع ترجمة مثل هذه الأعمال « **التعريف بالمصطلح التاريخي الجديد على القارئ العربي**»[٢].

كما بذل الدكتور زيادة جهداً خارقاً في شرح وتفسير المصطلحات المجهولة الواردة في المتون التراثية المتعلقة بحقبة العصور الوسطى في المشرق ، ونظرة

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ٧ .

(٢) زيادة : تصديره لكتاب تاريخ أوربا لفشر القسم الثاني صفحة ط .

فاحصة لمتن وحواشي كتاب السلوك تنبئ بالكثير من هذه المصطلحات التي فسرها الدكتور زيادة من مصادر عربية متنوعة وأخرى أجنبية ، والتي صارت هي وباقي الحواشي تؤلف ثروة علمية ضخمة يتعذر بل يستحيل – كما يقول سعيد عاشور – العثور عليها في أي مرجع آخر[١] ، كما تعقب الدكتور زيادة مثل هذه المصطلحات تاريخياً ، وقام بتأصيلها ، وبيان أول ورود واستخدام لها ، كما فعل مع مصطلح (الترابي) في بحثه القيم (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك) [٢] .

ومن الخصائص الأسلوبية للدكتور زيادة في كتاباته ومترجماته الدقة المتناهية في التعبير ، وتخير ألفاظه ، بحيث تجمع بين الأسلوب السهل الممتنع مع بلاغتها وفصاحتها من غير تعقيد ولا تقليد ، فضلاً عن صياغة كلماته في عقد فريد متماسك متراص كل لفظة في مكانها ، مع تأثره بلغة القرآن الكريم في عباراته وألفاظه ، على الرغم مما يُظن من البون بين لغة صاحب مثل هذا التخصص وما تتسم به العربية من فصاحة وبلاغة ، ولقد وضح هذا الأسلوب اللغوي الراقي حتى في مترجماته من التراث الغربي ، إذ يطالعها القارئ فيظنها لبلاغتها من مؤلفاته .

وبعد فلا يساور المرء ريب في أن مؤرخنا تأثر أيما تأثُّر بالمدرسة الإنجليزية التاريخية ، بما امتازت به من نقد وفحص وتمحيص للمادة التاريخية قبل الشروع في التفسير والتعليل ثم الكتابة ، كما كان سيادته ذا مخيال تاريخي ومنظور للأحداث

---

(١) سعيد عاشور : كلمة تأبين زيادة ص ١٢ .

(٢)ص ٨١ ، ٨٢ .

استمده من ثقافته المصرية العريقة ، بما لها من تراث تليد في التاريخ وغيره ، فكان هذان العاملان المؤثران هما محور جهود الدكتور زيادة ، الذي وازن بين أدوات البحث الغربية التي تمرس فيها خلال مرحلتي الليسانس والدكتوراه وبين ثقافته العربية المصرية ، فجاء نتاجه حصيلة هذين العاملين ، وانصب على إظهار التاريخ المصري في صورته الحقيقية من واقع تراثه ، والبحث عن مواضع الالتقاء أو التصادم مع نظيره الغربي ، فيما تعارف عليه المشتغلون بمدرسة تاريخ العصور الوسطى ، وبذلك يكون الدكتور زيادة – في رأي الدارس المتواضع – خليقاً بلقب المؤرخ الكبير الذي أسدى لوطنه في مجال الدراسات التاريخية من نشر وترجمة وتأليف ما سيظل نبراساً لكل المشتغلين بالتاريخ إلى يوم يبعثون ، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .


خاتمـــــة

بعد طول حل وترحال ، وطواف وأسفار ، متعقبًا أثر الدكتور زيادة بين ذخائر المخطوطات ، وروائع المترجمات ، وفريد المؤلفات ، وقمين المقالات ، آن للدارس ولقلمه أن يلتقط الأنفاس ، مسطرا ما عنَّ له من وقفات ، وما عله يكون قد توصل إليه من نتائج جديرات ، حول ما سلف من حقائق وجلائل الأعمال لذلكم المؤرخ الجليل ، الذي كان صاحب رؤية ومنهج تاريخي فريد بزَّ فيه معاصريه ، لتحقيق نهضة علمية لوطنه ، بالأخذ بالأساليب العلمية الرصينة ، التي تعارف المستشرقون عليها **لإحياء تراث أمته** بعد طول هجود ، وإخراجه في ثوب قشيب ، تكتحل به العيون ، إذ هو بذلك جدير ، فنظَّر الرجل من القواعد الكفيلة لتحقيق ما يريد ، وضرب له بسهم وافر قمين في نشر سفر من عيون التراث التاريخي التليد ، مع دعوته لأتباعه ومعاصريه باقتفاء أثره في هذا السبيل ، والإدلاء لهم بنصيب مفروض ، قبل الادعاء بالانتماء لمدرسة التاريخ بسبيل ، مع تقييمه لهذه المتون ، لتخرج في أبهى حلة تروق للمشتغلين .

كما **شكلت الترجمة** من عيون المؤلفات الغربية التاريخية إلى لغة الضاد الدعامة الثانية في فكر الدكتور زيادة ، لتحقيق النهضة العلمية المأمولة ، بيد أنه قيدها بضوابط وشروط من حيث جدارة الأعمال للترجمة ، وشروط القوامين عليها ، والأهداف المرجوة منها ، فجاءت أعماله فيها قطعة من الأدب الفريد ، المنظوم في عقد كحبات اللؤلؤ المكنون ، يخاله القارئ قبساً من مؤلفات زيادة ونتاجه ، ما يدلك على براعته في صياغته وترجماته ، مع التأصيل الكامل لمنقولاته ، والحفاظ على الحقيقة التاريخية للمؤلف وأنماطه .

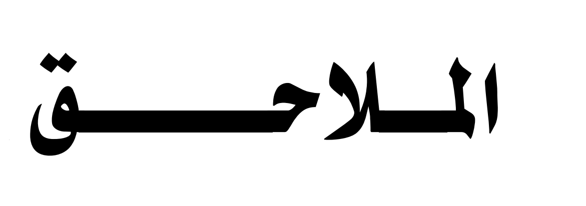
ومثَّل **التأليف العلمي** الدعامة الخاتمة في جهد الدكتور زيادة ، الذي تدرع فيه

بالمناهج العلمية الرصينة ، للبحث عن الحقيقة التاريخية وعليتها ، ودعا نفسه ومعاصريه إلى التوفر على الكتابة في الموضوعات الدقيقة كيما يصبح التعميم في الأعمال الكبيرة مأموناً ، وتوجيه الهمم إلى الفترات المطمورة في التاريخ المصري الوسيط ، الذي لا يقل طلاوة عن سابقه ولاحقه ، مع عدم المغالاة في القومية أو الإسراف المؤدي إلى تجاهل تواريخ الأمم ، التي ارتبطت حياتنا بهم ، وتجلى ذلك المنهج العلمي الدقيق فيما خلفه الدكتور زيادة من نتاج في مثل هذه الموضوعات مما عاينه القارئ على صفحات هذه الدراسة غير مرة .

وكشف البحث عما للدكتور زيادة **من فضل في تأسيس مدرسة تاريخ العصور الوسطى** في مصر بمعناه العلمي ، ذلك الذي يسير عليه المهتدون ، من المزاوجة بين تاريخ الشرق والغرب ، وبيان مواطن التماس فيه ، أو الكشف عن الحلقات المفقودة من أحداثه ، أو تفسير المبهم من وقائعه ، أو استنباط لقواعد من مجرياته ، مع إيضاح ما أسهم به أولئك المؤرخون الأجداد في سلك الحضارة الإنسانية من تراث تليد ، توفر الدكتور زيادة ومعاصروه على فحصه ودراسته وتحليله للخروج منه بحقائق جديدة ، تبرز مكانة كاتبيها ، وتكشف النقاب عما خفى بين سطورها .

وأبان البحث **عن فكر الدكتور زيادة ومنهجه** الذي من خلاله جاء نتاجه ، فقد كان الرجل يحمل بين جوانحه قضية وطنه مصر ، وكيف يزلل السبيل لها نحو تحقيق النهضة العلمية ، تلك التي سبقه إليها الغرب ، ومنه تلقن زيادة علومه ومعارفه ، بيد أنه لم يتفرنج أو يتغرب ويتخلى عن ثقافته وتراثه ، بل نادى بصوت عالٍ للأخذ بالأساليب العلمية الحديثة في دراسة التاريخ والكتابة فيه ،

وإحياء المتون التراثية الأصيلة ، مع الاقتباس من المؤلفات الغربية بقدر محسوب، ثم المساهمة في مجال التأليف العلمي بنصيب ، ومن هذا كله تخطو الأمة نحو الطريق السوى للنهضة ، ذلك الذي نظَّر له الرجل ، ووجد طريقه إلى أرض الواقع فيما عاينه القارئ بين دفتي هذا البحث المنظور .


الملاحق

١ـ خريطة لموقع مقاطعـة ليفربول من بريطانـــيا .

٢ـ صورة فوتغرافية للمحاضرة المخطوطة التي أهداها الدكتور حسنين محمد ربيع للباحث ٥/٤/ ٢٠١١م .

٣ـ صـــــورة فوتغرافية لغلاف كتاب نابليون لفشر ترجمـــــــــــــة الدكتور زيـــادة سنة ١٩٢٧م .

٤ـ صورة فوتغرافية لواجهة بحث الدكتور زيادة (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر) سنة ١٩٣٦م .

٥ ـ صـــورة فوتغرافيـة للمقالة الأولى من (صناعة التاريخ في مصر) للدكتور زيادة سنة ١٩٤٠م .

٦ ـ صورة فوتغرافية للمقالة الثانية من (صناعة التاريخ في مصر) للدكتور زيادة سنة ١٩٤٠م .

٧ـ صـــورة فوتغرافية للمقالة الرابعة من (صناعة التاريخ في مصر) للدكتور زيادة سنة ١٩٤٠م .

٨ ـ صـورة فوتغرافيـة لغـــلاف كتاب (المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي) للدكتور زيادة سنة ١٩٤٩م .

٩ ـ صورة فوتغرافية لواجهة كتاب تاريخ الحروب الصليبية لسيتن الجزء الثاني ١٩٦٩م حيث نُشر بحث الدكتور زيادة (تاريخ سلاطين المماليك حتى سنة ١٢٩٣م) .

١٠ـ صورة فوتغرافية للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٢٢ـ ٢٠٠٥م) .

ثبت المصادر

أولاً : المصـــــــــادر .

ابن إياس : **محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م** .

١ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور .

خمسة أجزاء ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس د/ محمد مصطفى صفوت الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، طبعات مختلفة ، **١٩٨٢ – ٢٠٠٨**م .

ابن تغري بردي : **جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٨٧٤هـ / ١٤٦٩م** .

٢ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

الجزء الخامس عشر ، تحقيق د/ إبراهيم علي طرخان

مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ،

الهيئة المصرية العامة للتألـيف والنشر ، سلسلة تراثنـــا ، د ط ، **١٣٩١**هـ/ **١٩٧١**م .

التونسي : **محمد بن عمر ت ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م** .

٣ـ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

حققه وكتب حواشيه د/ خليل محمود عساكر ، ود/ مصطفى محمد مسعد ، راجعه د/ محمد مصطفى زيادة .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، سلسلة تراثنا ، د ط ، **١٩٦٥** م .

ابن جبير : **أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م** .

٤ـ رحلة ابن جبير (**تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**).

تقديم د/ محمد مصطفى زيادة .

دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، بيروت ، القاهرة ، د ط ت .

السخاوي : **محمد عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م** .

٥ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

١٢ جزء ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

أبو شامة : **شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م** .

٦ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

الجزء الأول ، قسمان ،

تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة .

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٨م .

الشيزري : **عبد الرحمن بن نصر ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م** .

٧ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة .

قام على نشره السيد الباز العريني ، إشراف د/ محمد مصطفى زيادة .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د ط ، ١٩٤٦م .

أبو علي : **أحمد بن الحاج** .

٨ـ مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية .

جمعها وكتبها أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة .

تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة .

دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، وشركاه ، د ط ت .

العيني : **بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م** .

٩ـ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي .

حققه وقدم له فهيم محمد شلتوت ، راجعه د/ محمد مصطفى زيادة ،
الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ، العدد **٩٢** ، مارس**٢٠٠٣**م، د ط .

الكندي : **أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م** .

١٠ـ المختار من كتاب ولاة مصر وقضاتها

اختيار د/ إبراهيم أحمد العدوي ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة .
وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإدارة العامة للثقافة ، دار المعرفة د ط ت.

المقريزي : **أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي ت ٨٤٥هـ** / **١٤٤١م** .

١١ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة .

قام على نشره د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ جمال الدين محمد الشيال .
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ط**٣** ، **١٤٢٢**هـ/ **٢٠٠٢**م .

١٢ـ خطط المقريزي .

ثلاثة أجزاء ، قدم لها د/ محمد مصطفى زيادة .
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د ط ت .

١٣ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

الجزءان الأول والثاني في ستة أقسام .
صححهما ووضع حواشيهما وقدم لهما د/ محمد مصطفى زيادة .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د ط ، **١٩٣٤- ١٩٥٩**م .
الجزءان الثالث والرابع في ستة أقسام .
حققهما وقدم لهما ووضع حواشيهما د/ سعيد عبد الفتاح عاشور .
مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية د ط ، **١٩٧٠- ١٩٧٢**م.

النويري : **شهاب الدين أحمد عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م** .

١٤ـ نهاية الأرب في فنون الأدب .

الجزء الثالث والعشرون تحقيق د/ أحمد كمال زكي ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٩٨٠**م .

الجزء التاسع والعشرون تحقيق د/ محمد ضياء الدين الريس ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٩٩٢**م .

الجزء الثلاثون تحقيق د/ محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٩٩٠**م .

الهرثمي : **صاحب المأمون** .

١٥ـ مختصر سياسة الحروب .

تحقيق عبد الرؤوف عون ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، سلسلة تراثنا ، د ط ، **١٩٦٤**م .

ابن واصل : **جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م** .

١٦ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب .

الثلاثة أجزاء الأولى ، نشره وضبطه وحققه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهارسه د/ جمال الدين الشيال ، **١٩٥٣- ١٩٦٠**م بدون بيانات .

ياقوت : **شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م** .

١٧ـ معجم البلدان

ثمانية أجزاء ، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ،

ومؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط **١** ، **١٤١٧**هـ / **١٩٩٧**م .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م .

١٨ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني .

قسمان ، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، سلسلة تراثنا ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٩٨٨**هـ / **١٩٦٨**م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة .

أحمد : **أحمد عبد الرازق** (**دكتور**) .

١٩ـ دراسات في المصادر المملوكية المبكرة . ١- المصادر التاريخية .

مكتبة سعيد رأفت ، الزيتون ، د ط ، **١٩٧٤**م .

بارنز : **هاري إلمر**

٢٠ـ تاريخ الكتابة التاريخية .

جزءان ، ترجمة د/ محمد عبد الرحمن برج ، مراجعة د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، **١٩٨٧**م .

البقلي : **محمد قنديل**

٢١ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ط ، **١٩٨٣**م .

البيسري : **فتحي محمد أمين** .

٢٢ـ المفيد في تاريخ العالم العربي في العصور القديمة والإسلامية ،

مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، مكتبة نهضة مصر ، د ط ، **١٩٦٢**م .

الجميعي : عبد المنعم إبراهيم (دكتور)

٢٣ـ تاريخ مدرسة المعلمين العليا ١٨٨٠ـ ١٩٣٣م .

الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

جوانفيل : مذكـــرات .

٢٤ـ القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام .

ترجمة وتعليق د/ حسن حبشي .

دار المعارف ، مصر ، ط ١ ، ١٩٦٨م .

دهمان : محمد أحمد

٢٥ـ معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي .

دار الفكر المعاصر ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

دوسن : كرستوفر

٢٦ـ تكوين أوربا .

ترجمة ومراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٧م .

ديسو : رنيـه

٢٧ـ العرب في سوريا قبل الإسلام

ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، راجعه د/ محمد مصطفى زيادة .

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ت .

راوس : أ . ل

٢٨ـ التاريخ الإنجليزي

نقله إلى العربية د/ محمد مصطفى زيادة .

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، ١٩٤٦م .

زيادة : محمد مصطفى ، والسيد الباز العريني ، ومحمد أحمد الغنام (دكاترة).

٢٩ـ تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية .

وزارة التربية والتعليم ، مطابع جريدة الصباح بمصر ، د ط ، ١٩٥٧م .

زيادة : محمد مصطفى ، وإبراهيم أحمد العدوي ، وأحمد طربين ، ومحمد جمال الدين مختار (دكاترة) .

٣٠ـ تاريخ العالم العربي وحضارته في العصور القديمة والعصر الإسلامي .

الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التربية والتعليم ، الإقليم الجنوبي ، د ط ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

زيادة : محمد مصطفى ، والسيد الباز العريني ، ومحمد الهادي عفيفي ، وعبد الرحمن فهمي ، ومحمد أحمد الغنام (دكاترة) .

٣١ـ تاريخ العرب والإسلام .

وزارة التربية والتعليم ، د ط ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

زيادة : محمد مصطفى ، والسيد الباز العريني ، ومحمد أحمد الغنام ، ومحمد الهادي عفيفي (دكاترة) .

٣٢ـ التاريخ العربي الإسلامي .

وزارة التربية والتعليم ، د ط ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

زيادة : محمد مصطفى (دكتور) .

٣٣ – حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ط**١** ، **١٣٨١**هـ/ **١٩٦١**م .

٣٤ـ المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٩٤٩**م .

سارتون : **جورج**

٣٥ـ تاريخ العلم (الكتاب الأول العلم القديم في العصر الذهبي لليونان).

ستة أجزاء ، ترجمة لفيف من العلماء بإشراف لجنة مؤلفة من الدكاترة : إبراهيم بيومي مدكور ، ومحمد كامل حسين ، وقسطنطين ذريق ، ومحمد مصطفى زيادة ، ومحمد مرسي أحمد .

دار المعارف ، مصر ، طبعات مختلفة ، **١٩٥٧- ١٩٧٢**م .

طرخان : **إبراهيم علي (دكتور)** .

٣٦- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٣٨٨**هـ/ **١٩٦٨**م .

العبادي : **عبد الحميد** ، **ومحمد مصطفى زيادة** ، **وإبراهيم أحمد العدوي (دكاترة)** .

٣٧ـ الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها .

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة ، ط**٣** ، د ت .

عبد السيد : **حكيم أمين (دكتور)** .

٣٨ـ قيام دولة المماليك الثانية .

تقديم د/ محمد مصطفى زيادة .

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، **١٩٦٦**م .

عبد القادر : **عبد الشافي غنيم** .

٣٩ـ الوافي في تاريخ الدولة الإسلامية .

مراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، والأستاذ حسن محمد جوهر .

مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، د ط ت .

فشر : **هربرت**

٤٠ ـ تاريخ أوربا العصور الوسطى .

نقله إلى العربية د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ السيد الباز العريني ، ود/إبراهيم أحمد العدوي .

القسم الأول ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، ١٩٧٦م .

القسم الثاني ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٥٧م .

٤١ ـ نابليون

ترجمة / محمد نوفل ، ومحمد مصطفى زيادة .

المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط١ ، ١٩٢٧ .

طبعة ثانية : دار المعارف بمصر ، د ط ت .

كرامب : **ج ، و ، إ . جاكوب**

٤٢ ـ تراث العصور الوسطى .

جزءان ، ترجمة ومراجعة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بالاشتراك مع د/ محمد مصطفى زيادة ، ومحمد بدران .

مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٥- ١٩٦٧م .

كوبلاند : **ج . و ، وب . فينو جرادوف** .

٤٣ـ الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا .
ترجمة د/ محمد مصطفى زيادة .
مكتبة النهضة المصرية ، ط **٣** ، **١٩٥٨**م .
لانجر : **وليـام**
٤٤ـ موسوعة تاريخ العالم .
ثمانية أجزاء ، أشرف على الترجمة د/ محمد مصطفى زيادة ، ود/ عبد المنعم أبو بكر في الجزء الثامن .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ، **١٩٥٥** – **١٩٧١**م .
هازارد : **هاري**
٤٥ـ أطلس التاريخ الإسلامي
رسم خرائطه سميلي وكوك ، ترجمه وحققه إبراهيم زكي خورشيد ، راجعه محمد مصطفى زيادة ، قدم له محمد عوض محمد .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د ط ت .
ويستنفلد : **ف**
٤٦ـ جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها .
ترجمة د/ عبد المنعم ماجد ، وعبد المحسن رمضان .
مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٨٠م .

ثالثاً : المرجع الأجنبيـة :

Mustafa .M .Ziada

٤٧- The Mamluk Sultans to 1293 wisconsin 1969 vol ll. pp 735- 758 .

٤٨- The Mamluk Sultans to 1291- 1517 wisconsin 1975 vol. lll, pp 496 – 512 .

Articale in the book of (Ahistory of the Crusades)

Edited by: Kenneth . M. Setton

رابعاً : الدوريـات :

حبشي : **حسن** (**دكتور**)

٤٩- كلمة تأبين في ذكرى وفاة المرحوم الأستاذ الدكتور / جمال الدين الشيال .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عشر ، **١٩٦٧**م .

الخشاب : **يحيى** (**دكتور**)

٥٠ - كلمة تأبين الأستاذ شفيق غربال .

المجلة التاريخية المصرية ، العدد الحادي عشر ، **١٩٦٣**م .

خلف الله : **محمد**

٥١ - الجامعة ورسالتها (١) .

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **١٠٣** ، **١٧** ذي القعدة سنة **١٣٥٩**هـ/ **١٧** ديسمبر **١٩٤٠**م .

٥٢ - الجامعة ورسالتها (٢) .

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **١٠٤** ، **٢٤** ذي القعدة سنة **١٣٥٩**هـ/ **٢٤** ديسمبر **١٩٤٠**م .

زيادة : محمد مصطفى (**دكتور**)

٥٣ـ بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر

مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٣٦م ، ط٢ ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، **١٩٥٣**م .

٥٤ـ تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو **١٩٥٠**م .

٥٥ـ حركة البناء والتعمير في عصر الناصر .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع والعاشر ، **١٩٦٠– ١٩٦٢**م .

٥٦ـ الذيل على الروضتين لأبي شامة .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، أكتوبر **١٩٤٩**م .

٥٧ـ سيرة الأستاذ جوذر لأبي علي منصور العزيزي الجوزري

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، **١٩٥٦**م .

٥٨ـ صناعة التاريخ في مصر (١) .

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٩٧** ، **٥** شوال سنة **١٣٥٩**هـ/ **٥** نوفمبر **١٤٠**م

٥٩ـ صناعة التاريخ في مصر (٢)

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **١٠٠** ، **٢٦** شوال سنة **١٣٥٩**هـ/ **٢٦** نوفمبر **١٩٤٠**م .

٦٠ـ صناعة التاريخ في مصر (٣)

مجلة الثقافة السنة الثانية ، العدد : **١٠٥** ، **٣** ذي الحجة سنة **١٣٥٩**هـ ، **٣١** ديسمبر **١٩٤٠** م.

٦١ - صناعة التاريخ في مصر (٤) .

مجلة الثقافة ، السنة الثالثة ، العدد ١١١ ، **١٥** محرم سنة **١٣٦٠**هـ / **١١** فبراير **١٩٤١**م .

٦٢ - فضائل الشام ودمشق للربعي .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، **١٩٥١**م .

٦٣ - في تقسيم التاريخ .

مجلة الثقافة ، السنة الأولى ، العدد التاسع ، **٩** محرم سنة **١٣٥٨**هـ/ **٢٨** فبراير **١٩٣٩**م .

٦٤ - المرحوم محمد رمزي بك

مجلة الثقافة ، السنة السابعة ، العدد **٣٢٣** ، **٢١** ربيع الأول سنة **١٣٦٤**هـ/ ٦ مارس **١٩٤٥**م .

٦٥ - معاصرو ابن إياس (جلال الدين السيوطي) (٦)

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٦٥** ، **١٧** صفر سنة **١٣٥٩**هـ/ **٢٦** مارس **١٩٤٠**م .

٦٦ - معاصرو ابن إياس (٧) .

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٨٦** ، **١٦** رجب سنة **١٣٥٩**هـ / **٢٠** أغسطس **١٩٤٠**م .

٦٧ - معاصرو ابن إياس (٨) .

مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٨٨** ، **١**شعبان سنة **١٣٥٩**هـ / **٣** سبتمبر **١٩٤٠**م .

٦٨ـ معاصرو أبي المحاسن (٤)
مجلة الثقافة ، السنة الأولى ، العدد **٣٨**، **٥** شعبان **١٣٥٨**هـ/ **١٩** سبتمبر **١٩٣٩**م
٦٩ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، **١٩٥١**م .
٧٠ـ مقالة في النقد التاريخي المقارن (٩) .
مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٨٩** ، **٧** شعبان سنة **١٣٥٩**هـ/ **١٠** سبتمبر **١٩٤٠**م .
٧١ـ مقالة في النقد التاريخي المقارن (١٠) .
مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد **٩٠** ، **١٤** شعبان سنة **١٣٥٩**هـ/ **١٧** سبتمبر **١٩٤٠**م .
٧٢ـ مؤلف الطرسوسي في التاريخ الحربي على عهد الأيوبيين .
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، مايو **١٩٤٩**م .
٧٣ـ نقد الحروب الصليبية لبالمرا . ثروب
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو **١٩٥٠**م .
٧٤ـ نهاية السلاطين المماليك في مصر .
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، **١٩٥١**م .
سيـــــد : أيمن فؤاد (**دكتور**)
٧٥ـ رواد الدراسات التاريخية في العصور الوسطى والإسلامية .
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع والثلاثون ، **١٩٩٦**م .
عاشـور : سعيد عبد الفتاح (**دكتور**)

٧٦ـ كلمة تأبين الدكتور محمد مصطفى زيادة .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس عشر ، **١٩٦٩**م .

عبد الكريم : **أحمد عزت** (**دكتور**)

٧٧ ـ كلمة تأبين للأستاذ شفيق غربال

المجلة التاريخية المصرية ، العدد الحادي عشر ، **١٩٦٣**م .

عطية : **عزيز سوريال** (**دكتور**)

٧٨ـ تاريخنا القومي

مجلة العلوم تصدرها جمعية المعلمين ، السنة السابعة ، المجلد الثاني ، مارس وإبريل **١٩٤٠**م/صفر وربيع الأول **١٣٥٩**هـ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

عفيفي : **محمد** (**دكتور**)

٧٩ـ نظرات جديدة على الكتابة التاريخية

ملحق أهرام الجمعة ، **٢١/ ١/ ٢٠١١**م .

فيصـــل : **شكــــري**

٨٠ ـ حركة الترجمة والنشر في العالم العربي

مجلة الثقافة ، السنة التاسعة ، العدد **٤٢٣** ، **١٣** ربيع الأول سنة **١٣٦٦**هـ / ٤فبراير **١٩٤٧**م .

قاسم : **قاسم عبده** (**دكتور**)

٨١ ـ فهم التاريخ في الدراسات الأكاديميـة الحديثـة

ملحق أهرام الجمعة **٢١/ ١/ ٢٠١١**م .

المجلة التاريخية المصرية

٨٢ ـ رسائل الماجستير والدكتوراه التي أجيزت بالجامعات المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩٦٧م .

المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٧م .

المجلة التاريخية المصرية

٨٣ـ اليوبيل الذهبي ١٩٤٥ـ ١٩٩٥م

مصطفى : **أحمد عبد الرحيم** (**دكتور**) .

٨٤ـ شفيق غربال مؤرخاً .

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادي عشر ، ١٩٦٣م .

خامساً : المقالات غير الدورية .

ربيع : **حسنين محمد** (**دكتور**)

٨٥ـ الدكتور سعيد عاشور سيرة وتحية .

ضمن كتاب سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده السبعين ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بأقلام نخبة من تلاميذه ومريديه .

مركز النشر لجامعة القاهرة ، د ط ، ١٩٩٢م .

٨٦ ـ من شوامخ المحققين

الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

٨٧ ـ منهج تحقيق التراث التاريخي عند الدكتور محمد مصطفى زيادة

الجزء الأول ، الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث ، من شوامخ المحققين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، د ط ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

زيادة : **محمد مصطفى** (**دكتور**)

٨٨ ـ أحمد بن علي المقريزي

٨٩ـ تاريخ حياة المقريزي
بحثان ضمن كتاب دراسات عن المقريزي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د ط ، ١٩٧١م .
٩٠ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس
٩١ـ السلوك للمقريزي .
موسوعة تراث الإنسانية ، الجزءان الثاني والثالث ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت .
٩٢ـ الدولة الأيوبيـة
٩٣ـ الدولة المملوكية الأولى .
٩٤ـ الدولة المملوكية الثانية .
ضمن كتاب تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . مكتبة مصر ، القاهرة ، د ط ت .
عاشور : **سعيد عبد الفتاح** (**دكتور**)
٩٥ـ الدكتور محمد مصطفى زيادة .
الجزء الأول ، الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث ، من شوامخ المحققين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، د ط ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .
فهمي : ماهر حسن
٩٦ـ تحرير المرأة لقاسم أمين
موسوعة تراث الإنسانية ، الجزء الثالث ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، د ط ت .

سادساً : المقابلات الشفهيـة الخاصـة :

ربيع : محمد حسنين (دكتور)

٩٧ـ محاضرة مخطوطة عن الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ومقابلة شفهية مع الباحث من الساعة ١-٢ ظهر يوم الثلاثاء ٥/ ٤/ ٢٠١١م ، قسم تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

عبد الرازق : محمود إسماعيل (دكتور)

٩٨ـ مقابلتان شفهيتان للباحث

الأولى بتاريخ ٣٠/١٢/٢٠١٠م الساعة١-٢ ظهراً،والثانية بتاريخ٨/٤/٢٠١١م الساعة ٧-٨ مساءاً بمنزله بمدينة المنصورة

سابعاً : مواقع الشبكة العنكبوتيـة :

٩٩ ـ الموسوعة الحرة ويكيبيديا **www.Wikipedia. org**

الساعة الثامنة صباحاً ، ٢١/٦/٢٠١١م ، مادة ليفربول .

١٠٠ ـ موقع كلية الآداب جامعة المنصورة .

www. Arts. Cu. Edv. Eg

الساعة ٦.١١ مساء يوم ١١/١/٢٠١١م .

فهرســت الموضوعــات